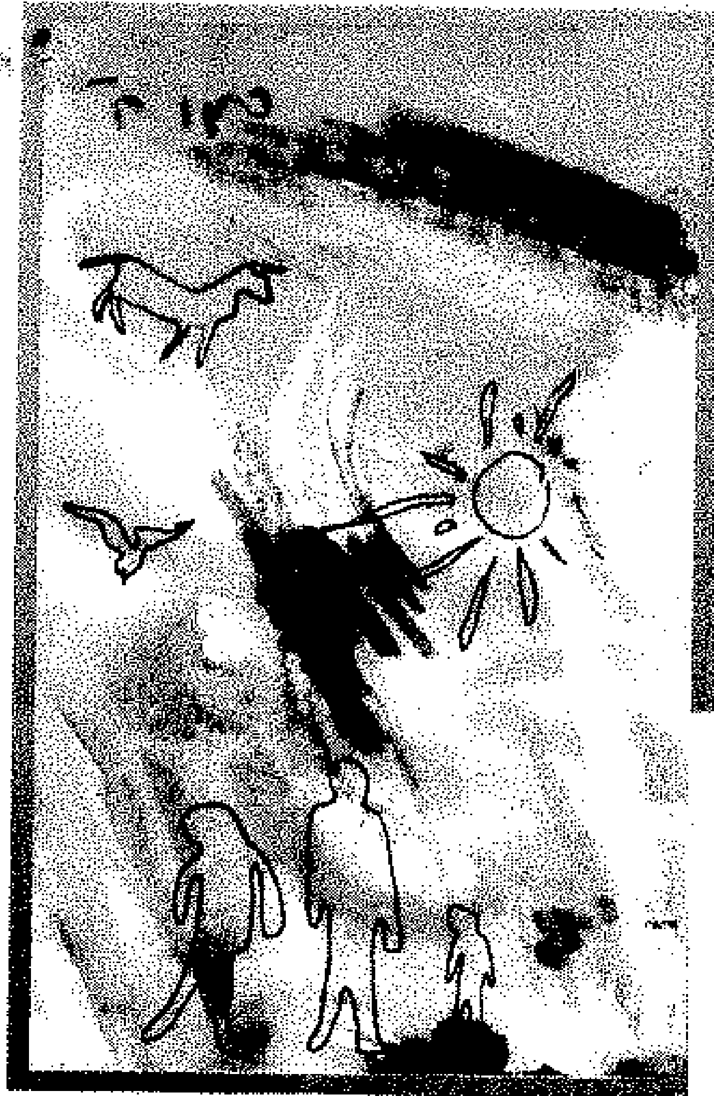
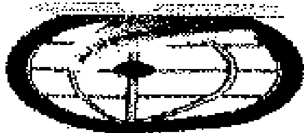
غابرييل غارسيا ماركيز

اثنتا عشرة حكاية تائهة





الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

اثنتا عشرة حكاية تائهة

* اثنتا عشرة حكاية تائهة.
* تأليف: غابرييل غارسيا ماركيز.
* تعريب: يسرى مقدّم.
* الطبعة الأولى: 1405 و.ر. /1995 م.

* الناشر: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
□ العنوان: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى،
ص. ب. 921 سرت ـ هاتف: /6363170 - 6363174/.
* رقم الإيداع: 95/1961 دار الكتب الوطنية ـ بنغازي.

غابرييل غارسيا ماركيز

اثنتا عشرة حكاية تائهة

تعريب :
يسرى مقدم

الـدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدمة

لماذا إثنتا عشرة؟
لماذا حكايات؟
ولماذا تائهة؟

كتبت الإثنتا عشرة حكاية التي تُصنّف هذا المؤلَّف، في خلال الثمانية عشر عاماً المُنصرِمة. قبل صيغتها الحالّية كانت قصصاً من ضمنها خمسٌ، نُشرت في الصحف أو حُوّلت إلى سيناريوات لأفلام سينمائية. وسادسة منها كانت في الأصل مسلسلاً تلفزيزنياً. وكنت رويت واحدة منها لأحد الأصدقاء خلال لقاء سُجل صوتياً منذ خمسة عشر عاماً فنسخها وعمل على نشرها، ثم احتوتها هذه النسخة بعد أن أعدت كتابتها.

كانت تجربة مثيرة قمينة بالعرض ما كانت لتكون إلاّ ليدرك منذ اللحظة من يود إمتهان التأليف من الأولاد. كم يصعب اشباع نزعة الكتابة وكم هي جَشِعَة ملحاحة.

مع بداية السبعينات، خطرت لي الفكرة الأولى مكتملة إثر حلم مُضيء. كنت أقطن في برشلونه منذ خمسة اعوام. وفي الحلم كنت أشارك في مأتمي الشخصيّ راجلاً بصحبة مجموعة من الأصدقاء، يرتدون الحداد في جو إحتفالي يكتنفه الإبتهاج. كنا نبدو

سعداء كوننا معاً، وكنت أسعدهم على الإطلاق بفضل تلك المناسبة السعيدة التي أتاحها لي الموت ليجمعني بأصدقائي اللاتينو اميركيين. أقدم أصدقائي وأكثرهم إثرة وهم الأشخاص أنفسهم الذين ما عدت أراهم منذ عهد بعيد. ثم حين إنفضَّ الإحتفال وشرعوا في الرحيل أردت اللحاق بهم، غير أن أحدهم أبلغني بصراحة لا جدوى لها أن الإحتفال قد انتهى بالنسبة إليّ. «أنت الوحيد الذي لا يسعه الذهاب». قال لي. عندها أدركت أن موت الإنسان يعني إستحالة رؤية أصدقائه مجدداً وإلى الأبد.

لا أدري تماماً لِمَ أوّلت هذا الحلم النموذجي بالوعي لهويتي، ولِمَ اعتقدت بأنه يُشكِّل هذا تحديداً نقطة انطلاق في غاية الأهمية للكتابة حول الأحداث الغريبة التي يُعِّد اللاتينو اميركيون ابطالها الأوائل في أوروبا. بدا لي الكشف مغرياً، ذلك أنني كنت قد أنجزت منذ وقت قريب رواية خريف البطريرك. أشد الأعمال التي كان قد أتيح لي الالتزام بها، خطورة وأصعبها على الأطلاق. وما كنت اعلم من أي منطلق أواصل العمل.

طيلة عامين تقريباً، داومت على تدوين ملاحظات حول ما كان يحضرني من المواضيع دون أن أحدد مسبقاً كيف أنوي توظيفها. مساء اليوم نفسه الذي صممّت فيه على الشروع بالكتابة لم يكن بمتناولي كراسٌ للملاحظات. فوهبني أولادي واحداً من كراساتهم المدرسية وقد حرصوا على حفظه دائماً في أكياس كتبهم خلال رحلاتنا المتكررة خشية فقدانه. في غضون وقت معين بات لدي

أربعة وستون موضوعاً روائياً مُثبّتاً يتوّافر معها كثير من التفاصيل بحيث ما عاد ينقصني غير كتابتها.

في المكسيك عام 1974، إثر عودتي من برشلونة، تراءى لي أنه ينبغي لهذا الكتاب ألاّ يؤول إلى رواية وفق ما أملت به أول الأمر، بل إلى مجموعة حكايات قصيرة تعتمد فن الكتابة الصحفية وتحرر من طوقها المملّ بفضل الحِيل الشعرية. وكنت قد أنجزت حتى ذلك الحين كتابة ثلاثة اجزاء من الحكايات؛ على أن أياً منها لم يُصغ أو ينجز ككل. فقد سجلت كل حكاية على حدة قصة مستقلة وظريفة بحيث كان من الممكن أن تغدو كتابة أربعة وستين موضوعاً، مغامرة رائعة شرط أن انجز كتابتها جميعاً بالريشة عينها وأن أهبها وحدة داخلية لجهة اللغة والأسلوب ما قد يجعلها متلازمة في ذهن القارىء.

كُتبت الحكايتان الأوليان «أثر دمائك على الثلج» و«صيف مدام فورب السعيد»، عام 1976. ونشرتا على الفور في الملحقات الأدبية في أكثر من مكان. وكنت اعمل دون توانٍ. ثم في منتصف الحكاية الثالثة، حكاية مأتمي، كان إرهاقي قد بلغ حداً يفوق عناء عمل روائي، وتكرر الأمر نفسه عند كتابتي للحكاية الرابعة حتى أنني ما عدت أملك طاقة لإنجازها. الآن أدرك لأي سبب: فالجهد الذي نصرفه لكتابة حكاية أشد كثافة من ذاك الذي يمليه مطلع رواية. ذلك أنه يجدر بنا في الرواية تحديد الأمور كافة منذ المقطع الأول لجهة: البنية، الأسلوب، اللغة، الإيقاع، والمدى. وحتى سمة بطل من

أبطال الرواية أحياناً، في ما تتعلق البقية بمتعة الكتابة أكثر المتع حميمية وأشدها تفرداً على الإطلاق. وإن كنا لا نعرف ما تبقّى من الوقت في تصويب الكتاب فلأنه ينبغي لنا لإنجازه أن نلزم أنفسنا بالدقة نفسها التي يُحتمها الشروع به. على النقيض من ذلك، لا تلتزم الحكاية ببداية أو نهاية، فهي تتحرك أو لا تتحرك. وفي حال سلبيتها تُعلمنا التجربة الذاتية كما تجارب الآخرين أنّه يُفضل في الغالب الشروع بالكتابة ثانية إنطلاقاً من الصفر أو أن نرمي في القمامة بما كتبنا. وأفضل من أحسن التعبير عن ذلك شخص ما عدت أذكر اسمه: «يُميِّز الكاتب الجيد بما يُمزِّقه، لا بما ينشره». الحق اني لم أمزّق مسودّاتي ولا ملاحظاتي. غير اني فعلت ما هو أسوأ من ذلك. فقد أودعتها طيّ الإهمال.

على ما أذكر لبث الكراس فوق مكتبتي حتى عام 1978 مطموراً تحت ركام من أوراق الصحف. ثم ذات نهار، وكنت في صدد البحث عن شيء آخر، تنبهت إلى اني ما عدت ألمحه منذ بعض الوقت فلم أولِ الأمر اهمية. في المقابل أصبت بهلع حين تيقّنت من فقدان الكراس، قلبنا البيت رأساً على عقب. نبشنا الأثاث وأفرغنا المكتبة لنتحقق من أنه لم ينزلق خلف الكتب. أخضعنا أصدقاءنا وخدم المنزل لتحقيقات لا تُغتفر. وما عثرنا له على أثر. التفسير الوحيد المعقول ـ أو المحتمل ـ أن يكون الكراس قد رسا في قعر صندوق القمامة خلال واحدة من عمليات الغربلة التي اعتدتُ القيام بها.

صعقتني ردة فعلي: فالمواضيع الروائية التي غفلت عنها طيلة
ـة أعوام غدت بالنسبة إليّ قضية شرف. وتصميماً مني على
ويضهـا بـأي ثمـن انغمسـت فـي عمـل تفـوق مشقّته كتـابتهـا
ددأ. ونجحت في إعادة تشكيل ملاحظات لإثنين وثلاثين منها؛
ا كان لإعادة التشكيل هذه مفعول الملّين أو المسهل عمدت على
تراءى لي ومن دون تأنيب ضمير إلى إلغاء مالا يستعاض عنه،
لصت إلى ثمانية عشر موضوعاً. هذه المرة عزمت على كتابتها
يعاً دفعة واحدة، غير أنني سرعان ما لاحظت أن حماسي قد فتر.
ـ أنني خلاف ما كنت أنصح به على الدوام المبتدئين من الكتّاب،
أرمِ بالمسودتين في القمامة بل أرشفتها تفادياً لمثل ما حدث.

حين باشرت بكتابة قصة موت معلن عام 1979، اتضّح لي
ـ أفتقد بين كتاب وآخر آلية الكتابة، وأنني أجد في كل مرة مشقة
نة في استئناف العمل. عندها ألزمت نفسي خلال الفترة الواقعة ما
، أوكتوبر 1980 ومارس 1982 بضرورة كتابة قصة اسبوعية لتُنشر
الصحف العالمية بنية الحفاظ على مِراسي. وقد اعتقدت آنذاك
مشاكلي وملاحظات الكراس كانت شأناً ذا طابع أدبي وأنه يجدر
تجييرها للصحف عوضاً عن كتابتها حكايات. غير أني عزفت عن
ـث بعد أن نشرت خمس قصص مستوحاة من الكراس بإعتبار أنها؛
اسب أكثر مع السينما، وهكذا تولّدت خمسة أفلام سينمائية
سلسل تلفزيوني. إلاّ أنني ما كنت اتوقع أن الكتابة للصحف
لسينما تلزمني بإخضاع الحكايات للتعديل، بحيث كان علي حين

منحها الصيغة النهائية أن أتعهّد بفضل الأفكار التي تخصُّني عن تلك التي كان ينقلها لي المخرجون أثناء إنشغالي على السناريو. فضلاً عن ذلك اتاح لي التعاون مع خمسة سينمائيين مختلفين استشفاف اسلوب مغاير في كتابة الحكايات. فكنت أشرع بكتابة واحدة منها حين أملك متسعاً من الوقت، لأنصرف عنها متى شعرت بالضجر أو برز مشروع طارىء، ثم أباشر بأخرى. خلال ما يربو على العام بقليل انتهى أمر ستة من أصل ثمانية عشر موضوعاً كنت احتفظت بها في صندوق القمامة، من ضمنها موضوع مأتمي، ذلك أني ما وُفقّت قط في منحه ذاك الإبتهاج الذي شعرت به في الحلم. في المقابل كانت المواضيع المتبقية تبدو مفعمة بنفحة من امتداد الأجل Longévité تلك هي حكايات هذا الكتاب الإثنتا عشرة.

في سبتمبر عام 1991، عقب عامين إضافيين من العمل الدؤوب غدت الحكايات جاهزة للنشر، ولا ريب أنها كانت لتستكمل بذلك تيهها المتوالي ما بين مكتبي وصندوق القمامة لو لم يعترني في اللحظة الأخيرة تردد أخير، لما كنت قد أتيت على وصف مختلف المدن الأوروبية حين تجري أحداثها، مستعيناً بذاكرتي من بعيد، وددت أن أختبر أمانة ذكريات غابرة تعود إلى نحو عشرين عاماً فقمت برحلة إستطلاع خاطفة إلى برشلونة وجنيف وروما وباريس. لم يكن لأي من هذه المدن أدنى صلة بما تختزنه ذاكرتي حولها. كانت جميعها مثلها مثل انحاء أوروبا كافة حالياً قد تحوّلت غريبة بتعاكس مدهش: فالذكريات الحقيقية تراءت لي أوهاماً تمليها

الذاكرة، فيما بدت الباطلة منها مقنعة للغاية حتى أنها نابت عن الواقع. بحيث كان يستحيل علي تمييز الحدود الفاصلة ما بين الخيبة والحنين. على أنني كنت امسك بمفتاح الحل. فقد وجدت أخيراً ما كنت احتاجه لإنجاز كتابي. ووحده توالي السنين كان كفيلاً بمنحي إياه: البعد الزمني. Perspective de Temps.

عقب عودتي من الرحلة السعيدة، اعدت كتابة الحكايات كافة من البداية إلى النهاية خلال ثمانية عشر شهراً مضت محمومة لم تراودني خلالها مطلق رغبة بالتساؤل حول أين تنتهي الحياة وأين يبدأ الخيال. ذلك أنني استعنت بوهم أن كل ما عشته في أوروبا من قبل عشرين عاماً كان حقيقة. حينها أمست الكتابة سلسة للغاية. حتى أنني كنت أحس بنفسي أحياناً مستلباً بمتعة السرد ببساطة، ربما هي حال الإنسان الذي ينتمي أكثر إلى الإسترفاع Lévitation. علاوة على ذلك أكسبتني كتابة الحكايات في الوقت عينه متنقلاً من واحدة إلى أخرى بمنتهى الحريّة، رؤية بانورامية جنّبتني الإحساس بعناء البدايات المتتالية، وأعانتني على تحاشي الإطناب المتواني والتناقضات المميتة، وأعتقد أنني بهذا أتقنت مجموع الحكايات التي تقارب إلى حدٍ بعيد ما كنت أتوق دوماً لكتابته.

تلك هي في حلّتها النهائية بعد الكثير من التناسخ والمغامرة والنضال في مواجهة سرور التردد. أُنجِزت جميعها في الوقت عينه بإستثناء الحكايتين الأوليين، ويحمل كل منها تاريخ المباشرة بكتابته، وقد وردت هنا وفق الترتيب المدرج على كرّاس الملاحظات.

لطالما اعتقدت أن كل نسخة لحكاية هي أجود من سابقتها. إذاً كيف لي أن أعلم أنها ينبغي أن تكون الأخيرة؟ ذاك هو سرُّ المهنة لا يخضع لشروط العقل بل لسحر الحدس تماماً كحدس الطاهية حين تدرك متى ينضج الحساء. في مطلق الأحوال، وإحتياطاً للإحتمالات كافة، سوف لن أعيد قراءتها كما لم أعد قراءة أي من كتبي خشية شعوري بالحسرة لكتابتها. وللقرار حريّة التصرف بها لحسن طابع هذه الحكايات الإثنتي عشرة التائهة أن يبدو إستقرارها في قعر سلة أشبه بغرار العودة ثانية إلى المقّر.

غ.غ.م

Cortagena de Indias أبريل 1992

سفراً سعيداً سيدي الرئيس

كان يجلس على مقعد خشبي، تحت فيء الأوراق الصفراء في المتنزّه المنعزل، مستغرقاً في تأمل الأوز المُعفَّر، يتكيء بيديه الإثنتين على تُفيحة فضّية تعلو مقبض عصاه، متفكراً في الموت.

خلال إقامته الأولى في جنيف، تجلّت البحيرة شفافة رائعة، كان النورس الوديع يقبل لينقد ما تجود به يده، وكانت بائعات الهوى يبدوْن في السادسة مساءً خفيفات رشيقات بكجّاتهن المُريَّشة وبمظلاتهن الحريرية. اليوم أقصى ما يمكن لعينيه أن تطاولاه، امرأة وحيدة هي بائعة ورود تقف على الرصيف المُقفر. كان من الصعب عليه الإقرار بأن للزمن طاقة على إلحاق مثل هذا الدمار في حياته وفي العالم. لم يكن سوى مجهول إضافي آخر في مدينة المجهولين المشاهير. يرتدي بدلة كحلية مقلّمة بالأبيض، وصداراً من البروكار، ويضع قبعة كالتي للرؤساء المتقاعدين مستديرة ومنتفخة، ويرسل شارباً شامخاً كشوارب الفرسان، شعره المائل إلى الزرقة كثٌّ يمور بتموجات رومانسية. له يدا ضارب القيثار، وفي بنصره الأيسر لاح خاتم الترمُّل، وكانت له عينان برّاقتان. وحده ترهُّل بشرته كان

يفضح حال عافيته وإن كان لا يزال يحتفظ على الرغم من بلوغه الثالثة والسبعين بأناقة النبلاء. غير أنه ذاك الصباح، كان مجرَّد الحسّ من أي شعور بالزهد. فسنوات المجد والسلطة كانت قد تقعَّرت في الماضي إلى الأبد، ولم يعد أمامه سوى سنوات الموت.

كان قد عاد مجدّداً إلى جنيف عقب حربين عالميتين إلتماساً لتشخيص طبي حاسم حول وجع لم يفلح أطباء المارتنيك في تعيين أسبابه. وقد ملأه الظن أن هذا لن يستغرق منه على أبعد تقدير أكثر من خمسة عشر يوماً، لكنه لبث يتنقّل بين فحوص طُبيّة مُضنية، ونتائج مخبرية غير مؤكدة مدة ستة أسابيع من غير أن يستشفّ لذلك نهاية. كان الأطباء يطاردون الوجع في الكبد والكلى والبنكرياس والبروستات وفي أعضائه كافة ما خلا الموضع الذي كان يسكن فيه. إلى أن عيّن له طبيب هو أدنى شهرة ممن سبق أن عاينه من الأطباء، موعداً في التاسعة من صباح ذاك الخميس المقيت في قسم الأمراض العصبية. كانت العيادة أشبه بصومعة ناسك، وكان الطبيب المكروب قصير القامة يلفّ يده اليمنى بالجصّ لكسر في إبهامه. حين أطفأ النور لاحت على الشاشة صورة اشعاعية ساطعة لعمود فقري لم يتبين أنّه له إلاّ حين أشار الطبيب بعصاه إلى تقاطع فقرتين في أسفل قطمه.

من هنا منشأ وجعك، قال. بالنسبة إليه، لم يكن ثمة أشد لبساً من ذلك، فقد كان وجعه فائق الوصف ومتباعداً. يستقر تارة في جنبه الأيمن وطوراً في أسفل البطن، وغالباً ما كان يباغته بنعرة

صاعقة في ثُنية الفخذ. أصغى إليه الطبيب متأنياً وعصاه ثابتة على الشاشة «لهذا السبب خدعنا طيلة المدة السابقة»، قال. لكننا ندرك الآن أنّه يستقر هنا». ثم ضاغطاً صدغه بطرف سبابته أوضح قائلاً: «على الرغم من أن الدقة تُنبئنا سيدي الرئيس أن الأوجاع كافة تسكن هنا». كان لمعاينته السريرية طابع بلغ حداً دراماتيكياً حتى أن القرار النهائي بدا تساهلاً: يقتضي للرئيس الخضوع لعملية جراحية شديدة الخطورة وإن كان يتعذر الإستغناء عنها.

حين أراد الرئيس استيضاح مدى خطورتها أحاطه الطبيب الكهل بهالة من الغموض. «لن يسعني الإجابة عن ذلك بدقة! قال ثم شدّد على أن مخاطر الوفاة كانت ما تزال لوقت قريب كبيرة جداً تفوقها أيضاً مخاطر الشلل على مختلف أنواعه الكامل منه والجزئي، غير أن التقدم الذي أحرزه الطب في غضون الحربين الأخيرتين نبذ هذه المخاوف لتمسي جزءاً من الماضي. «الزم الهدوء»، خَلُصَ قائلاً، رتب أمورك ثم أخطرني بذلك، وإياك أن تنسى أن الإسراع في ذلك خيرٌ لك».

لم تكن تلك الصبيحة بالأوان المناسب ليهضم هذا النبأ السيّىء، لا سيما في مثل ذاك الطقس الرديء، وكان قد خرج باكراً من غير معطف، ذلك أنه حدس عبر النافذة بدفء شمس ساطعة. اجتاز بخطى متزنة طريق الـ البو سولاي Beau Soleil، حيث يقع المستشفى حتى بلغ المتنزّه الأنكليزي ملاذ العشاق المتخفّين، ولبث هناك منذ ساعة مبكرة مستمراً في التفكير بالموت، إلى أن حلّ

الخريف بغتةً. فماجت البحيرة كمحيط إستبد به الهياج، وهبّت ريح عشوائية أرعبت أسراب النورس، وانتزعت معها آخر ما تبقى من أوراق الشجر. فهب الرئيس واقفاً وقطف من حديقة البلديّة زهرة لؤلؤ عازفاً عن شرائها من بائعة الورود التي باغتته متلبساً وهو يشكلها في عروة سترته «ليست هذه الورود هبة لوجه الله، قالت مغتاظة. هي ملك للبلديّة».

تصنع العمّ، وابتعد بخفة موسعاً خطاه، وممسكاً بعصاه من وسَطها يحوّمها بين الفينة والأخرى بوقاحة سافرة. فوق جسر الـ مون بلان Mont - blanc كان بعضهم يُنزلُ على جناح السرعة أعلام الإتحاد الكونفدرالي بعد أن تمكن منها جنون العاصفة، فيما أوقفت نافورة الماء الرشيقة المتوّجة بالرذاذ قبل موعدها المألوف. وأخطأ الرئيس مقهاه المعهود على الرصيف ذلك انهم كانوا قد رفعوا إفريزه الكتاني الأخضر وأوصدوا شرفاته الصيفية المزنّرة بالزهور. في الردهة كانت المصابيح مضاءة كما في وضح النهار، وكان الرباعي الوتري يعزف لموزار ألحاناً Prémonitoire (تحذيريّة). فتناول الرئيس صحيفة من الصحف المخصّصة للزبائن والمكدّسة فوق الكونتوار، وعلق بالمشجب قبعته وعصاه، وضبط نظّارتيه ذات الإطار الذهبي ليطالع جالساً إلى طاولة بعيدة منفردة، مدركاً حينذاك أن طلائع الخريف قد هلّت. شرع بقراءة صفحة الأخبار العالمية حيث كان يحدث له أحياناً أن يقع على بعض أخبار الأميركتين ثم تابع مطالعة الصحيفة بالمقلوب، من صفحتها الأخيرة حتى صفحتها

الأولى بإنتظار أن تحمل له النادلة زجاجة المياه المعدنية الإيڤيان Evian المعتادة. وكان قد امتنع منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً عن عادة إحتساء القهوة عملاً بنصيحة اطبّائه، غير أنه كان يؤكد «إن تيقنت يوماً من موتي الوشيك فسأحتسيها من جديد». وربما كانت الساعة قد أزفت «احملي لي قهوة أيضاً» طلب بفرنسيّة متقنة، ثم حدّد دون أن يلاحظ ما تحمله عبارته من تورية: «لتكن قهوة طليانية كتلك التي تحيي الموتى».

رشفها خالية من السكر، وبجرعات صغيرة، ثم قلب الفنجان فوق الصحن الصغير بغية أن يتيح للثقل مجالاً ليستريح وليرسم طالعه بعد سنوات عديدة من الإنقطاع. انتزعته النكهة المُستعادة لبرهة من سوداويته. ثم عاد بعدها يهجس تحت وطأة الشعوذة عينها بأن أحدهم كان يترصّده. عندئذٍ قلب الصفحة بحركة آلية ورفع بصره من أعلى نظارته فلمح الرجل، بدا هزيلاً غير حليق يعتمر قبعة رياضية، ويضع سترة من فرو الخروف. وقد أشاح بنظره على الفور لئلا تتقابل نظراتهما.

كان وجهه مألوفاً لديه، وكانا قد إلتقيا مراراً في رواق المستشفى، وتذكر أنه رآه ذات نهار يقود دراجة نارية بإتجاه متنزّه البحيرة فيما كان مستغرقاً في تأمل الأوز، لكنه لم يحدس قط أن احدهم قد يكشف هويته، بالمقابل، لم يستبعد إحتمال أن يكون منشأ احساسه مجرد إسسيتهام يُصاب بمثله المنفيّون عادة.

فأكمل مطالعة صحيفته بهدوء فتوناً بعظمة عازفي فيولونسيلات

(Violencelles) براهمز (Brahms) إلى أن إنتشله الألم من خدر الموسيقى، فعاين حينها ساعته الذهبية الصغيرة وكان يحرص على حملها مُعَلقة بسلسلة في جيب صداره، ثم ابتلع حبتين من المهدِّىء مخصصتين لوسط النهار، مع آخر جرعة من مياه الإيڤيان (Evian). وقبل أن ينزع نظّارتيه قرأ طالعه في تفل القهوة، فسرت في متنه قشعريرة باردة: الثفل يُنْبِىء بالغموض. أخيراً سوّى الحساب، وخلّف بقشيشاً شحيحاً، ثم تناول من المشجب قبعته وعصاه وخرج دون أن يلتفت إلى الرجل الذي كان يحملق به. إبتعد بخطى ارتساميّة مهيبة، مجانباً حديقة الزهور التي شرّمتها العاصفة، واثقاً أنه بات بمأمن من السحر. غير أنه لاحظ بغتة وقع خطى تدبّ خلفه، فأكمل حتى زاوية الشارع ثم تجمّد في مكانه قبل أن يلتفت، فتوقف الرجل الذي كان يتعقبه على الفور لئلا يصطدم به، ثم حدّق فيه مضطرباً وقد وقف قبالته على بعد سنتمترات.

«سيدي الرئيس، همهم قائلاً...

ـ قل لمن رشاك ألاّ يتوهم، قال الرئيس دون أن يتخلى عن إبتسامته أو حتى عن نبرته اللطيفة. فأنا بأوفر عافية.

ـ ليس ثمة من يدرك ذلك أفضل مني، أجاب الرجل منذهلاً لِمّا ناله من شرف هبط عليه بغتة، فأنا أعمل في المستشفى».

أسلوبه في الكلام وطريقة نطقه بالكلمات وحتى خجله كانت جميعها تنمُّ عن خاصِّية كاريبي عريق الأرومة.

«لا تقل إنك طبيب. قال الرئيس.

ـ آه، وددت لو كُنته سيدي الرئيس، قال الرجل: للأسف لست إلا سائق سيارة الإسعاف.

ـ عذراً. علق الرئيس مستدركاً هفوته. انه لعمل شاق.

ـ أقلّ مشقة من عملك سيدي».

تفرّس فيه الرئيس من غير تحفظ ثم توكأ عصاه بيديه الإثنتين ليستعلم بإهتمام واضح.

ـ من اين أنت؟

ـ من الكاريبي.

ـ أدركت هذا. قال: لكن من أي بلد؟

ـ من بلدك سيدي. قال الرجل. ثم مدّ يده لمصافحته. أُدعى هوميرو راي Homero Rey.

مشدوهاً، قاطعه الرئيس وهو يصافح اليد المبسوطة.

ـ هكذا إذن. أي اسم جميل هذا فاسترخت أعصاب هوميرو.

ـ ليس هذا كل شيء، أضاف، «هوميرو راي دو لاكازا» Homero Rey de la Casa.

باغتتهما سياط المطر وهما وسط الشارع، لايملكان ما يتقيان به أذاها. وتملّكت الرئيس رعدة جليدية سرت في لبّ عظامه، فأدرك أنه عاجز من دون معطفه عن إجتياز مسافة المئة متر التي

كانت تفصله عن المطعم الحقير حيث اعتاد تناول طعامه.

ـ هل أفطرت؟ قال يسأل هوميرو.

ـ لا أتناول الفطور إطلاقاً. أجاب هوميرو. اكتفي بوجبة واحدة في المنزل عند المساء.

ـ استثنِ هذا اليوم، قال له بتودد متكلِّف، أنت اليوم مدعوي.

وأمسك به من ذراعه، ثم رافقه إلى المطعم مقابل إرتسم اسمه بأحرف ذهبية فوق الإفريز الكتاني: البقرة المتوجة. في الداخل، كان المكان على ضيقه دافئاً. لكن لم يبدُ لهما أن ثمة طاولة خالية. تقدم هوميرو إلى وسط القاعة ليطلب المساعدة وقد استغرب أن يجهل رواد المطعم هوية الرئيس.

«أهو رئيس قيد العمل؟ سأل صاحب المطعم.

ـ لا أجاب هوميرو. هو رئيس مخلوع.

فأطلق الرجل ضحكة صاخبة.

«لهؤلاء، لدي دائماً طاولة خاصة. ثم قادهما إلى زاوية منعزلة في طرف الصالة حيث يسعهما الثرثرة براحة. فشكره الرئيس.

ـ ليس ثمّة من يُقدِّر مثلك مقام المنفى»، قال. كان المحل مختصاً بتقديم ضلوع البقر المشوي. أجال الرئيس وضيفه بنظرهما في المكان، ولاحظا أن الطاولات كافة الأخرى كانت تتصدرها أطباقٌ تحوي قطعاً كبيرة من اللحم المشوي إلى جانبها دهن طري.

«مذاق اللحم عظيم لكنه مُنع عني» وحَدَجَ هوميرو بنظرة خبيثة ثم تابع بنبرة مختلفة.

«في الواقع مُنعت عني أشياء كثيرة.

ـ القهوة أيضاً مُنعت عنك، قال هوميرو، ومع ذلك تحتسيها.

ـ ألاحظت ذلك؟ قال الرئيس. اليوم فقط خالفت العادة لأنه يوم إستثنائي». لم يكن إستثناء ذاك النهار مقتصراً على القهوة فقط فقد طلب طبقاً من اللحم المشوي وسلطة خضار طازجة لم تُتبَّل بغير قليل من زيت الزيتون.

فاحتذى هوميرو حذوه مضيفاً إلى طلبه نصف دورق من النبيذ الأحمر.

بإنتظار أن يجهز اللحم، أخرج هوميرو من جيب سترته كيساً للنقود محشواً بالأوراق لكنه خالٍ من النقود. ومدَّ يده للرئيس بصورة بهتت الوانها. ميَّز رسمه فيها، بدا مشمَّر الأكمام، أقل من وزنه الحالي ببضعة كيلوغرامات، لشاربه لون أسود فاحم. يقف وسط مجموعة من الشبان يتطاولون ليبرزوا في الصورة إلى جانبه، تعرَّف إلى المكان منذ النظرة الأولى، وتذكر شعارات الحملة الإنتخابية، تذكر تاريخها المقدَّر المشؤوم. «يا للهول! همهم قائلاً: لطالما اعتبرت أننا نشيخ في الصورة أكثر مما في الواقع». ثم أعاد له الصورة كمن ينهي فصلاً أخيراً. «أذكر ذلك جيداً، كان ذلك منذ أمد سحيق في معقل قادة الحرب في سان كرسيتوبال دو لاس كازاس

L'enclos des coqs de combat de san cristobal de las casas.

ـ هي قريتي، قال هوميرو، ثم أشار إلى رسمه في الصورة انظر: هذا إنه أنا».

فميزه الرئيس.

«لكنك لم تكن سوى شاب صغير.

ـ تقريباً، قال هوميرو، كنت إلى جانبك طوال حملة الجنوب مكلفاً بقيادة الألوية الجامعية.

تغاضى الرئيس عن نبرة العتبِ.

«وأنا، بالطبع ما كنت ألاحظ وجودك حتى.

ـ على العكس تماماً، كنت ودوداً مع الجميع، قال هوميرو لكننا كنا كُثُراً بحيث لن يسعك تذكري.

ـ ثم بعد؟

ـ من يعرف القصة أكثر منك؟ قال هوميرو. عقب الإنقلاب العسكري، انها لمعجزة أن نكون هنا، أنت وأنا، نتأهّب لإلتهام نصف بقرة، لم يحظَ أحدٌ بمثل هذه الفرصة.

تلك اللحظة بالذات، أُحضرت الأطباق، فعقد الرئيس فوطته حول عنقه على شاكلة صدار الأطفال، وأثرّت فيه دهشة مدعوّه الصامتة فعلّق: «إن لم أفعل، قد أُتلف عند كل وجبة ربطة عنق». قبل مباشرته بالطعام تحقّق من حسن إكتواء اللحم وأطرى نضجه بإيماءة استحسان ثم عاد يستأنف حديثه «ما لم استوضحه بعد هو لِمَ

تعقَّبتني كجاسوس عوضاً عن مقابلتي مباشرة». عندئذٍ روى له هوميرو كيف تعرَّف عليه فور دخوله المستشفى عبر باب مخصَّص للحالات الإستثنائية فقط. كان ذلك منتصف الصيف وكان يرتدي بزَّة كتانية بيضاء كمواطني الأنتيل، وينتعل حذاء بلونين أسود وأبيض وقد شكَّ في عروة سترته زهرة اللؤلؤ، فيما بدا شعره الجميل مشعثاً بفعل الريح. وقد علم هوميرو أنه يعيش منفرداً في جنيف من دون أدنى مساعدة، ذلك أنه كان يعرف المدينة خير المعرفة حيث سبق له أن أنهى دراسة الحقوق. وكانت إدارة المستشفى قد اتخذت بناء على طلبه الإجراءات الادارية المتوجبة لضمان تستره. مساء ذلك اليوم عقد هوميرو وزوجته النيّة على الإتصال به، لكنه عاد يتعقبه طيلة خمسة أسابيع بإنتظار فرصة سانحة لأنه من غير ريب لم يكن يجرؤ على تحيّته ما لم يبادره الرئيس بذلك.

«إني ممتنّ لأنك فعلت، قال الرئيس. حتى وإن كنت لا أمقت العزلة بأي حال من الأحوال.

ـ هذا غير صحيح.

ـ ولِمَ لا؟ تساءل الرئيس بنبرة صادقة. أعظم انتصاراتي في الحياة هو جعلي الآخرين يتنكرون لي.

ـ إننا نفكر بك أكثر مما تتصور، قال هوميرو من غير أن يضبط انفعاله، انه لرائع أن نراك على حالك هذا شاباً، سليم العافية.

ـ مع ذلك، قال الرئيس من غير مغالاة حزينة: كل الأمور تبشّر بموتي الوشيك.

ـ لكنك تملك فرصاً كبيرة للنجاة، أجاب هوميرو، فانتفض الرئيس مبغوتاً، على أنه ظلَّ محتفظاً برباطة جأشه.

«هيا إذن، صاح. لاتقل بأن السرية الطبية في سويسرا الجميلة باتت ملغيّة.

ـ ما من أسرار تُحجب عن سائق سيارة الإسعاف في أية مستشفى في العالم، عقَّب هوميرو.

ـ حسناً، إن ما أعرفه أنا، أُبْلِغْتُهُ مباشرة ومنذ ساعتين تحديداً من فم الشخص الوحيد المكلف بمعرفته.

ـ في مطلق الأحوال، لن تموت عبثاً، قال هوميرو. ستحظى بما تستحقه من تقدير، وستبقى مثالاً أعلى للجدارة. تكلَّف الرئيس دهشة زائفة.

«شكراً للمبادرة».

كان يأكل بالطريقة عينها التي كان ينجز بها أموره كافة؛ بتمهّل وبدقة مفرطة، وكان يحدق مباشرة في عيني هوميرو حتى انطبع في ذهن هذا الأخير أنه يعريّ أفكاره.

بعد أن تبادلا حديثاً طويلاً أثارا خلاله شجون الماضي وشؤونه عاد الرئيس يرسم ابتسامة ماكرة.

«عقدت العزم على ألاّ اقلق بصدد جثتي، قال. وأن كنت أرى جيداً أن عليّ اتخاذ بعض الإحتياطات الخليقة برواية بوليسية، بغية

إلاّ يتمكن احد من العثور عليها.

ـ سيذهب عناؤك هباءً، تظارف هوميرو بدوره. ليس ثمة سرٌ يدوم في المستشفى أكثر من ساعة».

حين انتهى من احتساء قهوته، قرأ الرئيس كعب فنجانه. ومن جديد سرت القشعريرة في متنه: نذير التفل هو هو. غير أنه احتفظ بملامح وجهه جامدة.

سدَّد الحساب نقداً بعد أن دقّق في مجموعه أكثر من مرة. مكرراً عدَّ الأوراق النقدية بحرص مفرط، ثم ترك بقشيشاً زهيداً أكسبه نقمة النادل.

«سرَّني التعرف إليك. قال مختتماً اللقاء ومستأذناً هوميرو. لم يُعيَّن بعد تاريخ إجراء العملية، أضف إلى ذلك أنني لم أقرر حتى الآن إن كنت سأوافق على إجرائها أم لا، لكن إن سارت الأمور كما ينبغي فسنلتقي مجدداً.

ـ ولِمَ لا قبل ذلك؟ تساءل هوميرو. لازارا زوجتي تعمل طاهية لدى الأثرياء، وهي ماهرة في تحضير الأرز بالجمبري، ستسرُّنا دعوتك للغداء مساء أحد هذه الأيام.

ـ ثمار البحر محظَّرة عليّ. إلاّ أنني سأتناولها بمنتهى السرور، قال. أي مساء تُحدِّد؟

ـ لا أعمل نهار الخميس. أوضح هوميرو.

ـ حسناً، قال الرئيس. سأوافيكم في تمام السابعة وإنه لمن

دواعي سروري سلفاً.

ـ سآتي لإصطحابك، قال هوميرو. فندق السيدات 14 ـ شارع المصنــــع ـ خلـــف المحطــــة Hôtellerie Dames, 14, Rue de L'industrie أليس هذا عنوانك؟

ـ إنه هو بالذات، قال الرئيس. ثم نهض ممالقاً كما لم يكن من قبل. إنْ كنت على حق فأنت تعرف حتى قياس حذائي.

ـ بالطبع، سيدي. أجاب هوميرو بنبرة مرحة، إنه واحد وأربعون».

ما لم يقله هوميرو راي للرئيس، بل رواه طيلة أعوام عديدة أمام من كان يبدي إهتماماً بالإستماع إليه، هو أنه لم يكن في بداية الأمر طيب القصد. كان مثلهُ مثل سائقي سيارات الإسعاف جميعاً متواطئاً مع مؤسسات تتولى شؤون الجنائز، وشركات للتأمين ترشوه مقابل ما يقدمه من خدمات في المستشفى عينه الذي يعمل فيه، وكان يؤثر إختيار المرضى الأجانب أصحاب الموارد الضئيلة. وعلى هزالتها كان عليه أن يتقاسم ما يكسبه من مغانم مع موظفين آخرين كانوا يسرِّبون خفية الملفات الطبيّة السرية العائدة للمرضى المصابين بأمراض خطيرة. على أنها اعتُبرت بمثابة جائزة ترضية بالنسبة لمنفي مجهول المصير يقاوم بمشقة للإستمرار مع زوجته وولديه براتبه التافه.

كانت زوجته لازارا ديفيس Lazara Davis أكثر واقعية منه، وهي خلاسية ظريفة من سان جوان في بورتوريكو (San Juan) رقيقة العود على صلابتها. لبشرتها لون الكاراميللا الطازجة، لها عينا كلبة

باسلة تنسجمان تماماً مع تكوينها. كانا قد تعارفا في قسم الخدمات الإجتماعية في المستشفى حيث تولت شؤون الخدمة بعد أن أتى بها متموّل من بلادها للعمل كمربّية، ثم تخلىّ عنها في جنيف. تزوج هوميرو ولازارا وفق الأصول الكاثوليكية علماً بأنها كانت من أميرات قبيلة اليوروبا Yoruba وقطنا منزلاً من ثلاث غرف في الطبقة الثامنة من بناء من دون مصعد يسكنه مهجّرون أفارقة. ورزقا إبنةً في التاسعة تدعى برابارا وصبياً في السابعة أسموه لازارو يعاني عوارض عُتْهٍ خفيفة. وكانت لازارا ديفيس ذكية، حادة الطباع لكنها زوجة صالحة كالخبز الجيد، تحسب نفسها مثالاً كاملاً لقوة الشكيمة، وتؤمن إيماناً راسخاً بتنبؤاتها، غير أنها لم توفّق إلى تحقيق حلمها بالعمل منجّمة للأثرياء. في المقابل كانت تحتال لتغطية مصاريف نهاية الشهر بكسب مبالغ تافهة بين الحين والآخر من عملها كطاهية لدى سيدات ثريات كن يتباهين أمام ضيوفهّن بأنهن من يحضر شخصياً الأطباق الانتيليّة Antilles الشهية. وكان لهوميرو طبع حييّ وجل، ولتاعسه كان يكتفي بإنجاز ادنى ما يمكنه القيام به، على أن لازارا ما كانت لتستسيغ الحياة من دونه لنقاوة سريرته ولعيار صاروخه. وكانا يتحايلان على شظف عيشهما، لكن المستقبل كان ينذرهما عاماً اثر عام بأيام بؤس عصيبة فيما كان ولداهما يشبّان. في الآونة التي صادف فيها الرئيس كانا باشرا في قضم مبالغ من مال إدخراه على إمتداد خمسة أعوام بحيث أن هوميرو راي تعلل بالأوهام يوم تعرّف إلى الرئيس بين مرضى المستشفى المتخفّين.

ما كانا يدركان بالتحديد ما الذي يودان التماسه منه، ولا بأي وجه حق. في بداية الأمر أملا بتولي شؤون مأتمه كاملة على أن يضمنا تحنيطه وترحيله إلى موطنه، لكنهما سرعان ما أدركا أن موته على ما تبيّن لهما ليس وشيكاً كما سبق أن توهما. فأمضيا يوم الدعوة النهار بطوله فريسة للحيرة.

في الحقيقة، لم يكن هوميرو قط قائداً للألوية الجامعية أو لأي شيء من هذا القبيل، ولم يشارك في الحملة إلا مرة واحدة يوم التقطت الصورة الفوتوغرافية التي حالفه الحظ بالعثور عليها بصدفة عجيبة بين ركام خزانة الحائط، على أن حماسه كان صادقاً كصدق المبرّر الذي أضطره للفرار من البلاد لمشاركته في المقاومة الشعبية ضد الإنقلاب العسكري، حتى وإن كانت بلادته هي السبب الوحيد لإستمرارهما في العيش طيلة السنوات المنصرمة في جنيف، بحيث أن إختلاق أكذوبة إضافية ما كان من شأنه أن يُشكّل حائلاً دون محاباة الرئيس.

مفاجأتهما الأولى تجلت حين اكتشفا أن المنفي الشهير يعيش في فندق من الدرجة الثالثة كائن في حي الكهف (La Grotte) الحقير بين نازحين أسيويين ووسط قناديل الغاز. وأنه يقصد وحيداً مطاعم صغيرة للحثالة فيما تعج جنيف بمساكن فاخرة جديرة برجالات سياسية فقدوا خطورتهم.

كان هوميرو يراقبه يمارس روتينه المألوف يوماً تلو الآخر، ويتعقبه في بعض الأحيان على مسافة قريبة جداً يقوم بجولاته الليلية

بمحاذاة الأسوار الكئيبة للمدينة القديمة المسيجة بعساقب نباتات الجريسة الصفراء، ولطالما رآه مسترسلاً في التفكير لساعات طويلة تحت قدمي نصب كالڤن Calvin التذكاري، وخلفه ارتقى السلم الحجري خطوة خطوة حتى حين كان الرئيس يتمهل وقد أثمله عبق الياسمين ليتأمل من أعلى الـ البورغ لوفور Bourg - le - four شفق الصيف البعيد، ولمحه ذات مساء من غير معطف أو مظلة يسوطه المطر يهطل لأول مرة، يقف في الطابور بين الطلاب لسماع معزوفة لروبنشتاين «لا أدري كيف نجا من الإصابة بالتهاب رئوي». قال لاحقاً لزوجته، ورآه السبت التالي وكان الجوُّ أخذ يتعكر، يبتاع معطفاً خريفياً بياقه من فرو الفيزون الاصطناعي، من سوق البراغيث، عوضاً عن المخازن المتألقة في شارع الرون حيث يتوجه الأمراء العابرون لشراء حاجياتهم.

«إذاً ليس ثمة ما نأمل به! صاحت لازارا محتدمة. بعد أن أصغت لرواية هوميرو، ليس سوى مجرد بخيل خليق بأن يُدفن على نفقة مركز المساعدات الإجتماعية في حفرة جماعية، سوف لن نحصِّل شيئاً منه إطلاقاً.

ـ ربما كان معوزاً حقاً. قال هوميرو، مضى عليه وقت طويل من غير عمل.

ـ إسمع يا عزيزي، ثمة فارق كبير بين أن نكون مغفّلين أو سمكاً يفترس بعضه. فالجميع يعلم أنه فرّ بذهب الحكومة، وأنه المنفيّ الأكثر ثراء في المارتنيك».

كان هوميرو الذي يصغره بعشرة أعوام قد شبّ وفي ذهنه يرسخ انطباع مؤثّر حول رئيس اشتغل عامل بناء ليتمّ دراسته في جنيف. في المقابل نشأت لازارا وسط فضائح صحافة معارضة يفيض بها منزل معارض حيث كانت تعمل منذ طفولتها حاضنة للأطفال. بحيث أنها حين عاد هوميرو إلى المنزل مساء وقد ملأته الغبطة لمشاركته الرئيس غداءه، استخفت بأمر دعوته إلى مطعم رفيع المستوى، ولامته لعدم مطالبته بأي من الأمور التي أملا بها كتدبير منح دراسية للأولاد، أو السعي للحصول على شروط أفضل للعمل في المستشفى، وقد اتضح لها من خلال ما حدث ما يؤكّد شكوكها حول قرار الرئيس بجعل جثته طعاماً للعقبان عوضاً عن إنفاق فرنكاته السويسرية ليدفن بكرامته، وليُرحَّل نعشه إلى الوطن محاطاً بالمجد. غير أن إعلان هوميرو عن دعوته الرئيس يوم الخميس القادم لتناول الأرز بالجمبري كان بمثابة قطرة الماء التي نضح بها الإناء. ولا ينقصنا سوى هذا، صاحت لازارا، أن يميت بين أيدينا مسموماً بالجمبري الفاسد. وان نضطر لدفنه من مدخرات طفلينا».

في نهاية المطاف، انقادت لازارا طوعاً لقانون زواجها الشرعي، فكان عليها، فكان عليها أن تلتمس من جارة لها ثلاث سكاكين ومعالق وشوك فضية وسلطانية من الكريستال، ومن أخرى ابريق للقهوة كهربائي ثم من جارة ثالثة سماط مزركش وطاقم القهوة الصيني.

نزعت الستائر القديمة واستبدلتها بستائر جديدة، كانت تعلّقها

أيام الأعياد، وخلّصت الأثاث من أغطيته وأمضت نهاراً بكامله في صقل أرضية المنزل وإزالة الغبار وإعادة توزيع الأثاث، إلى أن ظفرت بما يتناقض تماماً مع ما فيه صلاحهما بمعنى استدرار شفقة ضيفهما من خلال الديكور البائس لرقة حالهما.

مساء الخميس، بعد أن استردّ أنفاسه اللاهثة من أثر الطوابق الثمانية مَثُلَ الرئيس أمام الباب بمعطفه الجديد وقبعته المستديرة المنتفخة كما في الأيام الخوالي، وبيده زهرة قدّمها للازارا. أسرها منه بهاء رجولته ولباقة سلوكه، لكنها رأت فيه ما كانت تتوقع أن تراه: ماكرٌ وبخيل دنيء، وحكمت بوقاحته، ذلك أنها كانت قد شرّعت النوافذ على مصراعيها أثناء الطهي لتحول دون اختناق المنزل ببخار الأرز بالجمبري. لكنه وكان قد دخل لتوه، تنفس بعمق كما لو كان مستسلماً لنشوة مباغتة، ثم صاح مغمض العينين وقد عقد ذراعيه: «آه لرائحة البحر عندنا نكهة طيبة!». وأكدت أنه مسرفٌ في شحّه لأنه لم يأتِ لها سوى بزهرة. سرقها من غير شك من الحديقة العامة. وجدته سفيهاً بفعل الإزدراء الذي كانت توحي لها به مقتطفاتٌ الصحف حول أمجاده الرئاسية وبسبب الشعارات والرايات الصغيرة للحملة الانتخابية وكان هوميرو قد علّقها بغاية البرادة فوق جدران قاعة الطعام. واعتبرته غليظ القلب لأنه لم يلق ولو تحية المساء على بربارا ولازارو اللذين كانا قد اعدّا له هدية من صنع يديهما، ولأنه نوّه أثناء الغداء بأمرين لا طاقة له على احتمالهما: الكلاب والأطفال، أحست نحوه بالكره، غير أن حسن الضيافة

الكاريبي تغلب لديها على الشعور بالعداء. كانت قد تحلّت بردائها الأفريقي الفضفاض الخاص بأمسيات العيد. وتزيّنت بقلاداتها وأساورها المقدسة، ولبثت صامتة لا تنبس بكلمة ولا تصدر عنها نأمة طيلة فترة الغداء، ولم تأتِ بما قد تؤاخذ عليه بل تجلّت خالية من أي عيب.

في الواقع لم يكن طبق الأرز بالجمبري في عداد أشهى ما تطهيه من طعام، لكنها أعدّته بأفضل ما تيسّر لها من الإتقان ونجحت في ذلك. وقد ملأ الرئيس الطبق منه مرتين دون أن يداري استحسانه أو يكفّ عن إطرائه شرائح الموز المقلي وسلطة الآفوكا، وإن لم يشاطرهما في المقابل حنينهما إلى الوطن.

اكتفت لازارا بالإصغاء من اللحظة التي تورط فيها هوميرو عن غير توقّع أثناء تناول الحلوى. في جدل حول وجود القدرة السماوية.

«بالنسبة لي. نعم أؤمن بوجودها، قال الرئيس، لكن المقاصد الكبرى وحدها تُشغل الإنسان.

ـ إيه، حسناً أنا أؤمن بالنجوم أعلنت لازارا وترصّدت ردة فعل الرئيس. في أي يوم وِلدْتَ؟

ـ في 11 مارس.

ـ كنت على يقين من ذلك، قالت لازارا وقد عرتها هزة انتصار ثم تساءلت بنبرة تفكُّه: حوتان حول مائدة واحدة أليس هذا بكثير؟

تابع الرجلان حديثهما، فيما انسحبت إلى المطبخ لإعداد القهوة بعد أن نظفت المائدة من بقايا الطعام. ورغبت من أعماقها أن تنتهي الأمسية بسلام. حين عادت بالقهوة بهتت وفغرت فمها اندهالاً لسماعها الرئيس يكرّر عبارته:

«لا تشكّ بذلك يا صديقي العزيز، سبب ما حلّ ببلدنا المسكين من شرور، أني توليت رئاسته». من فرجة الباب لمح هوميرو لازارا مرتبكة تحمل الأكواب الصينية وإبريق القهوة فخيّل إليه أنها ستتلاشى فاقدة الوعي، ولاحظها الرئيس بدوره. «لا تحدقي بي هكذا يا سيدتي. قال بنبرة ودودة. فأنا صادق القول كما لم أكنه أبداً». ثم تحول نحو هوميرو مردفاً «ما زلت محظوظاً لأني أدفع غالياً ثمن اغتراري». قدّمت لازارا القهوة، وأطفأت المصباح المتدلي وسط الطاولة. ذلك أن نوره الساطع كان يقلق جو النقاش، فساد القاعة نور خافت حميم. ولأول مرة أبدت اهتماماً بضيفها لا يحملها إلى ذلك سحر ما يكتنفه من كآبة. وازداد اهتمامها حدة حين رأته وقد فرغ من قهوته يقلب الفنجان فوق الصحن كي يترسّب فيه التفل.

عقب الغداء، روى لهما الرئيس أن سبب اختياره لجزر المارتنيك منفى له، يعود إلى ما يربطه من صداقة بالشاعر سيزير ايميه Césaire Aimé الذي كان في تلك الآونة يعمل على إصدار ديوانه «كرّاس العودة إلى الوطن الأم»، والذي أتاح له استهلال حياة جديدة. وبفضل ما تبقى من تركة ورثتها زوجته، إتباعاً فوق تلال

القور ـ دو ـ فرانس Fort - de - France منزلاً خشبياً عريقاً بنوافذ مشبكة، يشرف على البحر، وتفيض شرفته بورود بدائية حيث كان يحلو له النوم مهدهداً بلَجَبِ جداجد الليل وبنسمات ضمّختها الطواحين بروائح تفل السكر ويعبق عرقه. أقام فيه مع زوجته التي كانت تكبره بأربعين عاماً والتي ما أبلت قط من أمراضها الفريدة، محتمياً من مصيره خلف ستار قراءة ثانية مشوشة للنماذج اللاتينية باللغة اللاتينية، موقناً أنه يمثّل بذلك آخر فصل من فصول حياته. وكان عليه لسنوات عديدة أن يعمل حيال محاولات اعتباطية تمت بجميع الطرق، وكان أنصاره المخلوعون دعاتها ومدبّريها: «لم أفضّ قط رسالة واحدة، قال. وأكثر من أي وقت مضى منذ اللحظة التي أدركت فيها أن أشدّها إلحاحاً يغدو في غضون أسبوع واحد أشدها إرجاءً وان كاتبها يغفل عنها تماماً بعد شهرين على أبعد تقدير».

في الضوء الخافت، راقب لازارا تشعل سيجارة فانتزعها بحركة لاهفة من أصابعه، ومجَّ منها نفساً عميقاً حابساً دخانها في حنجرته. مصعوقةً أمسكت لازارا بعلبة السجائر وبأعواد الثقاب لتُشعل أخرى لكنه أعاد لها سيجارتها:

«انكِ تدخنين بلذّة لم يسعني حيالها مقاومة التجربة» عقّب قائلاً وقد استبدت به نوبة من السعال، ذلك أنه ما كانت له طاقة على احتمال الدخان. «تخلّيت عن هذه الآفة منذ سنوات بعيدة، إلاّ أنها لم تتخلّ عني كلياً، أردف. فهي بين حين وآخر تعود لتتملكني كما حدث الآن».

هزّته نوبتان آخريان من السعال، وعاوده الألم مجدّداً، فعاين الرئيس ساعة الجيب الصغيرة، وابتلع قرصين من مهدّىء المساء. ثم تفحّص كعب فنجانه: لم يكن ثمة جديد، غير أن القشعريرة لم تنتابه هذه المرة.

«بعض أنصاري القدامى ورثوا الرئاسة بعدي، قال:

ـ ساياغو Sayago ، أكمل هوميرو.

ـ ساساغو وبعض آخر. جميعهم فعلوا ما فعلت. اغتصبنا مجداً ما كنا جديرين به حين مارسنا فنّاً لا نحسن اتقانه. البعض لم يكن يطمع إلاّ بالسلطة والغالبية الباقية كانت تلتمس ما دون ذلك: وظيفة.

أخذ الغضب بلازارا.

ـ هل تعلم ما يُقال عنك؟ سألته.

فتدخّل هوميرو مذعوراً.

«إنها مجرّد أكاذيب».

ـ سواء كانت أكاذيب أم لا، قال الرئيس بهدوء ملائكي، حين يتعلّق الأمر برئيس أقبح الفضائح قد تكون الاثنين معاً أكاذيب وحقائق».

كان قد عاش طوال مدة الإبعاد في المارتنيك من غير أي اتصال بالخارج، ما خلا بعض ما كان يطالعه في الصحف من أخبار، نادراً ما يقع على مثلها في الصحيفة المؤيدة للحكومة، وكان يعتاش بفضل ما يعود إليه لقاء ما يلقيه من دروس في اللغتين

الاسبانية واللاتينية في ثانوية حكومية، إضافة إلى ترجمات كان يوفّرها له من حين لآخر صديقه سيزير ايميه Cesaire Aimé .

في شهر أغسطس حين يبلغ القيظ درجة يتعذر احتمالها، كان يلازم أرجوحة نومه حتى الظهر يطالع على هدير شفرات مروحة التهوية في غرفة نومه، فيما تنصرف زوجته حتى في أشد الأوقات قيظاً للإهتمام بطيور دجّنتها مطلقة السراح خارج الأقفاص، تتقي الشمس بقبعة صيفية من القش عريضة الحافة، مزيّنة بالفراولة الإصطناعية، وبورود من الأورغندي. غير أنه كان يخرج متى خفت حدة الحرّ ليتبرّد على الشرفة. وبينما يطيل التحديق بالبحر إلى أن يسبر أغوار الديجور، كانت زوجته تسترخي في كرسيها الهزاز المصنوع من أسل الهند بقبّعتها الصيفيّة المثقوبة وبخواتمها الفنتازية في كل أصبع، تتأمل عبور سفن الدنيا، وكانت تردد: «هذه تتجّه نحو بورتو سانتو Porto Santo أو «تلك لن يسعها التقدم إلاّ بمشقة وهي تنوء بمثل هذه الحمولة الثقيلة من موز بورتو سانتو». ذلك أنه ما كان بمقدورها تخيّل سفينة تعبر، إن لم تكن تتجه من أو إلى بلدها. وكان يصطنع الصمم ولو أنها في النهاية آلت إلى النسيان أكثر منه بسبب فقدانها الذاكرة. كذلك كانا يطيلان المكوث على الشرفة إلى أن يخمد الغسق الصاخب فيضطرا وقد هاجمهما البعوض للبحث عن ملاذ داخل المنزل.

خلال أحد شهور أغسطس هذه وكان على الشرفة ذات مساء، وثب الرئيس من مكانه مبهوتاً، «تباً، صاح قائلاً، لقد توفيت في

استوريل Estoril » أفزع النبأ زوجته وكانت تعوم وسط حلمين ستة أسطر في الصفحة الخامسة من الصحيفة التي كانت تُطبع في الطابق السفلي حيث كان يقطن، والتي كانت تنشر أحياناً بعضاً من ترجماته، ويتردّد عليه مديرها من وقت لآخر. تعلن عن نبأ وفاته في استوريل وهي محطة حمّامات بالقرب من لشبونة، وموطىء للإنحطاط الأوروبي حيث لم يسبق له أن ذهب قط. والمكان الوحيد في العالم حيث لا يرغب بالموت عقب ذلك بعام واحد تلاشت زوجته نهائياً ممزّقة الفؤاد بذكرى ولدهما الوحيد الذي شارك في قلب نظام أبيه، وأُعدم بالرصاص لاحقاً على أيدي رفاقه. زفر الرئيس: «على هذا النحو خُلقنا، وليس ثمة ما يكفل تغيّرنا. قارةٌ وُلدتْ من تغوطات العالم، ليس فيها أي ظلّ من ظلال الحبّ، وأبناءٌ يحكم الأعداء ضمن جوقة من الإحتكارات والإنتهاكات والمفاوضات الشائنة والأكاذيب».

واجهته نظرة المرأة الأفريقية تحدجه بها لازارا وهي تتفحصه دون إشفاق، فحاول تهدأتها بذلاقة الأستاذ العتيق: «لفظ تهجين، يعني الدموع ممزوجة بالدم المُراق، ما الذي يسعنا توقّعه من شراب كهذا؟».

خذلته لازارا بصمتها القاتل، لكنها عادت فتمالكت نفسها قبل منتصف الليل بقليل، وتمنّت له نوماً هانئاً وهي تعانقه بازدراء. وقد رفض الرئيس أن يرافقه هوميرو إلى الفندق لكنه لم يستطع إقناعه بالعدول عن مساعدته لاستدعاء سيارة أجرة.

حين عاد هوميرو إلى المنزل ألفى زوجته هائجة وقد شنّجها الغيظ.

«ما من رئيس يستحق الخلع أكثر منه، ثالث. فهو ابن عاهرة بجدارة.

وعلى الرغم مما بذله هوميرو من جهد عقيم لتهدئتها أمضيا ليلة مريعة من غير رقاد. كانت لازارا تدرك جيداً انه أحد أوسم من صادفت من الرجال، وأن له إلى جانب ما يملكه من قدرة مدمّرة على الإغواء ذكورة فحول الخيل «شيخ وتعبٌ كما هي حاله الآن. لا بدّ أنه ما يزال يسلك في السرير سلوك النمور» قالت. في المقابل كانت تعتقد أنه بدّد هذه الغيم السماوية بافتعال الأعذار الكاذبة. ولم يكن بوسعها احتمال حذلقاته حين ادّعى أنه أشنع رئيس عرفته بلاده، ذلك أنها كانت على يقين من امتلاكه لبعض مصانع السكر في المارتنيك ولا ازدرائه الأحمق للسلطة، لأنه بحكم المؤكد ما كان ليتورع عن بذل كل ما يملك مقابل استرداده السلطة ولو لدقيقة واحدة ليقهر بذلك أعداءه.

«كل ذلك، خلصت قائلة. ليضمن إنقيادنا له دون اعتراض».

ـ لكن، ما الذي سيجنيه من ذلك؟ تساءل هوميرو.

ـ لا شيء، لكن الدلال نزعة لا تورث السكينة قطعاً. كان حنقها قد بلغ حداً أقلق راحة هوميرو، فلم يحتمل البقاء إلى جانبها

في السرير، وانتقل ليمضي ما تبقى من الليل مدثراً بغطاء على أريكة قاعة الطعام. مع الفجر نهضت لازارا عارية تماماً من قمة رأسها حتى أخمص قدميها مثلما اعتادت النوم والعيش في منزلها. ومضت تحدّث نفسها كما لو أنها تقيم مونولوجاً متقطّعاً. ثم في لحظة معيّنة محت من ذاكرة الإنسانية كل أثر لدعوة الغداء المقيت. وفي الصباح أعادت ما كانت قد اقترضته من الجارات، أبدلت الستائر الجديدة بالقديمة، وردت قطع الأثاث إلى مكانها المعهود. فعاد المنزل ثانية إلى طبيعته مسكيناً ومحتشماً كما هو حاله على الدوام من الصباح حتى المساء. ثم جرّدت الحائط من مقتطفات الصحف، والصور، ومن شعارات ورايات الحملة البغيضة، ورمت بها في القمامة وهي تُطلق صيحة حنق أخيرة.

«بئس العاهر!»

على اثر الدعوة بأسبوع، صادف هوميرو الرئيس يرقب انصرافه من المستشفى ليلتمس منه مرافقته إلى الفندق. صعدا معاً ثلاث طبقات عبر سلالم هاويةٍ إلى أن ولجا غرفة منحنية السقف تكشف كوّةٌ نافذتها عن سماء رمادية. مُدّ داخلها من الحائط للحائط حبلٌ نشر فوقه الغسيل ليجفّ. واحتلّ نصف مساحتها سرير مزدوج بالإضافة إلى كرسي عادي وطشت ومرحاض نقّال وخزانة بلوريّة هزيلة فقد بلورها طلاءه القصديري. لاحظ الرئيس دهشة هوميرو: «هي الزنزانة التي آوتني أيام دراستي، قال كأنه يعتذر، حجزتها منذ كنت في الـ Fort - de - France . الفور دو فرانس.

تناول صرّة مخملية ثم بسط فوق الطاولة ما كان قد بقي له من رصيد: عدة دمالج ذهبية مرصعة بأنواع من الجواهر، وقلادة من اللؤلؤ بثلاث لفّات وقلادتان من الذهب والحجارة الكريمة، وثلاث سلاسل ذهبية صغيرة عُلّقت فيها أيقونات مقدسة، وزوج أقراط ذهبي مرصّع بالزمرد وآخر بالألماس وثالث بالياقوت وصندوقان للذخائر، وحُلية بيضوية وأحد عشر خاتماً صيغت بأشكال مختلفة على نحو خلاّب. وتاج من الالماس المضلّع جدير بملكة. ثم أفرغ من علبة صغيرة ثلاثة أزواج من أزرار الأكمام، واحد ذهبي وآخران من الفضّة، بالإضافة إلى مشابك لرابطات عنق تتناسب معها. وساعة للجيب متقنة الصنع من الذهب الأبيض. ومن علبة الأحذية أخرج أوسمته الستة: وسامين ذهبيين وآخر فضياً والثلاث الباقية زهيدة القيمة.

«هاك كل ما تبقى لديّ في الحياة». قال: لم يكن ثمةّ مناص من بيعها جميعاً لتغطية نفقات الطبابة، وكان يتوخّى أن يسوي له هوميرو هذه الخدمة بتكتّم بالغ. غير أن هوميرو صارحه بعجزه عن إرضائه ما لم يكن بحوزته بيانات سليمة بها، ووفق الأصول. فأوضح له الرئيس أن زوجته كانت قد ورثتها عن جدة لها عاصرت عهود الاستعمار وحصلت من طريق الوراثة على حصة كبيرة من مناجم الذهب الكولومبية، وبأن الساعة والأزرار والمشابك وربطات العنق تخصّه هو، أما الأوسمة فهي بالطبع تعود إليه وليست مِنّة من أحد.

«من تراه يملك بياناً بمثل هذه الأشياء، قال: فأبدى هوميرو إصراراً.

ـ في هذه الحالة، لم يبقَ لي سوى أن أتولّى ذلك بنفسي». ثم جمع المجوهرات بهدوء متعمّد.

«أرجو أن تغفر لي يا عزيزي هوميرو. ليس ثمة أفظع من فاقة رئيس محتاج، قال. رئيس غير جدير حتى بالبقاء حياً».

حينئذٍ وقد غلبت عليه العاطفة انخرط هوميرو بالبكاء.

ذاك المساء عادت لازارا في ساعة متأخرة، ولمحت من باب المدخل الجواهر المتألقة في النور الزئبقي لقاعة الطعام. ففزعت كما لو لمحت عقرباً في سريرها:

«انك لمجنون بالكامل، صاحت مرتاعة، ما الذي أتى بهذه الأشياء إلى هنا؟»

وتفاقم خوفها حين أوضح لها هوميرو السبب. فجلست تفحص الجواهر الواحدة تلو الأخرى، وتدقق فيها بخبرة الصائغ. «لا بدّ أنها تساوي ثروة». قالت أخيراً ثم حدّقت بهوميرو لبرهة طويلة عاجزة عن الإفصاح عن مدى حنقها «بئس العاهر، قالت في النهاية. كيف لنا أن نثق بصدق الرجل؟

ـ ولِمَ لا يكونه؟ أردف هوميرو. رأيته للتو يغسل ثيابه بنفسه وينشرها فوق حبل ممدود في غرفته، مثلنا تماماً.

«بدافع البخل. قالت لازارا.

ـ أو بدافع الحاجة قال هوميرو».

مجدّداً عادت لازارا تتفحص المجوهرات إنما باهتمام أدنى من ذي قبل، ذلك أنها شعرت هي الأخرى أنها فقدت حجّتها.

وهكذا اختارت صبيحة اليوم التالي أفضل أثوابها، وتزيّنت بأثمن ما تراءى لها من الحلى وعقدت في كل أصبع ما وسعها من الخواتم، ثم خرجت لبيعها. «سنرى جيداً من سيجرؤ على مطالبة لازارا ديفيس بالبيانات». قالت لحظة انصرافها وهي تتبختر كالطاووس مقهقهة.

انتقت متجراً كبيراً للحلى فاقت تسهيلاته جودته حيث يتمّ البيع والشراء، على ما بلغها، من دون بحث في سؤال أو جواب. ثم دخلت بخطى ثابتة إنما فريسة للرهبة.

حياها بائع هزيل شاحب يرتدي لباساً رسمياً أسود بتكريم متكلّف عارضاً خدماته. في الداخل كان النور ساطعاً كما في وضح النهار بفعل كثافة الأضواء والمرايا فبدا المتجر متألقاً تماماً كالألماسة. تبعت لازارا الموظف إلى الداخل وهي ترمقه بحذرٍ خشية ألاّ تنطلي عليه حيلتها. فدعاها للجلوس وراء واحد من مكاتب ثلاثة من طراز لويس الخامس عشر كانت تستخدم مكاتب شخصية. وبسَطَ فوقه منديلاً نظيفاً ثم جلس قبالتها مترقّباً.

«بِمَ يسعني إفادتك؟»

فنزعت الخواتم والقلادات والأساور والأقراط وكل ما كانت

تضعه عليها، وصفّتها واحداً تلو الآخر فوق المكتب كما فوق رقعة شطرنج، معربة عن رغبتها بمعرفة قيمتها الفعلية.

ضبط الصائغ عدسيّة مكبّرة فوق عينه اليسرى، وشرع بتفحّص الحلى بصمت مميت، ثم سألها بعد برهة طويلة متابعاً جردته.

«من أين تأتين؟»

ولم تكن لازارا تتوقع السؤال.

ـ آه، سيدي، تنهدت قائلة. من مكان بعيد.

ـ ظننت ذلك، قال:

وعاد إلى صمته، في حين كانت لازارا تتملاّه دون رأفة بعينيها الذهبيتين الفزعتين.

خصّ البائع التاج الماسي باهتمام استثنائي ووضعه على حدة منفصلاً عن بقية المجوهرات فزفرت لازارا

«انك من برج العذراء».

تابع الصائغ معاينته قائلاً:

ـ كيف أدركت ذلك؟

ـ من سلوكك، قالت لازارا.

لم يعقّب إلاّ بعد أن انتهى من تدقيقه فوجّه لها الحديث بالإقتضاب السابق عينه.

«من أين أتيت بها؟

ـ هي إرث من جدتي، قالت لازارا بصوت ممطوط. توفيت

العام الفائت في باراماريبو Paramaribo عن عمر يناهز السابعة والتسعين. عندئذٍ حدق فيها الصائغ مباشرة.

«اني شديد الأسف، قال. ليس لهذه الجواهر أي قيمة سوى ما لوزنها ذهباً. وأمسك بالتاج بأطراف أصابعه ثم عرّضه للنور فتوهّج.

«ما خلا هذا، أضاف. انه قديم الطراز، وربما كان مصرياً. وقد يغدو تافهاً لو أن الماسات كانت في حال أفضل مما هي عليه. في مطلق الأحوال. لا مجال للشك بقيمته التاريخية».

بالمقابل كانت بقية الجواهر دون استثناء من أحجار الزمرد والياقوت والمعشوق وعين النمر مزيّفة. «لا ريب بأن الجواهر الأساسية لهذه الحلى لم تكن في الأصل مزيّفة» قال الصائغ فيما يجمع الحلى ليعيدها إليها. «غير أنها فُقِدت بين جيل وآخر واستبدِلت بأخرى زجاجيّة».

تنفست لازارا بعمق وقد تحول لونها مخضرّاً كما لو أصيبت بالغثيان، وكبحت هلعها فخفّف عنها البائع قائلاً:

«غالباً ما يحدث هذا سيدتي».

ـ أعلم، قالت لازارا وقد عاد إليها بعض هدوئها، لذا أودّ التخلص منها. شعرت حينها أنها تجاوزت موضع الريبة وعادت هي نفسها. ومن دون مواربة أخرجت من حقيبتها أزرار الأكمام والأوسمة الذهبية والفضية وبقية الطِرَفِ الشخصية للرئيس ثم بسطتها جميعاً فوق المكتب.

«تودين التخلص من هذه أيضاً» سألها الصائغ:
ـ منها جميعاً. . أجابت لازارا.

كانت أوراق الفرنكات السويسرية التي سلمها إياها البائع جديدة تماماً بحيث خشيت أن يلوث الحبر الطازج يديها، تناولتها من دون أن تحسب عددها. وواكبها الصائغ مودعاً بالإحتفاء المصطنع عينه. وفيما يمسك بالباب الزجاجي ليفسح لها مجالاً للمرور استوقفها لبرهة أمام العتبة وهي تتأهب لاجتيازها.

«أمرٌ أخير سيدتي، إني من برج الدلو».

مع بداية المساء، حمل هوميرو ولازارا المال إلى الفندق حيث أعيد تقدير الحسابات تكراراً. كانت أدنى بقليل مما يتوجب، بحيث نزع الرئيس خاتم زواجه ورمى به على السرير، كذلك ساعة الجيب والسلسلة وأزرار الأكمام والمشبك وربطة العنق التي كان يضعها.

فأعادت له لازارا خاتم زواجه.

«ليس هذا، قالت له. مثل هذا التذكار لا يُطرح للبيع».

أفحمت حجتها الرئيس فدسّ الخاتم مجدداً في أصبعه وأعادت لازارا الساعة أيضاً «وهذه أيضاً» قالت فاحتج الزعيم لكنها زجرته.

«في سويسرا، ليس ثمة من تراوده فكرة بيع ساعة».

ـ لطالما فعلناها سابقاً، أجاب.

ـ نعم، ليس لقيمتها بل لقيمة الذهب.

ـ هي أيضاً من الذهب، قال الرئيس.

ـ فعلاً، أجابت لازارا، ربما يسعك العيش من دون إجراء العملية. إنما لن يسعك ذلك على الإطلاق من دون ساعة تعين لك الوقت».

إضافة إلى ذلك، عارضت بيع إطار نظارته الذهبي على الرغم من أنه كان يملك زوجاً آخر من الصدف. رازت بيدها الحلى التي كانت تمسك بها ثم قالت لتضع حداً نهائياً للحيرة. «بذا، يغدو المبلغ كاملاً».

قبل انصرافها جمعت الغسيل المُبتل، وحملته معها لتجفّفه وتكويه، من غير أن تستأذنه.

عادا على الدراجة النارية، يقودها هوميرو، فيما جلست لازارا فوق حاملة الأمتعة وقد عقدت ذراعيها حول خصر زوجها. وفي الغسق الخبّازي كانت المصابيح قد أُشعلت. وكانت الريح قد نزعت آخر ما تبقى من الأوراق، فيما تراءت الأشجار اشبه بطائر فقد ريشه. في مياه الرون كانت سفينة قاطرة تتأهب للإقلاع. ومن محطة الإذاعة صدح صوت الراديو صاخباً، مخلّفاً في الشوارع أخدوداً موسيقياً، كان جورج براسيز Georges Brasseus يغني حبيبي أمسك جيداً بالدفّة. فمن هناك سيعبر الزمن، والزمن همجي في عرف آتيللا، فمن حيث يعبر جواده لا ينبت الحب ثانية.[1]

كان هوميرو ولازارا يسيران بالدراجة غارقين في الصمت

---

(1) كتبت باللغة الفرنسية في النص الأسباني.

ومنتشيين بلحن الأغنية وبعبق لا يُنسى لزنابق الياقوتيه. ولم تكن قد مضت لحظات حين هتفت لازارا وكأنها إستفاقت من حلم طويل:

«يا للعاهر!

ماذا دهاكِ؟

يا للعجوز المسكين، قالت لازارا، أي حياة بائسة يعيش».

نهار الجمعة التالية، في السابع من شهر أوكتوبر، خضع الرئيس للجراحة، وإستمرت العملية خمس ساعات، لم يُعلما للوهلة الأولى بأية إيضاحات، واقعاً كان عزاؤهما الوحيد أنه ما يزال على قيد الحياة.

على اثر العملية الجراحية بعشرة أيام نُقل الرئيس إلى حجرة مشتركة حيث بات بوسعهما زيارته، بدا لهما وقد تغيرت ملامحه؛ مبلبلاً، شاحباً، دعكت الوسادة شعره المفرّق فتساقط. ولم يبق له من هيبته السابقة سوى رشاقة يديه. فتنت قلبيهما محاولته الأولى للسير مستعيناً بعكازين إنكليزيين، وكانت لازارا تلازمه ليلاً لتوفير كلفة الممرضة. وكان أحد المرضى قد أمضى ليلته الأولى في الحجرة بالعويل، مصاباً بنوبة من الهلع لخوفه من الموت.

مثل تلك اليقظات التي لاتنتهي جعلت لازاراتضع حداً نهائياً لآخر تحفظاتها.

عقب مجيئه إلى جنيف بأربعة أشهر، سُمح للرئيس أخيراً بمغادرة المستشفى، وقد تولى هوميرو المفرط في الدقة ومدير

أملاكه الهزيلة تسديد فاتورة المستشفى، ونقله في سيارة الإسعاف، يؤازره في ذلك بعض من الزملاء تبرعوا تضامناً منهم بحمله على السلم حتى الطبقة الثامنة.

في منزلهما، أُفردت له غرفة الطفلين اللذين لم يتذكرهما أبداً، ثم شيئاً فشيئاً أخذ يستعيد رشده، ويمارس تمرينات التأهيل بصرامة عسكرية بحتة، وعاد يسير مجدداً معتمداً فقط على عصاه. وكان يبدو حتى في بدلاته القديمة، وبكامل أناقته غريباً عمّا كان عليه من قبل لجهة ملامحه ونمطه في العيش على حد سواء. ولأنه كان يخشى الشتاء وقد لاحت تباشيره جليدية وبلغت قسوته في الحقيقة ما لم يعرفه شتاء طيلة قرن، صمّم على الرحيل على متن مركب كان تقرّر اقلاعه من مرسيليا في الثالث عشر من ديسمبر، خلافاً لما نصح به أطباؤه متمنّين عليه إطالة فترة الرقابة الطبية مدّة إضافيّة. في اللحظة الأخيرة اعوزه بعض المال فعزمت لازارا أن تكمل المبلغ المطلوب خفية عن زوجها بإقتراضه من مدخرات الطفلين، لكنها تبيّنت أنها أقل قدراً مما كانت قد خمّنت. وقد اعترف لها هوميرو حينها أنه اقتطع منها مبلغاً من غير علمها لتسديد فاتورة المستشفى كاملة.

«حسناً، علّقت بإستسلام، لنقل أنه كان بمثابة إبننا البكر».

في الحادي عشر من ديسمبر، رافقاه حتى المحطة إبان عاصفة ثلجية عاتية، ليسافر في قطار مرسيليا. ولم يعلما إلاّ حين أوبتهما بأمر رسالة الوداع التي كان أودعها الطاولة في غرفة الطفلين، إلى

جانبها ترك لبربارا خاتم زواجه وبعضاً مما لم يشأ بيعه من مخلفات زوجته. وساعة الجيب للازارو. ولما كان اليوم نهار أحد هرع بعض جيرانهما الكاريبيين بعد أن تكشفت لهما هوية الرئيس إلى محطة كورناڤان Cornavin مصحوبين بفرقة ڤيرا كروز Vera Cruz لعزف القيثار.

هناك وجدوا الرئيس يقف لاهث الأنفاس، تعبّاً بمعطفه وبوشاح مبقع كان يخص لازارا في ما مضى. ولم يكن ذلك ليمنعه من البقاء منتصباً تسوطه الريح على عتبة حافلة القطار الأخيرة يلوح بقبعته علامة الوداع.

كان المركب قد تحول منكفئاً حين تبيَّن لهوميرو أنه ما يزال يُمسك بعصا الرئيس، فجرى مسرعاً حتى طرف المحطة، ورمى بها بشدة ليمكِّن الرئيس من التقاطها في الهواء، غير أنها انزلقت تحت عجلات القطار مفتتة إلى آلاف القطع.

كانت تلك لحظة مهولة. آخر ما أبصرته لازارا كان اليد المرتعشة المبسوطة لإلتقاط العصا من غير أن توفَّق إلى ذلك، ومراقب القطار يُمسك الرجل العجوز المغطى بالثلج، من وشاحه ليحول دون وقوعه في الفراغ. مذعورة جرت لازارا للقاء زوجها تحاول بين دموعها إغتصاب الضحك.

«يا إلهي، صاحت، ذاك الرجل لا يموت قط». وصل سليماً معافى وفق ما قاله في برقية امتنان طويلة إنقطعت بعدها أخباره نهائياً

طيلة عام، ثم بلغتهما رسالة من ست صفحات مكتوبة بخط اليد لا تُشاكِلُه بشيء بما أتى منها، كان الألم قد عاد مجدّداً أشد إيلاماً وإنتظاماً من السابق، غير أنه أرتأى تجاهله ومواجهة الحياة كما تتأتّى له. وقد وهبه الشاعر سيزير ايميه عصا جديدة مرصّعة بالصدف قرّر الإستغناء عنها وانه منذ ستة أشهر يأكل وفق مشيئته اللحم ومختلف انواع ثمار البحر، وهو قمين بإرتشاف عشرين فنجاناً من القهوة المرّة يومياً. ولم يعد يقرأ طالعه في الثفل لأن التنبؤات دامت تشي بغير الواقع. وأنه احتسى بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين بضع كؤوس من روم المارتنيك اللذيذ نخب صحته. وعاد يدخّن من جديد. وهو لا يشعر بحال أفضل كما قد يأخذهما الظن، لكنه ليس بأسوأ من ذي قبل. بالمقابل ان الحافز الحقيقي لرسالته انما هو البوح لهما بأن محاولته العودة إلى الوطن كانت بدافع ترؤس حركة اصلاحية في سبيل قضية عادلة ووطن كريم أو انها لمجرد مجد حقير ألاّ يموت شيئاً فشيئاً في السرير. من هذه الوجهة يخلص قائلاً بأن سفره إلى جنيف تمّ في أوانه بوحي سماوي.

الشهر السادس 1979م.

القديسة

ما عدت أرى مارغاريتو ديوارت Margarito Duarte ثانية، إلاّ بعد فوات اثنين وعشرين عاماً. ظهر فجأة عند منعطف شارع صغير من شوارع تراستڤير السريّة Trastevère. وللوهلة الأولى شقّ عليّ التعرّف إليه بفعل إسبانيته المتعثرة ومظهره الأنيق كروماني كهل. كان شعره قد شاب وتفرّق، وغاب عن سلوكه أيّ أثر للفجيعة. وتوارت الثياب المأتمية للمثقف الأنديزي التي تجلىّ بها حين أتى روما للمرة الأولى. غير اني انتهيت في سياق الحديث إلى تحريره تدريجياً من عسفِ السنين، مستعيداً صورته كما هو في العمق: مُغلَقٌ ومُباغِت. يتسلّح بصلابة نحات للحجارة. قبل فنجان القهوة الثاني في واحد من البارات التي كنا نرتادها في ما سلف جازفت بإثارة سؤال كان يُلهب شفتي.

«والقديسة؟»

ـ ما تزال في مكانها. تنتظر. أجابني. وحدنا، رفاييل ريبرو سيلفا، المغني Rafael Ribero Silva، وإن كان بوسعنا إستشفاف الزخم الإنساني الذي يطفح به ردُّه. كنّا على دراية كاملة بمأساته.

حتى أني اعتقدت لسنوات عديدة أن مارغاريتو ديوارت شخصية يترصدها الروائيون عمراً بكامله، وأن خاتمة قصته كانت لتتراءى لي بغرابتها أبعد من الخيال لو لم أدعه يعترض سبيلي ذات نهار.

كان قد أتى روما خلال ذاك الربيع البهي يوم كان البابا بطرس الثاني عشر يعاني نوبة فَواقٍ لم يفلح أيٌّ الأطباء والسحرة، صالحاً أم ضاراً في وضع حدٍّ لها. كانت هي المرة الأولى التي يغادر فيها قريته الجبلية الوعرة، توليما Tolima في جبال الأنديز الكولومبية. وكُنّا نميّزه حتى من طريقته في النوم، مَثُلَ ذات صباح في قنصليتنا بحقيبة من خشب الصنوبر المبرنق يذكر حجمها وشكلها بقِراب كمان (فيولونسيل) وعرض للقنصل الدافع الطارىء لرحلته. فإتصل هذا الأخير على الفور بمواطنه رافايل ريبرو سيلفا ليحجز له غرفة في الفندق الذي كنا نُقيم فيه معاً. على هذا النحو تمت معرفتي به.

لم يكن مارغاريتو ديوارت قد تجاوز في دراسته المرحلة الإبتدائية، غير أن ميله للآداب الجميلة أتاح له سبل تطوير ثقافته بفضل القراءة الشغفة لمطلق عملٍ مطبوع كان يقع في متناوله. في الثامنة عشر تزوج وهو موظّف في البلديّة من شابة حسناء توفيت بعد ولادة ابنتها بوقت قصير. وفاقت تلك الإبنة أمها حسناً وتوفيت هي الأخيرة في السابعة من عمرها أثر إصابتها بحمى خبيثة. غير أن القصة الحقيقية لمارغاريتو ديوارت كانت قد بدأت قبيل سفره إلى روما بستة أشهر، حين اقتضى تغيير موضع المقبرة لإنشاء سدٍّ

للقرية. مثله مثل سكان المنطقة كافة نبش مارغاريتو عظام موتاه ليدفنها ثانية في المقبرة الجديدة. وكانت عظام زوجته قد أمست رميماً. في المقابل لبثت صغيرته في النعش الملاصق طيلة أحد عشر عاماً على حالها سليمة، بحيث أنهم حين رفعوا مسامير النعش فاحت رائحة الورود النضرة التي دُفنت معها. إلاَّ أن أشد ما كان يدعو للدهشة بنحو خاص، انعدام وزن جسدها.

إجتاح القرية مئات الفضوليين، يشدهم إلى ذلك ما شاع من خبر الأعجوبة. ولم يكن ثمة مجال للتشكيك. كان بقاء الجسم سليماً من أي تحلّل إمارة بالقداسة لاطعن فيها. انبرى مطران الأبرشية واعياً لتعزيز الرأي القائل: بأن مثل تلك المعجزة قمين بأن يخضع لقضاء الفاتيكان، بحيث عُمِلَ على جمع تبرعات عامة بغية تمكين مارغاريتو ديوارت من السفر إلى روما ليعارك في سبيل هدف لا يخُصه وحده أو يخص الطوق الضيق لقريته وإنما هو شأن قومي.

في الفندق الكائن في حي باريولي Parioli الهادىء. وفيما كان يروي لنا قصته، فتح مارغاريتو ديوارت القفل ورفع غطاء الحقيبة الفخمة لنشارِكه ريبرو سيلفا المغني وأنا المعجزة على ذاك النحو. لم تكن لها سمة مومياء متصلبة كتلك التي نراها في العديد من المتاحف المنتشرة في أرجاء العالم، بل هيئة فتاة صغيرة بثياب عروس ما تزال تواصل رقادها بعد أن مكثت طويلاً تحت التراب. كان لبشرتها ملمس ناعم، دافىء، وكانت عيناها المفتوحتان الصافيتان تُخلِّف في الذهن إنطباعاً جهنمياً بأنها وهي في موتها ترنو

إلينا. ولم يكن الزمن حليماً بساتان الإكليل وبزهور البرتقال الإصطناعية حلمه بعافية بشرتها. بالمقابل دامت الورود التي دُسَّت في يدها نضرة. ودام وزن الحقيبة على حاله لم يتغير في الواقع حين أخرجنا منه جسد الطفلة.

باشر مارغاريتو ديوارت بإجراءاته بعيد وصوله بيوم واحد مدعوماً في البداية بمساندة ديبلوماسية شفوقة أكثر منها فعّالة، ثم مبتكراً في وقت لاحق ضروب الخداع كافة لعبور حواجز الفاتيكان التي لاحصر لها. كان دائماً يتوسل الكتمان في ما يخصُّ التماساته الكثيرة. غير أننا كنا على دراية بتكرارها ولا جدواها وكان يتصّل بكل أبرشية دينيّة أو جمعية خيرية يصادفها عرضاً فيكتفون بالإصغاء إليه بإهتمام إنما من غير دهشة، ويعدونه بتدخلات مباشرة ما كانت لتسفر عن نتيجة أبداً.

يجدر القول ان الوقت لم يكن مؤاتياً، فقد تمَّ إرجاء جميع الشؤون المتعلّقة بالكرسي الرسولي حتى تاريخ لاحق بإنتظار أن يبرأ البابا من نوبة الفُواق التي استعصت على أكثر وسائل الطب الاكاديمي تصنُّعاً، كما على أصناف الجرعات السحرية كافة التي أرسلت إليه من أقاصي المعمورة.

أخيراً، وفي شهر يوليو، أبلى البابا بطرس الثاني عشر من مرضه وذهب للإصطياف في كاستلغندلفو Castalgandolfo، فحمل مارغاريتو القديسة إلى أول مقابلة أسبوعيّة على أمل أن يعرضها له.

تجلّى البابا في الفناء الداخلي، على شرفة قليلة الإرتفاع، بحيث أمكن لمارغاريتو أن يرى أظافره المصقولة بعناية، ويتنسّم ما تضمّخ به من عطور اللاوندة. على أن البابا خيّب رجاءه ولم يتقدم إلى صفوف السواح القادمين من جميع أرجاء العالم التماساً لرؤيته، مكتفياً بإلقاء خطاب بست لغات مختلفة أنهاه بمنح الجميع بركته الرسولية. وعود كثيرة أرجئت، قبل أن يصمّم مارغاريتو على الإمساك شخصياً بزمام الأمور. فحمل إلى دائرة الشؤون المدنية رسالة من ستين صفحة كتبت بخط اليد لم يحظ عنها برد، ولم يفاجئه الأمر كثيراً ذلك أن الموظف الذي تولى تسجيلها وفق الإجراءات القانونية المعمول بها لم يُنْعِمْ ولو رسمياً بنظرة واحدة على الفتاة؛ الميتة، كذلك اكتفى المستخدمون حين مرورهم بها بتأملها دون أن تنمّ عنهم بادرة تُنبيء بالتأثر. وروى له أحد هؤلاء أنهم تلقُّوا خلال العام الفائت ما يربو على الثمانمائة رسالة من أنحاء متفرقة من العالم تتوسّل تطويب أموات دامت جثثهم سليمة لم تُمسّ.

انتهى الأمر بمارغاريتو أخيراً إلى التماس معاينة ظاهرة إنعدام وزن الجسد، فتحقّق الموظف من ذلك لكنه رفض التسليم به.

«لابُدّ أنها حالة من الهذيان الجماعي» قال خلال آحاد الصيف اللاذعة. وفي أوقات فراغه على ندرتها كان مارغاريتو يلازم غرفته منكبّاً على قراءة مطلق كتاب يتراءى له أن فيه نفعاً ولو جزئياً لقضيّته. على كراسٍ مدرسي كان يُسجل من تلقاء نفسه آخر كل شهر

تقريراً مفصّلاً بنفقاته بخط جميل لا يحسنه سوى كبار الكتبة في دواوين الدولة وإداراتها بغية تزويد واهبي المعونة من قريته بجردة حسابية دقيقة ومُثْبته. في نهاية العام بات يعرف جميع متاهات روما كما لو أنه ولد فيها، وغدا يتكلم الإيطالية بطلاقة، وإن ماثلت بركاكة مفرداتها لغة إسبانيّ الأنديز. غير أنه مضى زمن طويل قبل أن يتخلّى عن بدلة الحداد والصدار وقبعة القضاة، وهي ما كانت تميّز في روما آنذاك الأهداف المجهولة لبعض الجماعات السريّة. كان يخرج باكراً، يحمل بيده قراب القديسة ويؤوب ليلاً في ساعة متأخرة أحياناً متعباً ومكتئباً لكنه محتفظ أبداً بقبس من الأمل ينفح فيه مزيداً من الحميّة زاداً للغد.

«يعيش القديسون زمناً حُدّد لهم». كان يقول.

كانت تلك أول مرة أقطن فيها روما. حيث كنت طالباً في المركز التجريبي للسينما. وكنت أعايش محنة مارغاريتو بحدة جعلتني أعجز عن نسيانها.

واقعاً، كان الفندق الذي نقيم فيه عبارة عن شقة حديثة يبعد بضع خطوات عن فيللا بورغيز Borghèse ، تشغل منه صاحبته غرفتين وتؤجر الطلاب الأجانب أربعاً أخرى، وقد اسميناها ماريا بيلّلا لما حظيت به من حسنٍ وشهوانية وهي في ريعان خريفها. ولم يحدث لها قط أن خرقت القاعدة المقدسة القائلة بأن كلاً منا حاكمٌ وسيد مطلق في غرفته. وفي الحقيقة كانت العمة أنطونيتا Antonita، شقيقتها الكبرى هي من ينوء بأعباء الشؤون اليومية.

ملاك من غير جناحين كانت. تشغل نهاراتها كاملة بعمل دؤوب متواصل، تطوف في الزوايا كافة بدلوها ومكنستها وممسحتها الجنفيصية، تستنفد كل طاقة لها في فرك رخام الأرضية. هي من عوّدتنا على إلتهام الطيور الصغيرة المغرّدة التي كان يصطادها بارتولينو Bartolino زوجها، بسبب عادة قبيحة أدمنها خلال الحرب، وهي أيضاً من أسكنت مارغاريتو لديها حين عجزت موارده في النهاية عن الإيفاء بمتوجبات السكن لدى ماريا بيلّلا.

لم يكن ثمة أمر لا تألفه طبيعة مارغاريتو قدر تلقائية العيش في ذاك المنزل. فكل ساعة من ساعات اليوم كانت تُدخر لنا مفاجأة، حتى ساعات الفجر حين كُنّا نستفيق على زئير مرعب للأسد القابع في حديقة فيللا بورغيز، وقد نال ريبرو سيلفا المغني امتياز عدم إثارة احتجاج الرومانيين بألحانه المنغّمة في ساعة مبكرة من الصباح. كان يستيقظ في السادسة فيباشر حمّامه العلاجي ويمشط لحيته وحاجبيه الشيطانيين. رصين يغدو جاهزاً بعد أن يضع مجدداً مبذله ذا النقوش الشطرنجية وشاله المنسوج من الحرير الصيني، ويتعطّر بماء العطر الخاص به، يعكف جسداً وروحاً على تمارين الغناء. كان يشرّع النوافذ على مصراعيها حتى في الأيام التي يشتد فيها الصقيع، ثم يأخذ بتحمية صوته بمقاطع متدرّجة من ألحان الحب الشهيرة قبل أن ينطلق مغنياً بها بملء حنجرته. وكنا كل صباح نترقّبه إلى أن يخرق صوته الجهوري إيقاع النوتة الأخيرة فيجأر عندها أسد ڤيللا بورغيز بزمجرة تهتزّ بها الأرض.

«إنك تجسّد ثانية القديس مرقص Figliomio ، كانت العمة أنطونيتا تهتف بدهشة صادقة، فهو الوحيد الذي كان بوسعه مخاطبة الأسود».

ذات صباح، وعندما صدح المغني بغناء اللحن الثنائي لغرام عطيل لم يأتِ الرد من جانب الأسد، فقد تعالى من أسفل الحديقة صدىً رائع لصوت سوبراني.

واصل المغني غناءه وانطلق الصوتان يشدوان بالدور كاملاً وسط حبور بالغ عمّ الجوار، فشرّع الجميع نوافذهم لعلّ فيض الحب الجامح هذا يُبارك مساكنهم. وأوشك المغني أن يفقد صوابه حين أدرك أن ديمونته المحتجبة لم تكن سوى المغنية الشهيرة ماريا كانغليا Maria Caniglia .

تملّكني الشعور بأن تلك الواقعة زودت مارغاريتو بمبرر مشروع للإنخراط في مسار الحياة اليومية للمنزل. فمذاك داوم على الجلوس جماعة حول المائدة المشتركة، ولم يعد بعدها للإنفراد في المطبخ كعادته في ما مضى حين كانت العمة أنطونيتا تولمه يومياً مقبّلاتها الشهية من لحم الطيور المغرّدة.

بعد الطعام دأبت ماريا بيلّلا على قراءة الصحيفة اليومية بغية تمكيننا من التآلف مع إيقاع اللفظ الإيطالي، وكانت تنهي الأخبار برقّة أو تعسّف أمسى مثار بهجتنا.

ذات نهار، روت لنا في معرض الحديث عن القديسة، أن ثمة

متحفاً ضخماً في باليرم Palerm يعرض جثثاً دامت سليمة لرجال ونساء وأطفال. حتى أن عدداً من الأساقفة نُبشت سراديبهم في مقبرة الآباء الكبوشيين. أثار الخبر قلق مارغاريتو، حتى انه لم يُمهلنا لحظة للذهاب إلى باليرم. على أن نظرة واحدة فقط شمل بها رواقات المومياءات المبالغ في وصف بهائها، كانت كافية ليختلق عذراً يوآسيه.

«لا شأن لهذا بحالتي، قال: أولئك ندرك للتوّ أنهم أموات».

بعيد الغداء، كانت روما تنوء بخدر شهر أغسطس فتمكث شمس الظهيرة مصلوبة وسط السماء. في غمرة السكون الطاغي ساعتذاك كنّا نصغي إلى لجب المياه، ذاك النداء التلقائي لروما. ونحو السابعة مساءً تُشرّع النوافذ فجأة لتستضيف الهواء الرطب أوائل هبوبه، ويتدفّق إلى الشارع جمهور جذل لا همّ له سوى العيش وسط فرقعات الدراجات النارية وصراخ باعة البطيخ، وأغاني الحب تتصاعد من الشرفات المزيّنة بالزهر.

لم نكن المغني وأنا نركن للقيلولة، فوق دراجته يتولى هو المقود فيما امتطي حاملة الأمتعة كنّا نذهب لنعود بالمثلجات والحلوى لعاهرات الصيف الصغيرات اللواتي كنّ يرفرفن تحت أشجار الغار المعمرة في فيللا بورغيز سعياً لاجتذاب سواح ينشطون في قيظ الظهيرة. كنّ حسناوات، معوزات، وودودات مثل غالبية الإيطاليات آنذاك، يكتسين بالأورغندي الأزرق والبوبلين الوردي والكتان الأخضر ويتقينّ الحرّ بمظلات ثقبتها سيول الحرب العصرية.

كانت تلذّ لنا صحبتهنّ. ذلك أنهنّ كنَّ يتجاوزن قواعد مهنتهن فيجازفن بالتخلّي عن زبون كريم لنتدارى معاً في بار منعزل حيث ندردش ونحتسي القهوة، أو نتسكّع في عربة للجياد بين ممرات المتنزّه. أو نرنو ملوكاً أُطِيح بهم مع عشيقاتهم المفجوعات اللواتي كنَّ يمتطين صهوات الخيل في الغسق sur le Goloppatoio . وكنا لغير مرة نسديهن معروفاً بأن تلعبن دور الترجمان ليتفاهمن مع زبون أميركي أو انكلوسكوتي ضلّ طريقه.

لم نصحب مارغاريتو ديوارت إلى فيللا بورغيز من أجلهنّ، بل لنتيح له رؤية الأسد. وكان هذا الأخير يحيا طليقاً فوق جزيرة مقفرة يحيق بها خندق عميق. ما كاد يرانا على الجانب الآخر حتى أخذ يزمجر بهياج أذهل حارسه، وأوقع المتنزهين في حالة من الاستغراب. فحاول المغني التذكير بهويته صادحاً بلحنه الصباحي المزدوج. غير أن الأسد لبث على هياجه وأحجم عن تمييزه. بدا أن زئيره يلف الجميع، لكن الحارس سرعان ما أدرك أن مارغاريتو كان ضالته دون سواه، وهو ما ثبتت صحته: فحيثما حوّل اتجاهه كان الأسد يلتفت صوبه. تراءى للحارس وهو دكتور في الآداب الكلاسيكية من جامعة سيان Sienne ان مارغاريتو لا بدّ قد قارب ذاك النهار أسوداً أخرى وأنه ما يزال يحمل رائحتها، غير أن التعليل ظلّ كيفياً ولم يرد له خاطر سواه.

«في جميع الأحوال، قال: لزمجراته دافع غير التحدي. انها زمجرات الرثاء».

في المقابل. لم تؤثّر تلك الواقعة العجيبة بالمغني ريبرو سيلفا قدر تأثره بالإنفعال الذي اجتاح مارغاريتو حين توقفوا لبرهة للمهذر مع فتيات المتنزّه.

على المائدة لوّح بملاحظته. فوافقنا، بعضنا بدافع التخابث وبعضنا الآخر بوحي الرأفة. ان السعي لإيجاد علاج ينقذ مارغاريتو من عزلته هو في مقام العمل الصالح. متأثرة برقّة مشاعرنا، عصرت ماريا بيللا ثديي الأم التوراتية بكلتا يديها المرصوفتين بخواتم الفنتازيا.

«كنت لأضحي بذلك طوعاً بِراً بالمسيح، قالت: لكن لا طاقة لي على فعل ذلك مع رجال يضعون صداراً».

وهكذا توجّه المغني إلى فيللا بورغيز في الثانية ظهراً، وعاد مفرشخاً فوق دراجته بعاهرة صغيرة تراءت له أقدرهنّ على توفير ساعة أُنسٍ ينعم بها مارغاريتو ديوارت.

ـ في غرفته عمد إلى خلع ثيابها. غسلها بالصابون، جفّف بللها وعطرها بماء عطره الخاص ورش جسدها ببودرة التالك الممزوجة بالكافور والمخصّصة لما بعد الحلاقة، ونقدها بدل ساعة إضافية عما تتقاضاه لقاء الوقت الذي أمضياه معاً، ثم زوّدها بتفصيل ما ينبغي عليها القيام به.

مثل حلم قيلولة، اجتازت المتعرّية الحسناء المنزل الغارق في نور الغسق، متسلّلة على أطراف أصابعها، وطرقت باب الغرفة

الخلفية مرتين. حافي القدمين، عاري الصدر من غير قميصه فتح مارغاريتو الباب.

قالت: Buona sera giojanotto بنبرة الفتيات الغريرات وطريقتهن:

. Mi demanda il tenore

ألفى مارغاريتو ديوارت نفسه في مواجهة استحقاق كبير. وانتهى إلى فتح الباب ليدعها تدخل. فاسترخت فوق السرير بينما كان يزرّر قميصه وينتعل حذاءه على عجل ليقابلها بالإحترام الذي يليق به، ثم جلس على كرسي قبالتها وشرع يحادثها فاستعجلته الصبيّة الصغيرة وقد أدهشها سلوكه، بحجة أنهما يملكان من الوقت ما لا يزيد على الساعة فتصنع الجهل بمرادها.

أكدت له الشابة في ما بعد أنها ستبقى في مطلق الأحوال الوقت الذي يرتئيه من غير مقابل، بحجة أنه لم يسبق لها أن صادفت قط رجلاً بمثل لياقته. وشرعت في غمرة حيرتها تتأمل الغرفة، ولاحظت القراب فوق المدفأة فتساءلت إن كان سكسافوناً، لزم مارغاريتو الصمت وانصرف إلى الشباك يفتح مغلاقه ليتسرب قليل من الضوء، ووضع القراب فوق السرير ثم رفع الغطاء. حاولت الفتاة النطق بالكلمات غير أن فكّيها ارتخيا، أو وفق ما روته لنا لاحقاً Mi si gelo'il culo. وهرعت مرتعبة صوب الرواق بالإتجاه الخاطىء لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام العمة انطونيتا التي كانت تتجه

صوب حجرتي لتغيير الحبابة. وقد بلغ الرعب بكلتيهما حداً جعل الفتاة لا تجسر على مغادرة غرفة المغنيّ قبل هبوط الظلام.

لم تدرك العمة انطوانيتا سرّ ما حدث، دخلت غرفتي في حالة من الذعر عجزت معها بفعل إرتعاش يديها عن لولبة الحبابة داخل اللمبة فسألتها عما جرى «لطالما كان هذا المنزل مسكونا بالأشباح. قالت لي. لكن ليس في وضح النهار». وروت لي بنبرة يقين راسخ أن ضابطاً المانياً كان قد ذبح عشيقته في الغرفة التي يشغلها المغني. وغالباً ما كانت العمة انطونيتا تلمح خلال انهماكها بأعمال المنزل شبح الحسناء المغدورة يقتفي خطاها في الممرات «رأيتها للتو تعبر الرواق عارية تماماً، قالت. كانت هي بعينيها».

في الخريف كانت المدينة تستأنف روتينها، فتوصد الشرفات الصيفية المزيّنة بالزهور حين تهلّ طلائع الريح. وكنا، المغنيّ وأنا، نسلك مجدداً طريق تراتورياتراستڤير القديم حيث ألفنا تناول الغداء بصحبة طلاّب الغناء لدى الكونت كارلو كالكاني Carlo Caleani وبعض من زملاء الدراسة في المركز السينمائي. بين هؤلاء كان لاكيس Lakis أوفر الجميع مواظبة على الحضور وهو يوناني نبيه، خفيف الروح، عيبه الوحيد، التبجُّح بخطابات مُسجعة تذمُّ الظلم الإجتماعي. ولحسن الطالع أن السوبرانيفي والوتريين Les Tenors et les sopranos غالباً ما كانوا ينجحون في إسكاته بفضل ما يغنونه بملء أصواتهم من متطوعات أوبراليّة ما كانت لتقلق راحة أحد، حتى في أوقات ما بعد منتصف الليل، بل على النقيض تماماً كان

بعض المتسرنمين ينضم إلى جوقتهم، فَيُشَرِّع ساكنو الجوار نوافذهم مهلّلين.

ذات مساء، وكنا منصرفين للغناء، دخل مارغاريتو المطعم على أطراف أصابعه كيلا يقاطعنا، يحمل صندوقه الصنوبري، ذلك أنه لم يحظ بفسحة من الوقت تتيح له إيداعه الفندق عِقْب ذهابه بالقديسة لزيارة كاهن كنيسة سان ـ جان ـ دو لاتران Saint - Jean de latran - الذي وسع نفوذه أوساط رهبانيات الـ Rites الريتز. لمحته حين دسّه بعيداً تحت الطاولة. ثم جلس فيما كُنا ننهي الأغنية، كعاداتنا دائماً نحو منتصف الليل حين يكاد المطعم يفرغ من زبائنه، أدنينا عدداً من الطاولات واجتمعنا منفردين معاً، منّا من كان يغني، ومنا من يثرثر بصحبة أصدقاء آخرين ضمنهم كان مارغاريتو الذي اشتهر هناك بالكولومبي الصامت والكئيب. ولم يكن أحد يعلم من أمره شيئاً، سأله لاكيس وقد ثار فضوله إن كان يعزف على الفيولونسيل، فانتفضت حين سماعي ما بدا لي حينها صدعاً يستعصي رأبه، كذلك عجز المغني الذي لم يقلَّ عني استياءً عن تدارك الموقف. وحده مارغاريتو حمل السؤال محملاً طبيعياً.

«ليس هذا بفيولونسيل، إنها القديسة».

ووضع الصندوق على الطاولة ثم فتح القفل وشق الغطاء فعصف الذهول حينها بالحضور وتألّبَ حوله من بقي من الزبائن ونادلو المطعم وحتى مستخدمي المطبخ بمآزرهم الملطخة بالدماء مصعوقين، يتأملون الأعجوبة. بعضهم سارع يرسم شارة الصليب،

فيما جثا أحد الطهاة معقود اليدين نهباً لرعدة محمومة ليصلي في صمت. وما ان تجاوزنا تأثير الصدمة الأولى حتى غرقنا في جدل صاخب تمحور حول ما يعانيه تطويب القديسة حالياً من تقصير وعدم كفاية فبدا لاكيس بطبيعة الحال أشدّنا تطرفاً. وانتهينا إلى تبني اقتراحه بضرورة إنتاج فيلم تكون القديسة محوره.

«اني لعلى يقين ، قال، بأن سيزار العجوز سوف يقيم إعتباراً جدياً لموضوع مماثل».

وكان يقصد بالكلام سيزار زافانيتي Cesare Zavanitti أستاذ المخطوطات السينمائية والسيناريو وأحد كبار الدارسين لتاريخ السينما، والوحيد الذي عقدنا معه علاقات شخصية خارج نطاق الكُلّية. كان يجهد لتعليمنا المهنة، ولتلقيننا على نحوٍ خاص كيف ندرك الحياة من جانب مختلف. كان أشبه بآلة صِنْعَتُها صياغة الحبكات، تأتيه بتدفق هائل ربما قد يماثل الإرغام الطوعي. وما أسرع ما كان يقتضيه وجود آخر إلى جانبه يُسهم معه في التفكير بها عالياً، والإمساك بهوامها من فضاء الخاطر، غير أن موحياته خرست فجأة.

«من المؤسف أنه ينبغي لنا تصويرها سينمائياً» كان يقول. ذلك أنه دام يؤمن بأن الشاشة تُفْقِد خواطره الكثير من سحرها الأساسي. وكان يُسجلها على بطاقاتٍ يصنفها موضوعياً ويُشْكلُها بدبابيس على الحائط. وبلغت من الكثرة حداً تغطي معه فراغ حجرة بكاملها من حجرات منزله.

خلال السبت الذي تلا، قمنا بزيارته برفقة مارغاريتو ديوارت. كان زافايثني يعشق الحياة حتى حدود الهوس. بحيث وجدناه أمام باب منزله الكائن في شارع انجيلا ميريسي Angela Merici ينتظر متلهفاً بسبب الفكرة التي عرضناها له هاتفياً. ومن غير أن يحيينا، غافلاً عن حفاوته المألوفة رافق مارغاريتو إلى طاولة فارغة قام فوقها بفتح الصندوق بنفسه. حينها حدث ما لم يكن بوسعنا تصوره قط، فعوضاً عن إستبشاره فرحاً وفق ما كنا نتوقّعه، بدا مصاباً بما يشبه الشلل الفكري.

«Cazzo» غمغم مبهوتاً. لدقيقة أو لثلاث تأمّل القديسة صامتاً. ثم رد غطاء الصندوق بنفسه، ومن غير أن ينبس ببنت شفة عاد يرافق مارغاريتو حتى الباب كما لو كان طفلاً لم يألف المشي بعد. استأذنه مربّتاً على كتفيه.. «شكراً يا ولدي. شكراً جزيلاً، قال. ليكن الله عوناً لك في كفاحك». وبعد أن أغلق الباب التفت نحونا يعلمنا بقراره.

«هذا ما لا يصلح للسينما، علّق قائلاً، لن نجد من يصدّقه». واكبنا درس الأستاذ الطارىء خلال رحلة العودة في الترامواي. ما دام يقول بأن لا جدوى حتى من التفكير بذلك يعني: أن القصة ليست صالحة.» غير أن ماريا بيللا وافتنا حين وصولنا برسالة عاجلة: زافاتيني ينتظر مجيئنا مساء اليوم نفسه وحدنا من دون مارغاريتو.

كان الأستاذ في ذروة إلهامه. حتى أنه حين فتح لنا الباب بدا

ساهياً عن وجود إثنين أو ثلاث من الرفاق كان لاكيس قد اصطحبهم معه.

«لقد وجدت الحلّ، هتف قائلاً. سيثير الفيلم عاصفة إن أنهى مارغاريتو المعجزة بردّ الصغيرة إلى الحياة».

ـ في الفيلم أم في الواقع؟ سألته.

متابعاً هياجه أجابني «لاتكن أحمقَ» غير أننا لاحظنا على الفور أن عينيه ومضتا بضياء فكرة لا تقاوم «ربما قد يسعه احياؤها نهائياً». قال. ثم متفكراً بمنتهى الجدّية أردف «يجدر به أن يحاول».

ولم يكن ذلك سوى محاولة عابرة قبل الإمساك بزمام الموضوع. بدأ يذرع أرض المنزل سعيداً كمن فقد عقله، يُحرّك يديه في الإتجاهات كافة، ويروي تفاصيل الفيلم بصوت كالصياح. وكنا نصغي إليه مسحورين يغمرنا شعور بأن الصور تشبه أسراب طيور تنفلت عن جسده بوميض فوسفوري وتحوم حول نفسها في أرجاء المنزل كافة بما يشبه الجنون.

«ذات مساء، قال. وكان قد توفي عشرون من البابوات على غير علم منه. عاد مارغاريتو إلى منزله متداعياً ومتعباً فشق غطاء النعش. داعب وجه الصغيرة الميتة وخاطبها بفيض ما في العالم من حنوّ: اكراماً لأبيك، بُنَيّتي الغالية انهضي وسيري». حملق بنا جميعاً ثم أكمل بإيماءة المنتصر.

«ونهضت الفتاة!».

ولبث يترقب ردة فعلنا، غير اننا كنا في حالة من الإرتباك

عجزنا معها عن التعليق. وحده لاكيس رفع يده كما في الكلية يستأذن بالكلام.

«مشكلتي. اني لا أومن بهذا»، قال. ثم وسط دهشتنا جميعاً أضاف مخاطباً زاڤاتيني: «اعذرني أيها الأستاذ لأني لا أومن بذلك».

حينها اتى دور زاڤاتيني ليبقى فاغر الفم،

«وما سبب ذلك؟

ـ وهل لي أن أعلم؟أجاب لاكيس بنبرة ضيق، لا أسلّم بأمور كهذه. هذا كل شيء.

ـ Ammajza! صاح عندها الأستاذ بصوت كالرعد، لابُدَّ أن صداه تردد في أنحاءالحي كافة، ما يُضجرني لدى الستالينيين بوجه خاص أنهم لا يسلّمون إلاّ بالواقع».

في غضون الخمسة عشر عاماً اللاحقة، داوم مارغاريتو وفق ما رواه لي شخصياً على الذهاب بالقديسة إلى كاستلغندولفو كلما أتيحت له فرصة سانحة لذلك. وخلال مقابلة أُذن بها لمئتين من حجاج أميركا اللاتينية حظي مارغاريتو بعد أن شق طريقاً له وسط الزحمة برواية قصته في حضرة العطوف حتًا الثالث والعشرين. غير أنه لم يتمكّن من إظهارها له، ذلك أنه كان قد أُضطر لإيداعها حجرة الثياب مع حقائب بقية الحجاج تجنُباً لمخاطر الإعتداء. أصغى إليه البابا بما وسعه من الإهتمام وسط ذلك الحشد الحافل، ثم ربت على وجنتيه تشجيعاً.

«أحسنت صنعاً Figlio mio، قال له، سيعوّض الرب صبرك خيراً».

بالمقابل، وخلال المدة القصيرة التي اعتلى فيها الباسم البينو لوشياني Albino Luciani كرسي البابويّة فكّر جدياً أنه قارب تحقيق حلمه. ذلك أن قريباً لهذا الأخير وعد مارغاريتو متأثراً بقصته بالتوسط لصالحه. فلم يصدقه أحد منّا. على أنه عقب ذلك بيومين، تمَّ اثناء الفطور إتصال هاتفي بالفندق يترك له رسالة بسيطة ومختصرة: كان عليه بموجبها ألاَّ يغادر روما بحجة أنه سيتم استدعاؤه لإجراء مقابلة خاصة في الفاتيكان قبل يوم الخميس. لم نتحقَّق أبداً إن كان الإتصال مجرد دعابةٍ، لكن مارغاريتو كان مقتنعاً بخلاف ذلك، لذا بقي محترساً لا يغادر ابداً حتى إذا ما أضُطرلقضاء حاجة كان يعلن بأعلى صوته «أني في الحمّام». وكانت ماريا بيلّلا، وهي تقارب سن الكهولة وما تزال تحتفظ بكامل عذوبتها، تطلق قهقهة امرأة داعرة.

«حسناً، حسناً، مارغاريتو هذا في حال استدعاك البابا». في الأسبوع التالي، قبل يومين من الإتصال الموعود. انهار مارغاريتو وهو يطالع عنوان الصحيفة التي دُسَّت تحت الباب: موت البابا Morto il Papa، لمدى لحظة واحدة، خُيِّل له واجف القلب أنها نسخة قديمة حُمِلت سهواً. ذلك أنه صعب عليه التصديق بأنه قد يموت في كل شهر بابا جديد. وكان ذلك قد حدث فعلاً؛ فالباسم البينو لوشياني الذي انتخب بابا لثلاثة وثلاثين يوماً خلت قد توفي في سريره عند طلوع الفجر.

عدت إلى روما ثانية، بعد فوات اثنين وعشرين عاماً على

معرفتي بمارغاريتو ديوارت، وربما ما عادت ذكراه لتخطر لي في بال لو لم ألتقِه بمحض الصدفة؛ فقد كنت أضيق بما أحاقه بي الزمن حتى أني ما كنت بقادر على تذكر أي كان. رذاذ عديم الطعم كان ينهمر بلا انقطاع أشبه برغوة دافئة. وضياء الأمس الماسي كان قد تحول كدراً، والأماكن التي كانت حميمة في ما مضى وأغتذي منها توقي إلى الوطن تغيرت وباتت مختلفة، ولبث البناء الذي آوى الفندق هو نفسه لم يتغيَّر، إلاَّ أن ليس ثمة من كان قد سمع بذكرماريا بيلّلا. ولم يجبني أحد على أرقام الهاتف الستة التي كان قد بعث بها إلي المغنيّ ريبيرو سيلڤا عاماً إثر عام. وحين أثرت ذكرى أستاذي في أثناء الفطور بصحبة المتسبين الجدد إلى كلّية السينما، خيمَّ على المائدة صمت مطبق لمدة برهة قصيرة، تجرأ بعدها أحدهم على القول: «Zavzttini? Mai santito».

أي نعم: لم يكن أحد يأتي على ذكره. في ڤيللا بورغيز بدت الأشياء جرداء تحت المطر ومراح الأميرات الكئيبات كان قد نهشها عوسج لا زهر له، وحسناوات الزمن الغابر قد تحوّلن إلى مخنثات بعضلات رياضية وتنكرن بلباس الرجال فبَدَون مبتذلات الهندام.

من الطغمة المفقودة، وحده الأسد مكث صامداً في جزيرته الآسنة المياه، مصاباً بالجرب يعاني من الزكام.

ولم يعد ثمّة من يغني أو يموت عشقاً في التراتوريات الـ البلاستيكية Plastifiées الكائنة في شارع بيازا دي سبانيا Piazza di spagna، ذلك أن روما وهي حنيننا إلى الماضي كانت قد أمست

الآن روما عتيقة في قلب روما القياصرة العريقة. بغتة وفي شارع صغير من شوارع تراستفير استوقفني صوت واضح تراءى لي صداه من العالم الآخر.

«سلام أيها الشاعر».

كان هو؛ متداع وطاعن في السن، وكانت روما الخالدة قد وارت خمسة من باباواتها ولاحت لها بوادر التقحّل لكنه دام متمسكاً بحبل الرجاء. «انتظرت طويلاً، حيث لن يدوم الإنتظار بعد؛ وقتاً أطول». قال مستأذناً بالإنصراف بعد أن أمضينا نحو أربع ساعات في حديث أثرنا خلاله اشجان الماضي وشؤونه «ربما تكون مسألة شهور فقط».

ومضى يجرُّ قدميه وسط اسفلت الطريق، متنعلاً جزمة جندي ومعتمراً قبعة كهل روماني كمد لونها. لايحاذر مستنقعات المطر حيث كان الضوء يسترخي متألقاً، حينها لم أكن أرتاب لحظة، هذا إن سبق لي أن فعلت بأنه القديس دون سواه. فتحت ستار جسد ابنته الذي لبث سليماً لم يمسُّه الفساد، صرف من عمره اثنين وعشرين عاماً يُعارك من غير إدراك منه في سبيل قضيته العادلة، قضية تطويبه بين الأبرار.

الشهر الثامن 1981م.

طائرة الجميلة النائمة

كانت بهيّة الطلعة، هيفاء القامة، لبشرتهاالناعمة لون الخبز، ولعينيها زهو اللوز الأخضر، وكان شعرها الأملس أسود طويلاً ينسدل حتى متنها، تملك هالة من السحر ربما تكون ورثتها عن أسلافها القدماء في اندونيسيا أو بلاد الأنديز. وكان لباسها ينمُّ عن ذوق رفيع: سترة من فرو الأوس، وصدار من الحرير الطبيعي مزين بزهور صغيرة، وسروال من القطن الخالص، تنتعل حذاء حفيفاً بلون زهر الجهنميّة Bourgaimvellée.

«إنها أجمل من صادفت من النساء». هتفت في سريّ حين رأيتها تمر مسرعة مثل لبوة خفيفة الخطى فيما كنت أقف في الطابور لأستقلّ الطائرة إلى نيويورك من مطار شارل ديغول. وتراءى لي حضورها الخاطف كوحي عبر للحظة ثم تلاشى وسط صخب القاعة الكبرى.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً، والثلج ما يزال ينهمر منذ العشيّة، وحركة السير في شوارع المدينة أكثف من المعتاد في حين خفّت حدتها على الطرقات الرئيسية، وكان ثمة شاحنات متوقفة

على جنبات الطرقات، وسيارات يتصاعد بخارها في الثلج. بالمقابل دامت الحياة تتواصل في ردهة المطار كحالها في الربيع.

في الصف، مقابل مكتب التسجيل، وخلف عجوز هولندية استمرت نحو الساعة تعترض على وزن حقائبها الإحدى عشرة كنت أقف وقد بدأت أضيق ببطء الساعات، حين لاحظت عبورها الخاطف بهرني وتقطعت له أنفاسي. لم أدرِ كيف انتهى الشجار، ذلك أن المضيفة ردتني إلى أرض الواقع آخذة علي شرود ذهني.

بما يشبه الإعتذار سألتها إن كانت تؤمن بصعقة الحب.

«بالطبع، أجابتني تلك هي الصعقة الوحيدة الصادقة». ثم سألتني وعيناها لا تفارقان شاشة الناظرة الآلية إن كنت أرغب بالسفر في جناح المدخنين أو بذاك المعين لغير المدخنين.

«سيّان الأمر عندي» أجبتها متعمداً، ما دمت بعيداً عن إحدى عشرة حقيبة. فشكرتني بإبتسامة متكلّفة دون أن تحيد بنظرها عن الشاشة المضيئة.

«إختر رقماً، قالت لي. ثلاثة، أربعة، أو سبعة.

ـ أربعة».

فومضت عيناها بشعاع الظفر وقالت.

«أعمل هنا منذ خمسة عشر عاماً، لم يسبق لمسافر سواك أن اختار رقماً آخر غير السبعة».

سجلت رقم المقعد على البطاقة ثم أعادتها لي مع بقية الأوراق

وهي تحملق فيّ للمرة الأولى بعينيها السمراوين الذهبيتين. كلاعب يُكافىء تعويضاً لخسارته عندما لمحت الحسناء الشابة تعبر ثانية من أمامي. في تلك اللحظة بالذات أبلغتني أنهم على وشك إقفال المطار وأن كل الرحلات قد أرجئت.

«إلى متى؟»

ـ علم ذلك عند الله وحده. قالت والإبتسامة لاتفارقها، لقد أذاع الراديو أن هذا الصباح سيشهد اكثف موجة ثلجية خلال السنة» ولم يصح تقديرها، فقد هبّت عاصفة ما عرف القرن مثيلاً لها. لكن ربيعاً حقيقياً كان يغمر قاعة الإنتظار المعينة لركاب الدرجة الأولى بمقدار ما تجلت الورود نضرة منسقة في المزهريات، وإنسابت موسيقى العلب بسموٍّ وسكينة ما كان ليدّعيه مبدعوها.

فجأة ملكني احساس مباغت بأن المكان هذا ملاذ نموذجي لحسنائي الجميلة فأخذت ابحث عنها في القاعات الأخرى يُرْبكني الشعور بتهوُّري، على أن معظم الموجودين كانوا رجالاً من صميم الحياة الواقعية منصرفين لقراءة صحف بالإنكليزية فيما كانت زوجاتهم لاهيات في التفكير برجال آخرين. محملقين عبر زجاج النوافذ البانورامية الضخمة بالطائرات الجاثمة دون حراك على الثلج، وبالمصانع المجمدة، وبأراضي رواسيّ Roissy المحروثة التي أتلفتها الأسود. كان الوقت قد تجاوز الظهيرة. ولم يعد ثمة مقعد شاغر، وبلغت درجة الحرارة حدّاً بات يتعذر احتماله حين خرجت لتنشُّق الهواء.

في الخارج راعني المشهد المهول: أناس من جميع الفئات تسلّلوا خارج قاعات الإنتظار وخيّموا في الأورقة التي تحولت إلى أفران تجفيف طاولت حدود السلالم حيث انطرحوا أرضاً بصحبة حيواناتهم وأطفالهم وحاجياتهم. ولأن الإتصالات الهاتفية في المدينة أمست مستحلية، تحول القصر البلاستيكي الشّفاف إلى ما يشبه عربة فضائية ضجت بها العاصفة. لم يعد بوسعي مجانبة التفكير بأنه لابد أن تكون الشابة الحسناء متدارية في مكان ما وسط تلك الحشود الهائلة، وزودني ذاك الوهم بالقدرة على الإنتظار.

عند الفطور، أدركنا أننا غرقى يحاصرنا الثلج. فأصطفّت طوابير طويلة لامتناهية أمام المطاعم السبعة والمقاهي، والبارات التي إقتُحمت عنوةً. ولم يمضِ سوى ثلاث ساعات حتى أُقفلت جميعها، ذلك أنه لم يبق فيها أي طعام أو شراب. وسرُع الأطفال وقد تبدوًا في لحظة ما كتجمع يضم أطفال العالم قاطبة يبكون بتساوقٍ موحّدٍ وفاحت للحشود رائحة القطيع فباتوا يتخاطفون الفضلات حتى لم يمكنني إزدراد أكثر من مقدار علبتين من القشدة المبردة حصلت عليها من متجر صغير للأطفال. وراء المبسط تناولت القشدة بتمهل بينما كان الخدم يقلبون الكراسي فوق الطاولات الفارغة التي يغادرها الزبائن. وفيما تراءت لي صورتي في المرآة الخلفية أمسك بالعلبة الكرتونية الأخيرة، وأضع آخر ما تبقى منها في فمي بالملعقة الكرتونية الصغيرة، متفكراً بفتاتي الجميلة.

في الثامنة مساءً استأنفت طائرة نيويورك رحلتها التي كانت

تقرّرت منذ الحادية عشرة صباحاً. وفي حين بات بإمكاني ركوب الطائرة أخيراً، كان مسافرو الدرجة الأولى قد استقروا في أماكنهم فرافقتني إحدى المضيفات إلى مقعدي. صعقتني الدهشة. على المقعد المجاور لمقعدي لجهة النافذة، كانت حسنائي تنعم بمكانها رابطة الجأش كمسافر خبر السفر. «إن قيض لي يوماً أن أكتب هذه القصة، قلت أحدث نفسي، فلن يصدّقني أحد». وحاولت الغمغمة بتحية مسائية غامضة كادت ربما لا تسمعها.

إستقرت في مقعدها، كما لو أنها ستلازمه دهراً، وقد أحلت كل شيء في موضعه بترتيب فائق حتى ماثل الحيّز الذي احتلته منزلاً نموذجياً متقن التنظيم حيث يتهيأ بمتناولنا كل ما نرغب فيه، وكانت متشاغلة حين حمل إلينا رئيس الخدم أقداح الشمبانياالترحيبية، فأمسكت بواحدتها أعرضه عليها، غير اني عدلت في اللحظة المناسبة ذلك أنها اكتفت بكوب من الماء، وسألت رئيس الخدم بفرنسية متعثرة في البداية، ثم بإنكليزية أفضل حالاً ألاّ يوقظها بأية ذريعة كانت. فرنّ لصوتها الرزين الدافىء وقع كآبة شرقية.

عندما أتى لها الخادم بكوب الماء، وضعت فوق ركبتيها حقيبة للسفر طُليت أطرافها بالنحاس، تشبه حقائب جدّاتنا وتناولت من علبة امتلأت بأقراص من جميع الألوان، قرصين ذهبيين. وبدت كل حركة من حركاتها مدروسة ومتّزنة كما لو أنها ألفت منذ ولادتها التحسب لأي طارىء قد تقضي به الظروف. اسدلت أخيراً ستارة النافذة الصغيرة وأنزلت مسند كرسيها، وتمددت بغطاء لفّ قامتها

ومن غير أن تخلع حذاءها وضعت قناع النوم وتكومت في وضع جانبي لتوليني ظهرها. ثم خلدت للنوم سحبة واحدة، من دون أدنى نأمة وفي وضعها الجانبي نفسه طيلة ثماني ساعات أبدية إضافية إلى اثنتي عشرة دقيقة إستغرقتها رحلة نيويورك.

كانت الرحلة طويلة، ولطالما اعتقدت بأن المرأة الجميلة هي أبهى جمالات الطبيعة على الإطلاق. بحيث استحال علي الإفلات ولو لبرهة قصيرة من سحر تلك المخلوقة الفاتنة الراقدة إلى جانبي كحورية من حوريات الجنّ. كان رئيس الخدم قد توارى فور اقلاع الطائرة وحلّت مكانه مضيفة نظامية (ديكارتية) حاولت ايقاظ جميلتي النائمة لتزويدها بسماعات الموسيقى وبحقيبة صغيرة تحتوي أدوات للزينة، فأعدت عليها ما كانت قد أوصت به رئيس الخدم. غير أن المضيفة أصرّت على سماعها تعلن شخصياً عدم رغبتها في تناول الغذاء، متعلّلة بأنه كان ينبغي لهذا الأخير تأكيد الأمر لها، وبأن جميلتي لم تعلّق في رقبتها مذكرة كرتونية صغيرة توصي بعدم إيقاظها.

تناولت غذائي منفرداً، متفكراً بكل ما كان بوسعي الهذر به أمامها لو لم تكن نائمة. وبدا لي نومها عميقاً إلى حد خشيت معه في لحظة معينة ألاّ تكون الحبوب التي ابتلعتها مخصصة للنوم بل للموت.

وقبل كل جرعة من الكأس كنت أرفعه لأشرب نخبها.

«نخبك، جميلتي».

انتهى الغداء فأطفئت الأنوار، ولاح على الشاشة الفيلم المرصود لجميع الركاب دون استثناء فغرقنا نحن الاثنين في غبش لفّ العالم، وكانت أعتى عواصف القرن قد سكنت، وليل الأطلنطيك رائقاً وطويلاً، والطائرة تتراءى ساكنة وسط النجوم. حينذاك مضيت اتأملها انملة انملة لساعات طويلة. ولم يكن لملامحها وهي نائمة أي سمة تنبيء بالحياة، خلاف أخيلة أحلامها تنساب فوق جبينها انسياب غمام يلامس صفحة صنعته الماء. حول عنقها تدلّت سلسلة رفيعة للغاية. ذهبية بلون بشرتها، حتى لاتكاد العين تدركها. وخلت شحمة أذنيها من الثقب الذي تُخلِّفه الأقراط. ونفحت أظافرها الورديّة بلون العافية وكان ثمة خاتم في بنصر يدها اليسرى. لم يبد لي أنها تجاوزت العشرين لذا واساني التفكير بأنه مجرد خاتم خطوبة عابرة وليس بخاتم زواج.

Te savoir endormie, sereine, sûre, courant fidèle d'abandon, ligne pure, si près de mes bras enchainés

أُحِسُّكِ نائمة، مستكينة، آمنة، فيض دائم من الإستسلام، خطٌّ محضٌ، قريبة جداً من يديّ المغلولتين.

فكرت في سري وأنا أستظهر فوق فقاعات الشمبانيا سونيتة جيراردو دياغو Gerardo Diego العظيمة. ثم قلبت كرسيّ بمستوى إرتفاع كرسيها، لنمكث ممدَّدين، متقاربين يجاور واحدنا الآخر أكثر مما في سرير زوجين. كان لأنفاسها ما لصوتها من الدفء. ولبشرتها فوح ناعم لا بدَّ أنه الفوح الطبيعي الذي يفوح به جلدها. تراءى لي

الأمر يفوق حدود الغرابة: ففي الربيع الماضي كنت قرأت رواية رائعة لـ ياسوناري كواباتا Yasunari Kawabata فتحدث عن طاعنين في السن من بورجوازيي كيتو Kyoto كانوا يسخون بمبالغ طائلة لقاء قضاء الليل بتأمل أجمل فتيات المدينة وهن عاريات مخدرات، فيما ينهارون حباً إلى جانبهن في ذات السرير، ولم يكن يقتضيهن ايقاظهن أو ملامستهن أو حتى التفكير بذلك لأن تأملهن نائمات كان بحد ذاته مصدر لذتهم، تلك الليلة كان يجدر بي وأنا أرعى رقاد جميلتي، أن أدرك كنه ذاك التهذيب المفرط للشيخوخة: وقد عشته فعلاً بكامل تفاصيله.

«من تراه يستطيع التكهن، قلت في نفسي، وقد هيجت الشمبانيا فيّ حبي لذاتي، بأنني قد اتحول ذات يوم إلى ياباني هرم؟!!

لابدَّ انني غفوت لبضع ساعات مغلوباً على أمري تحت تأثير الشمبانيا وومضات الفيلم الصامتة. واستيقظت مصدَّع الرأس. اتجهت صوب الحمام، وورائي كان ثمة صفان يأويان العجوز الهولندية وحقائبها الإحدى عشرة وقد انكفأت على ظهرها أو تكاد. كانت تشبه ميتاً تُرك في ساحة القتال. وعلى الأرض في منتصف الممر، لمحت نظارات القراءة خاصتها مرمية إلى جانب السلك المعقود من حبات لؤلؤ زجاجية متعددة الألوان. لمدى برهة خبرت الإحساس عبقة دنيئة صرفتني عن إلتقاط النظارات.

كنت قد تحررت من مفعول الشمبانيا حين انكشفت لي

صورتي في المرآة فظّة كريهة. وأذهلني أن يعصف بي الحب بذاك المقدار من العنف.

بغتة إنقضّت الطائرة مندفعة من حيزومها (مقدمتها) ثم عادت تعتدل لتواصل طيرانها مسرعة. فأضيئت لوحة تدعونا لملازمة مقاعدنا.

خرجت على جناح السرعة، راجياً أن تكون القدوُمات الإلهية قد أيقظت جميلتي النائمة، علّ الرعب يدفعها لتلوذ بين ذراعيّ. وفي غمرة إستعجالي كدت أهشم نظارات الهولندية العجوز. وهو ما لم يكن من شأنه إقلاق صفوي، على أني عدت على أعقابي لألتقطها ولأضعها على ركبتيها بما يشبه التعبير عن إمتناني لأنها لم تسبقني لإحتلال المقعد رقم 4.

كان رقاد جميلتي منيعاً حين استعادت الطائرة توازنها قاومت إغراءً ملحاً كان يحثني لأن أهزها متذرعاً بسبب أو بآخر، ذلك أني ما تمنيت تلك الساعات الأخيرة من ساعات الرحلة أمراً قدر رغبتي: «رؤيتها تستيقظ ولو فعلت ذلك حانقة رغبة بإستعادة حريتي وربما شبابي ثانية. غير أني انكفأت عاجزاً. عطفك ربي، قلت احدث نفسي بإحتقار تام. لم لست من مواليد برج الثور!». لحظة إنبرت لوحات الإضاءة استيقظت من تلقاء ذاتها وتبدّت بكامل حسنها ونضارتها كما لو كانت توسدت سريراً من الزهور.

حينها أدركت أن مسافري الطائرة الذين يتجاورون نظير الازواج العجائز، لايبادرون بعضهم البعض بتحية صباحية حين

يستيقظون. ولم تخلُ هي بالقاعدة. خلعت قناعها وفتحت عينيها المتألقتين ورفعت مسند مقعدها ثانية، ورمت بالغطاء جانباً ثم نفضت شعرها بحركة اعادته تلقائياً إلى طبيعته بنعمة ما لوزنه من خفة. وعادت تضع الحقيبة فوق ركبتيها. طرّت وجهها بالمساحيق بمسحة سريعة لم يكن ثمة أي مدعاة لها لكنها كانت كافية لتتجنب مواجهة نظراتي بإنتظار ان تفتح الطائرة ابوابها ثم وضعت سترتها الجلدية من فرو الأوس وتجاوزتني مغمغمة بصيغة اعتذار تقليدي عبرت عنه بإسبانية اميركية صرفة ورحلت من غير وداع، حتى من غير أن تشكرني إمتناناً لكلّ ما بذلته كي يمضي ليلنا هانئاً، قبل أن تتوارى نهائياً وحتى يومي هذا في مجاهيل نيويورك.

الشهر الثامن 1982م.

مهنة الحلم

في التاسعة صباحاً. فيما كنا نتناول الفطور الصباحي على شرفة فندق الهابانا ريفييرا Habana Riviera هبَّ إعصار بحري عنيف En plein soleil ذهب بسيارات عدة. بعضها كان يعبر متنزه الماليسون Malecon، والآخر متوقف بمحاذاة الرصيف. وقد لبثت احداها ملتصقة بحائط الفندق. كان للإعصار وقع النسف بالديناميت، فدبَّ الرعب في طبقات البناء العشرين. وتحطَّم زجاج الردهة الكبرى وفي قاعة الإستقبال أطاح الإنفجار بالعديد من السواح في الهواء، في الآن عينه أصابت قطع الأثاث وشظايا الزجاج عدداً كبيراً من بينهم بجروح. ولم يكن ثمة شك في أن تلاطم موج البحر قد بلغ حداً هائلاً، ذلك أن ما بين جسر Malecon الماليسون والفندق قامت جادة واسعة تعبرهاالسيارات بالإتجاهين. كان الموج فوقها يتواثب مندفعاً بما يكفي من القوة لتحويل الجوف المزجَّج إلى حطام.

في أقل من ست ساعات جمع المتطوعون الكوبيون «اللطفاء Joyeux الأنقاض بمساعدة رجال الإطفاء وسدُّوا الباب المفضي إلى

البحر بعد أن هيئوا باباً آخر وأعادوا كل شيء إلى نصابه، خلال الصبيحة لم يُبدِ أحد اهتماماً بالسيارة الملتصقة بجدار الفندق ظناً منهم بأنها واحدة من السيارات المركونة بمحاذاة الرصيف. على أنه عُثر داخلها حين ازاحتها الرافعة من مكانها على جثة امرأة عالقة مع حزام الأمان بمقعد القيادة. كان الإصطدام عنيفاً بحيث لم يُبقِ من عظامها المسحوقة عظماً سليماً. فطُحن وجهها وقطعت ذراعاها وتمزَّقت ثيابها إرباً، وكانت تضع في اصبعها خاتماً ذهبياً على صورة أفعى رُصِّعت عيناها بحبات الزمرد. أثبتت الشرطة أن القضية تتعلق بالقائمة بالأعمال في القنصلية الجديدة للبرتغال وبعائلتها التي قدمت بصحبتها يوم وصولها إلى هافانا قبل ذلك بخمسة عشر يوماً. وكانت قد خرجت ذلك الصباح تقود سيارتها الجديدة لشراء حاجياتها. حين طالعني النبأ في الصحف لم يعنِ لي اسمها شيئاً، غير أن الخاتم الذهبي على صورة أفعى بعينين من الزمرد حرَّك فضولي إلاّ أنه لم يسعني التحقق أياً من أصابعها كان يحمل الخاتم.

بدا لي ذلك دليلاً قاطعاً. فقد رابني أن الأمر يتعلق بتلك المرأة الراسخة في ذاكرتي التي ما عرفت قط اسمها الحقيقي، والتي كانت تضع في سبابة يدها اليمنى خاتماً مماثلاً وهو ما كان حينها أمراً مستهجناً يخالف المألوف.

عرفتها منذ أربعة وثلاثين عاماً ذات يوم في ڤيِنّا، فيما كنت ألتهم المقانق والبطاطا المسلوقة وأحتسي البيرة المضغوطة في حانة يرتادها طلاب لاتينو اميركيون. وكنت قد أتيت من روما صباح ذات

اليوم وما زلت أذكر انطباعي الأول لدى رؤيتي لنصفها الأعلى الشامخ.

ولذيل الثعلب يسترخي بفتور حول ياقة معطفها. ولذلك الخاتم المصريّ على صورة الأفعى. خُيِّل إلي أنها النمساوية الوحيدة وراء تلك الطاولة الخشبية المديدة. وذلك أنها كانت تتحدث دون انقطاع بإسبانية بدائية لها رنين آنية نحاسية. ومع أنها ولدت في كولومبيا كانت قد قصدت النمسا وهي لم تتجاوز بعد سن الطفولة إبان الحربين الكبريين لتدرس هناك أصول الموسيقى والغناء.

يوم تعرفّت بها كانت قد بلغت الثلاثين وإن بدت أكبر سناً. ولأنها لم تكن يوماً بطبيعة الحال امرأة جميلة بدأت تشيخ قبل أوانها. من ناحية أخرى عرفتها مخلوقة رائعة لكنها من اشد النساء إثارة للرهبة.

آنذاك، لبثت ڤينا مدينة امبرطورية قديمة، تحولت أخيراً بحكم موقعها الجغرافي ما بين عالمين متصارعين عقب الحرب العالمية الثانية إلى وكر مثالي للسوق السوداء ولأعمال التجسس الدولية. ما كان بوسعي تصور مكان أفضل يصلح لتلك المواطنة العابرة التي واظبت على تناول طعامها في حانة الطلاب بدافع وحيد هو الوفاء لجذورها. ذلك أنها كانت تملك من الوسائل ما يمكّنها من شراء المكان نقداً حتى بما يضمُّه من الزبائن.

لم تكشف لأحد أبداً عن اسمها الحقيقي. عرفتها دوماً تحت اسم مستعار يصعب لفظه ابتكره لها الطلاب اللاتينو اميركيون في

فيتًا: فرو فريدا Frau Frida. كانوا قد عرفوني بها للتو حين ارتكبت حماقة موفَّقة بسؤالها كيف تتدبر أمورها لتعيش مستقرةً على هذا النحو في عالم جدّ بعيد ومتميز عن عالم الصخور المريَّحة في كوانديو Quindio فأجابتني من دون تردد:

«انهم يدفعون لي مقابل أن أحلم».

واقعاً تلك كانت مهنتها الوحيدة. كانت الثالثة بين احد عشر ولداً لأب إزدهرت تجارته في كالداس Caldas العتيقة. ومنذ أن تعلَّمت الكلام أقامت في المنزل تقليداً ثابتاً تروي بوحيه أحلامها يومياً حين تستيقظ على الريق، لحظة تتجلَّى قواها الحدسية بأصفى حالاتها. في السابعة من عمرها حلمت بأن أحد أشقائها جرفه السيل، وتعلقاً منها بالمعتقدات الدينية الباطلة منعت الأم على ابنها أحبَّ الأفعال لديه: السباحة في النهر، غير أنه كان لتنبؤات فرو فريدا منهج في التأويل خاص بها.

«لا يعني هذا الحلم أنه سيغرق في النهر، قالت. بل إنه ينبغي له ألاَّ يأكل الملبَّس».

بدا هذا التأويل دناءة بحتة، لأن الأمر يتعلق بصبي في الخامسة لا يمكن حرمانه من ملبَّس أيام الآحاد. ولثقتها الراسخة بما وُهبته ابنتها من قدرة على التنبؤ رعت الأم شروط الإنذار بحزم. غير أن الطفل استغلَّ غفلتها للحظة وقضم خفية حبَّة ملبَّس محلاَّة بالقرفة فإختنق بها، ولم يكتب له الخلاص.

لم تكن فرو فريدا تأمل بإستغلال موهبتها لتحترفها مهنة، إلى أن ضاقت بها الحياة خلال شتاءات ڤينا الدموية. حينها طرقت سعياً وراء الرزق بباب أول منزل تراءى لها فيه العيش طيباً. ونطقت بالحقيقة حين سؤلت عما تحسن فعله: «الحلم».

فاكتفت سيدة المنزل بتوضيح مقتضب واستخدمتها لقاء أجر يكاد لا يفي بنفقاتها التافهة، على أن تحتل بالمقابل غرفة كبيرة وتحصل على ثلاث وجبات يومياً، منها الفطور الصباحي على وجه الخصوص، لحظة كانت العائلة تجتمع لتبيّن المصير اليومي لكل فرد من أفرادها: الأب وهو مموِّلٌ بارع. والأم، امرأة: مرحة تهوى موسيقى العزف في الأماكن الرومانسية الضيقة وطفلان أحدهما في الحادية عشرة والآخر في التاسعة. كانوا جميعاً ملتزمين دينياً حتى أنهم مجبولون بحكم ذلك على الإيمان بالخرافات القديمة، فقابلوا فرو فريدا بالحماس لا يلتمسون منها شيئاً خلاف التكهن بمستقبل ايامهم عبر تأويل أحلامها.

دامت تقوم بعملها لفترة طويلة، لا سيما خلال سنوات الحرب. حين كان الواقع يفوق الكوابيس شؤماً وبشاعة. وحدها دون سواها باتت تملك سلطة التقرير ساعة الفطور صباحاً، بما ينبغي لكل فرد القيام به هذا النهار أو ذاك وعلى أي نحو يقتضي له أن يفعل. إلى أن استأثرت تنبؤاتها بالنفوذ الأول، وغدا لها سلطان مطلق على العائلة: حتى النهدة الرقيقة ما كانت لتصدر إلاّ بوحي منها. حين صادفتها في ڤينا كان رب العائلة قد توفيَّ منذ عهد قريب

وأورثها لباقة منه جزءاً من مداخيله شرطه الوحيد لذلك أن تواصل أحلامها لصالح عائلته حتى نهاية مطافها.

مكثت في ڤينا لأكثر من شهر، أشاطر الطلاب ضيق عيشهم، ذلك أني كنت أتوقع ان يصلني مبلغ من المال لم أحصل عليه أبداً. آنذاك كانت الزيارات الطارئة التي تقوم بها فرو فريدا إضافة إلى سخائها تشبه أيام الأعياد في زمن القحط. ذات مساء وقد انتشينا من البيرة همست في أذني بيقين لم يكن ليحتمل هدر المزيد من الوقت «جئت أعلمك أني حلمت بك البارحة، قالت لي. عليك الرحيل فوراً على ألاّ تضع قدميك ثانية في ڤينا طيلة السنوات الخمس المقبلة».

كان يقينها راسخاً إلى حدٍ جعلني مساء اليوم نفسه استقلُّ القطار الأخير إلى روما. وقد أثّر بي هذا إلى حد بعيد بحيث ما زلت اعتبر نفسي منذ ذلك اليوم، الوحيد الذي نجا من كارثة لم أذهب ضحيتها، ولم أعد مذّاك أضع قدماً لي في ڤينا.

قبل النكبة التي حلت بهاڤانا، رأيت فرو فريدا ثانية في برشلونة خلال لقاء تم عرضاً ولم يكن متوقعاً فتراءى لي مكتنفاً بالغموض، حدث ذلك يوم وطأ بابلو نيرودا الأرض الأسبانية لأول مرة منذ الحرب الأهلية. عند توقفه في رحلة بحرية طويلة إلى ڤالباريزو. فأمضينا برفقته صبيحة بكاملها ننقِّب متطفلين المكتبات القديمة وقد إبتاع من مكتبه بورتر Chez Porter كتاباً قديماً. كمدٌ وفَقَدَ رونقه، دفع لقاءه مبلغاً لا يقل عن معدل راتبين من عمله في

قنصلية رانغونRangoon . كان يتنقل بين الجموع كالفيل العاجز، ويبدي اهتماماً طفولياً بأوالية الأشياء كافة، ذلك أن العالم كان يتراءى له أشبه بدمية ميكانيكية هائلة الحجم تصلح لإبتكار الحياة. لم يحدث لي أن عرفت شخصاً قبله يشاكل بهذا القدر الصورة التي قد تكونها عن حبر اعظم في عصر النهضة: اكولٌ ومرهف. كان دائماً يتصوّر المائدة رغم طوعه. وكانت ماتليد زوجته تعقد حول عنقه فوطة تذكر بفوطة المزيّن أكثر منها بفوطة للمائدة. على أنها كانت الوسيلة الوحيدة للحؤول دون تلوثه بمرق التوابل. ذاك اليوم بدا مثالياً في مطعم كارفاليراس Carvalleiras . فقد التهم ثلاثة كركند بكاملها. قشرها بمهارة جرّاح فيما ظلّ يحملق في أطباق المدعوين بشراهة تحرك الشهية للطعام، وينقر من هذا الطبق وذاك: محار الفاليس Golice وصخريّات البلبايو Bilbao وسرطانات الاليكانت Alicante وإسبارديناسات Espardenyas الكوستابرافا. في الآن عينه، وعلى غرار الفرنسيين لم يتجاوز حديثه مجال الفن المطبخي، وبخاصة ثمار البحر التشيليّة القديمة التي كان يحبّها. بغتة توقف عن الطعام وأرهف سمعه كسرطان بحري ثم همس بصوت خفيض: «ثمة شخص خلفي لم ينقطع عن التعريف بي». أنعمت النظر شذراً: وكان على صواب. خلفه على مسافة ثلاث طاولات كانت امرأة جسورة تعتمر قبعة من اللبد قديمة الطراز، تلف عنقها بشالٍ بنفسجّي وتمضغ الطعام ببطء وتمعن في التحديق به.

ميّزتها في الحال. بدت هرمة، بدينة لكنها كانت هي بعينها، تضع في سبابتها خاتم الأفعى.

كانت قادمة من نابولي في رحلة على السفينة عينها التي حملت الزوجين نيرودا. غير أنهما لم يتقابلا على المتن وجهاً لوجه. فدعوناها إلى مائدتنا لتشاركنا القهوة ورجوتها أن تحدثنا عن احلامها وفي نيّتي أن تبهر الشاعر. غير أن هذا الأخير أنف من سماعها وأعلن بغتةً أنه لا يؤمن بكهنة الأحلام.

«وحده الشعر ينفذ إلى المجهول». قال.

عقب الفطور، أثناء النزهة التي لا مناص منها على ضفاف الرامبلا Ramblas تخلّفت عامداً، منفرداً بفرو فريدا لنسترجع معاً ذكرياتنا بمنأى عن الفضوليين، فروت لي أنها باعت ممتلكاتها في النمسا وبأنها تعيش معتزلة في البرتغال في منزل وصفته بقصر مزيّف يجثم فوق تلة تشرف على امتداد المحيط حتى لتطاول الأميركيتين Aux Ameriquas ولم تقل لي في ما يخص احلامها كلمة واحدة. لكنه بدا لي جلياً أن الأمر انتهى بها من حلم لآخر. لتستولي على ثروة معلّميها المدهشين في ڤيينا. ولم يفاجئني الأمر كثيراً، ذلك أني كنت دائم التفكير بأن أحلامها ليست سوى حيلة تناور بها العيش لتستمر، حين أفضيت لها بذلك فرقعت قهقهتها المضحكة. «ما تزال على حالك وقحاً». قالت. ثم سكتت عن الكلام لأن الجميع كان قد تباطأ بإنتظار أن ينهي نيرودا رطانته بالتشيلية مع ببغاوات الرمبلا.

حين عدنا نستأنف الحديث غيّرت فرو فريدا الموضوع.

«بالمناسبة، قالت لي، بإمكانك العودة إلى ڤينا».

حينها تنبهت فجأة إلى أن ثلاثة عشر عاماً قد مضت منذ التقينا للمرة الأولى «حتى وإنْ كذبت احلامك، فلن أعود إلى ڤينا ثانية، قلت لها. فمن منا يملك اليقين».

في الثالثة استأذناها بالإنصراف لنرافق نيرودا إلى قيلولته المقدّسة. جعلها لدينا بعد إستعدادات إحتفالية ما كانت لتستكمل من غير طقس الشاي الياباني. كان علينا أن نوصد نوافذ ونشرِّع أخرى، بهدف تلطيف الجو وتوفير نور معين من جهة مُعيَّنة ليسود المكان هدوء مطبق.

غفا نيرودا في الحال، ليستيقظ بعد عشر دقائق كالأطفال تماماً. حين كنا نتوقع الاّ يطول رقاده أكثر من ذلك. ظهر في البهو بكامل أناقته وعلى وجنتيه إنطبع أثر مشبّكات الوسادة.

«حلمت بتلك المرأة التي تحلم». قال.

فرغبت ماتليدا أن يحكي حلمه.

«حلمت بأنها تحلم بي» قال.

ـ هذا من وحي كلام du Borzas. عقّبت قائلاً فتطلع بي مستاءً:

«هل كتب هذا سابقاً؟».

ـ انْ لم يكتبه فلسوف يفعل ذات يوم. وستكون هذه إحدى متاهاته.

في السادسة مساءً، فور صعوده إلى ظهر السفينة استأذننا

نيرودا لينفرد وراء طاولة منعزلة ثم شرع يكتب أبياتاً شعرية شفافة مغمساً ريشته بيراعٍ أخضر ليرسم بها وروداً واسماكاً وطيوراً هي بمثابة إهداءات يقدم بها كتاباته.

حين انطلقت الصفارة الأولى، سعينا نبحث عن فرو فريدا فألقيناها فوق الجسر بفاصل ثوان عن اللحظة التي كنا نتهيأ فيها لنغادر من غير أن نبادرها بتحية الوداع.

«حلمت بالشاعر» قالت لنا.

سألتها وقد أحمتني الدهشة أن تقصَّ علي حلمها، «حلمت بأنه يحلم بي». قالت ثم أضافت وقد أربكها ما لحظته من ذهولي «ماذا دهاك، بين كل هذه الأحلام ثمة حلم قد يمر بين وقت وآخر لا صلة له بالواقع».

ولم أعد أراها ثانية. وعلى نحو ما كان مصيرها ليثير اهتمامي إلى أن علمت بموت المرأة ذات الخاتم الأفعواني في حادث فندق الريڤييرا. عقب الحادث ببضعة أشهر وخلال استقبال ديبلوماسي لم أمسك نفسي حين التقيت بقنصل البرتغال عن إستيضاحه غمض يحدثني عنها بحماس بالغ وبإعجاب لامتناه. «لن تتخيل كم كانت امرأة فذة، قال لي. ما كنت لتقاوم إغراء كتابة قصة حولها» ثم تابع بالنبرة عينها يورد تفاصيل خارقة لم يتح لي أيٌّ منها إستنتاج خلاصة نهائية.

«لكن، نهاية القول، قلت أخيراً ما الذي كانت تقوم به؟ لا شيء، أجابني بلهجة تنُم عن خيبة أمل رقيقة، كانت تحلم».

الشهر الثالث 1980م.

الإتصال الهاتفي أمنيتي

ذات عصر ربيعي ماطر، وكانت في طريق العودة وحيدة إلى برشلونة تقود سيارة مستأجرة، حين توقفت ماريا دو لا لوز سرڤنت Maria de la luz Cervantes في صحراء مونيغرو Monegros لعطل طارىء. كانت مكسيكيَّة في العشرين جميلة، رزينة عرفت لبضع سنوات خلت بعض الشهرة كفنانة منوعات وتزوجت من حاوٍ. أرادت ذاك النهار اللحاق به عقب زيارة قامت بها لذويها في نواحي ساراغوس Saragosse. وكان قد مضى عليها نحو الساعة تومىء بإشارات يائسة لسيارات وشاحنات تمر بها كالإعصار وسط العاصفة إلى أن رأف بحالها سائق حافلة كبيرة خربة. على أنَّه حذرها أنه لا يقصد مكاناً بعيداً.

«لا بأس، قالت ماريا. ما أحتاجه هاتف فقط». ولم تكن كاذبة، ذلك أنه كان عليها أن تخطر زوجها بأنها لن تعود قبل السابعة مساء.

أواسط شهر ابريل. بمعطف الطالبة وبصندلها الصيني بدت

أشبه بعصفور بلّله المطر. وكان الحادث قد كوّرها إلى حدٍ نسيت معه مفاتيح السيارة في الداخل.

برفقة السائق على المقعد الأمامي كانت تجلس امرأة بلباس عسكري لكنها لطيفة المبادرة. ناولتها فوطة ودثاراً ثم افسحت لها مكاناً إلى جانبها. فلبست ماريا بعد أن جففّت بللها جزئياً وتدثرت بالغطاء. وأمسكت بسيجارة حاولت إشعالها لكن أعواد الثقاب كانت مبلّلة، فقدمت لها جارتها ناراً والتمست منها سيجارة لم يصبها البلل. وفيما أخذت بالتدخين أرخت ماريا العنان لنفسها ومضت تستفيض بالكلام بصوت طغى على صوت المطر وقرقعة الحافلة فقاطعتها المرأة وقد وضعت أصبعها فوق شفتيها تشير لها بالصمت.

«انهنّ نائمات» وشوشتها.

فإلتفتت ماريا إلى الخلف لترى الحافلة تعجّ بنساء من أعمار مختلفة ومن فئات متفاوتة. كنّ يخلدن للنوم وقد تدثّرن بأغطية تشبه غطاءها. تجمعت ماريا في مقعدها وقد غلب عليها سكونهن وأغفت على وقع زخّات المطر. حين استيقظت كان الليل قد هبط والوابل قد تحول إلى طلّ جليدي. ولم يكن لديها أدنى فكرة عما فات من الوقت خلال رقادها. ولا عن اسم المكان الذي توجد فيه، وكانت جارتها تتولى القيادة.

«أين نحن؟ سألت ماريا.
ـ لقد وصلنا» أجابت المرأة.

ودلفت الحافلة إلى فناء مبلّط لبناء ضخم يشبه ديراً قديماً ويقوم وسط غيضة من الأشجار العملاقة، فيما مكثت النسوة في عتمة الحافلة ساكنات لا يبلغهنّ ضوء المصباح في الفناء إلى أن أمرتهن المرأة ذات اللباس العسكري بالترجّل بخشونة كما لو كانت تخاطب أطفالاً في دار للحضانة، بدَوْنَ جميعاً من عمر غير محدّد، وكنَّ يتقدمن ببطء كأنهن أطياف أحلام. فخطرَ لماريا وكانت آخر من ترجّل من الحافلة انهنّ، راهبات لكنها سرعان ما كذبت ظنها حين تبينت نساءً عدّة بلباس عسكري موحّد كنَّ بالانتظار أمام الحافلة وسارعن إلى تغطية رؤوس النسوة كيلا يتبلّلن ثم أمرتهن بالتراصف وشرعن يصدرن لهنّ أوامر خرساء بإيقاع موزون توقعه أكفهن.

استأذنت ماريا جارتها بالانصراف وأرادت أن تردّ لها الدثار، غير أن هذه الأخيرة نصحتها بأن تقي به رأسها لتجتاز الفناء على أن تعيده للبواب لاحقاً.

«هل أجد هاتفاً هنا؟ سألتها ماريا:

ـ بالطبع. أجابت المرأة. سيرافقونك إليه. والتمست سيجارة أخرى فوهبتها ماريا العلبة بما تبقى فيها من سجائر مُبلَّلة «سوف تجفُّ خلال الطريق» قالت.

فوق مرقاة الحافلة وقفت المرأة تلوّح لماريا بيدها إشارة الوداع وتصيح متمنية لها «حظاً موفقاً» حين إنطلقت الحافلة مسرعة دون أن تدع لها مجالاً لتضيف كلمة أخرى.

هرولت ماريا بإتجاه مدخل البناء. فتصدَّت لها في البداية إحدى الحارسات وحاولت إيقافها؛ بالتصفيق بيديها. ثم صاحت بها آمرة: «قفي. قلت لك توقّفي». تطلّعت ماريا من تحت الغطاء فأصطدمت بعينين جليديتين وسبابة صلفة تشير لها بالتراصف في الصف فانصاعت مطيعة. في الرواق عادت تنفصل عن النسوة لتسأل البواب أين يمكنها العثور على هاتف. لكن حارسةً أخرى دفعتها إلى الصف مربِّتةً على كتفيها برفق ثم قالت تخاطبها بعذوبة.

«من هنا يا حلوتي. الهاتف من هنا».

إجتازت ماريا مع بقية النساء الرواق المعتم ثم ولجت إلى عنبر النوم حيث انهمكت المشرفات بجمع الأغطية وشرعن بتعيين الأسرَّة. فيما انصرفت امرأة بدت لماريا ودودة مختلفة وأعلى مقاماً من الأخريات تراقب الصف وتقارن لائحة تحملها بالأسماء المكتوبة على كرتون خيط فوق صدور المنتسبات الجدد. حين بلغ الدور ماريا أدهشها أنها لا تحمل أية إشارة تُنبىء بهويتها «أتيت لأتَّصل هاتفياً» قالت لها ماريا.

ثم أوضحت لها بإيجاز كيف تعطَّلت سيارتها في الطريق وأن زوجها يعمل حاوياً ويُمثّل في الحفلات الخاصة. وبأنه ينتظرها في برشلونة حيث التزما بثلاث حفلات مسائية وبأنها تريد إخطار زوجها بأنها لن تصل في الموعد المحدد لمرافقته وأن الساعة قد تجاوزت السابعة ولا بُدَّ أنه يتأهب لمغادرة المنزل وتخشى أن يلغي كل شيء من جراء تأخُّرها. وكانت المُشرفة تُصغي إليها بإهتمام.

«ما اسمك»؟ سألتها.

ذكرت ماريا اسمها وتنهدت بإرتياح فيما عادت المرأة تقرأ وتعيد قراءة اللائحة من غير أن تعثر على أي أثر للإسم. فاستعلمت قلقة من مشرفة أخرى فهزَّت هذه الأخيرة كتفيها دلالة عدم المعرفة.
«لكني أتيت فقط بهدف الإتصال تلفونياً»، كرَّرت ماريا بإصرار.

حسناً يا حلوتي حسناً، قالت الأعلى مقاماً ثم دفعتها بإتجاه سريرها برقة بدت مفتعلة لفرط علنيّتها.

«إن أبديت تعقُّلاً يمكنك الإتصال بمن تشائين لكن غداً وليس الآن».

حينها مرَّ في ذهن ماريا خاطر مباغت جعلها تدرك لما كانت نساء الحافلة يتقدَّمن ببطء كما لو كنَّ داخل حوض للمائيات. وأنهن لا بُدَّ قد أعطين مهدئاً، وأن ذاك القصر المعتم بجدرانه السميكة المقدودة من الصخر وسلالمه الجليديّة ليس في الواقع سوى مستشفى للأمراض العقلية. فإنفلتت من الرواق هاربة وقد استبدَّ بها الذعر. غير أن حارسة بثياب زرقاء كثياب الميكانيكي أوقفتها قبل أن تبلغ الباب بلطمة بارعة ثم ركَّزتها على الأرض بقبضة جبَّارة فنظرت إليها ماريا جانبيًا وقد شلَّها الخوف.

«حباً بالله قالت، أقسم برأس أمي أني لم آتِ إلاَّ لأتَّصل هاتفياً».

وكان يكفيها أن تلمح سحنة تلك المومسة بثياب العمل الزرقاء

التي أُطلق عليها اسم هيركولينا تيمُّناً بقوتها الخارقة حتى تدرك أن لا جدوى من توسُّلاتها، وكانت موكلة بالحالات المستعصية وقد قضت على إثنتين من المنزويات خنقاً بيدها الشبيهة بيد دبّ قطبي والمدرَّبة على التقل سهواً. وفيما تمَّ إثبات الوفاة في الحالة الأولى على أنها نتيجة لحادث عارض، إشتُبِهَ بالوقائع في الحالة الثانية فعوقبت هيروكولينا وحُذِّرت إن تكرّر الأمر أن تُحال إلى تحقيق صارم. إلاَّ أن الخبر شاع بأن تلك الشاة الضالة المنتمية إلى عائلة شهيرة كانت قد خلَّفت وراءها سلسلة من الحوادث الملتبسة في العديد من مستشفيات الأمراض العقلية في إسبانيا.

في الليلة الأولى كان يجدر حقن ماريا بالمُخدِّر لدفعها إلى النوم. وحين أيقظتها الرغبة بالتدخين عند طلوع الفجر ألفت نفسها مُقيّدة الرسغين وموثَّقة بقضبان السرير. ولم يستجب أحدٌ لها حين أخذت بالصراخ. صبيحة ذلك اليوم، وفي الوقت الذي لم يعثر فيه زوجها على أي أثر لها في برشلونة تم اقتياد ماريا إلى غرفة التمريض بحجة أنهم عثروا عليها فاقدة الرشد عائمة في حمأة برازها.

لم تكن تعلم كم فات من الوقت حين عاد إليها رشدها. وكان العالم يتراءى لها فردوساً من الحب. أسفل سريرها لمحت كهلاً مدهشاً أخمصي الخطوة، لطيف الإبتسامة، أعاد إليها في غضون لحظة بهجة الحياة من جديد. كان ذاك مدير المستشفى.

على الفور، قبل أن تستوضحه شيئاً أو حتى أن تحيِّيه إلتمست

منه ماريا سيجارة فمد لها يده بولاعة ووهبها علبة سجائر كاملة تقريباً فلم تتمالك ماريا نفسها وأجهشت بالبكاء.

«هيا إبكي قدر ما تشائين، قال الطبيب يخفِّف عنها بصوت رقيق. ليس ثمة علاج شاف كالدموع».

وإندفعت ماريا تبوح بمكنوناتها من غير تهيُّب كما لم تفعل يوماً مع واحد من عشاقها في المساءات، حين يصيبها الخمول بعد فعل الحب. وفيما كان يصغي إليها بكلّيته مضى الطبيب يداعب خصلات شعرها ويطبطب على وسادتها لكي يستقيم تنفُّسها. وكان يقبلها حين تتعثر بألغاز حيرتها بحكمة ورقة ما كانت لتحلم بمثلهما قط. ولأول مرة في حياتها تحدث المعجزة ويحتويها رجل يصغي إليها بكل جوارحه من غير أن يأمل مقابل ذلك بمضاجعتها. وبعد أن أفرغت كل ما لديها طوال ساعة بكاملها سألته أن يأذن لها بالإتصال بزوجها.

هب الطبيب واقفاً بكل جلال مقامه «ليس بعد يا مليكتي». قال وهو يربّت على خدها برقة ما حظيت بمثلها من قبل. لكل شيء «أوان». أمام الباب بعث إليها ببركته الرسوليّة قبل أن يتوارى إلى الأبد. «ثقي بي» قال لها.

في مساء اليوم عينه تمَّ تسجيل ماريا في المأوى تحت رقم ألحق به تقرير مختصر حول الغموض الذي اكتنف مجيئها والشكوك المتعلقة بهويتها. على الحاشية كان بوسعنا قراءة تلك الصفة التي

كتبها مدير المستشفى بخط يده «هائجة».

وفق ما توقعته ماريا. غادر زوجها شقتهما المتواضعة في حي الهورتا Horta متأخراً عن موعده نصف ساعة ليقدّم العروض الثلاثة المتّفق عليها. وكانت هي المرة الأولى التي تُخلف فيها موعداً خلال عامين من الزواج الحرّ والإنسجام الكامل. فعزا تأخرها إلى شراسة المطر الذي استمر يهطل مدراراً في الريف طيلة نهاية الأسبوع.

قبل انصرافه علّق بالباب رسالة ضمّنها بياناً بالعروض المسائية.

خلال الحفلة الأولى حيث تنكر جميع الأطفال بهيئة الكنغارو، صرف النظر عن عرضه المذهل حول الأسماك الخفيّة، ذلك أنه كان يستحيل عليه القيام به إن لم ترافقه ماريا. وأُقيمت الحفلة الثانية في منزل عجوز مُسنّة في الثالثة والتسعين. مقعدة تتنقّل على كرسي بعجلات. كانت تتباهى بأنها احتفلت بأعياد ميلادها الثلاثين الأخيرة بحضور ثلاثين ساحراً مستدعيةً في كل مرة ساحراً جديداً. كان مغتاظاً للغاية لغياب ماريا فلم يسعه التركيز على أبسط أدواره أداءً. وكما في كل مساء جرت الحفلة الثالثة في مقهى مسرحي café théatre من مقاهي الرامبلا ومثلت من غير مهارة أمام جمهور من السواح الفرنسيين الذين لم يشدهم ما تضمنه العرض لأنهم ما كانوا يؤمنون بأمور السحر. وحرص على الإتصال بمنزله عقب انتهاء كل عرض من عروضه آملاً في كل مرة أن تجيب. وأصابه اليأس أخيراً ولم يعد بوسعه النجاة مما اعتراه من هواجس خشية أن تكون قد أُصيبت بمكروه.

حين عاد إلى منزله في شاحنته الصغيرة المجهَّزة بألهياته المسرحيّة، تراءى له بهاء الربيع فوق نخيل البازيو دو غراسيا.

وانتابته الرعدة لهاجس مشؤوم صوّر له المدينة وقد خلت نهائياً من ماريا. وتلاشى آخر أمل له حين ألفى الرسالة ما تزال مُعلَّقة بالباب. بدا متكدراً للغاية حتى أنه غفل عن إطعام الهر.

ـ لم أدرك سوى الآن وعند كتابة هذه السطور بأني ما عرفت قط إسمه الحقيقي، ذلك أنه إشتُهِر في برشلونه باسمه المسرحي: ساتورنو الساحر Saturno. كان رجلاً متقلب المزاج، أرعن إجتماعي. يصعب تقويمه. في المقابل ملكت ماريا ما كان يفتقر إليه من رقَّة وحصافة. وكانت هي من يوجّهه ويرشده وسط تلك الجماعة المفرطة في غرابتها حيث ما كان ليخطر على بال أحد أن يتصل هاتفياً وقد تجاوز الوقت منتصف الليل بصديق له ليسأله إنْ كان على علم بمكان زوجته. في الأيام الأولى لمجيئهما فعل ساتورنو ذلك وكان يؤثر ألاّ يعود لتذكّر الحادثة، بحيث لجأ تلك الليلة للإتصال بساراغوسه. فأجابته الجدَّة بنبرة هادئة وهي تغالب نُعاسها أن ماريا رحلت بعد الفطور.

جفاه النوم، فلم يغفُ سوى لساعة من الزمن مع طلوع الفجر، وتراءت له ماريا في حلم كريه بثوب عرس ممزَّق وملطخ بالدم فاستيقظ مرعوباً يملأه يقين راسخ بأنها تركته ثانية وإلى الأبد وحيداً في قبضة ذاك العالم الرحب الذي ما عادت من كائناته.

خلال السنوات الخمس الأخيرة أقدمت ماريا ثلاث مرات على تصرُّف مماثل حيال ثلاثة رجال عرفتهم قبله. وعلى هذا النحو هجرته في مكسيكو عقب لقائهما بستة أشهر فيما كانا مُثقلين بالسعادة تحت سطوة حب مجنون في غرفة الخادمة في منزل كولونيا أنزورس de la Colonia Anzures. فبعد ليل من الفحش الشائن إستيقظ ذاك الصباح ولم يجدها إلى جانبه. وكانت قد تركت له كل ما تملك حتى خاتم زواجها السابق. كذلك رسالة تُصارحه فيها بعجزها عن احتمال عذابات حبهما الجامح. وتصور ساتورنو أنها عادت إلى زوجها الأول وهو زميل قديم لها عرفته أيام الدراسة وتزوجت منه في الخفاء لأنها لم تكن قد بلغت سن الرشد بعد. ثم تخلَّت عنه لترتبط برجل آخر بعد زواج تمّ من دون حب ودام عامين. لكنها لم تفعل، فقد عادت إلى منزل ذويها حيث لحق بها ساتورنو ليردَّها إليه بأي ثمن. توسَّل إليها من غير حدود وعاهدها أن يبذل لها أضعاف ما سبق له أن فعل بألف مرة. لكنه اصطدم بقرارها الصلب «ثمة حب يدوم وآخر لا يدوم». قالت له ثم عقَّبت بقسوة «حبنا هذا لم يدم». وسلَّم ساتورنو بقرارها. على أنه وجدها ذات صباح من صباحات عيد جميع القديسين، وكان يهمُّ بدخول غرفته اليتيمة من دونها، بعد عام من النسيان أو التناسي، نائمة على أريكة البهو بأكليل من زهور البرتقال وبثوب كأثواب العرائس العذارى يرفل بذيل خفيف وطويل.

وصارحته ماريا بالحقيقة. فقد خذلها خطيبها الجديد وهو

أرمل لم يرزق بأطفال وينعم بمركز مرموق. أكَّد لها استعداده للزواج منها كنسيًا لمدى العمر. لكنه تخلَّف عن الحضور فيما كانت بانتظاره أمام المذبح في ثوب العرس. وقد أصرَّ أهلها على إحياء حفل الزواج على الرغم من غيابه فامتثلت ولعبت دورها.

وشاركت المارياشي Mariachie الرقص والغناء وشربت أكثر مما ينبغي ثم انصرفت عند منتصف الليل للبحث عن ساتورنو يتآكلها ندم فظيع كان قد فات أوانه.

لم يكن في المنزل لكنها عثرت على المفتاح داخل أصيص الورود في الرواق. في المكان نفسه الذي اعتادا إخفاءه فيه. هذه المرة كانت هي الطرف الذي عاد من غير قيد أو شرط «هل لي أن أعلم إلى متى؟» سألها فأجابت ببيت من الشعر لـ ڤينيسيوس دو مورايس Vinicius de Moraes «الحب سرمدي بقدر ما يدوم». عقب ذلك بعامين أصبح حبهما سرمدياً إلى الأبد.

تحولت ماريا لتغدو أكثر نضجاً، وتخلَّت عن أحلام الممثلة لتتفرَّغ له في السرير كما في المسرح. في أواخر العام التالي وكانا قد اشتركا في مؤتمر للحواة في بيربنبيون Perpipneon مرًّا على طريق العودة ببرشلونة فراقت لهما المدينة وعزما على السكن فيها. مضى عليهما ثمانية أشهر تمكَّنا خلالها بما كسباه من المال من إبتياع مسكن فوضوي لا يحرسه بواب لكنه فسيح ويتسع لخمسة أطفال. في حي من أحياء الهورتا Horta غالبية سكانه من الكاتالانيين حيث نعما بالسعادة إلى أن حلت عطلة نهاية ذاك الأسبوع يوم استأجرت

ماريا السيارة لتقوم بزيارة ذويها في ساراغوس متعهدةً بالعودة نهار الإثنين في السابعة مساءً لكن مصيرها كان ما يزال مجهولاً حتى فجر الخميس.

نهار الإثنين الذي تلا إتصلت شركة تأمين السيارة المستأجرة تطلب ماريا «لست على علم بشيء قال ساتورنو. إبحثوا عنها في ساراغوسنة». ثم أقفل السماعة. بعد ذلك بأسبوع زاره في المنزل شرطي بلباس مدنيّ وصارحه بأنهم عثروا على السيارة حطاماً على طريق جانبية بالقرب من كاديكس Cadix على بعد تسعمائة كيلومتر من المكان الذي كانت ماريا قد غادرتها فيه. وقد شاء الشرطي أن يعلم إنْ كان بوسع ماريا الإدلاء بأية معلومات حول تلك السرقة. كان ساتورنو يهمُّ بإطعام الهر فلم يعره التفاتاً واكتفى بأن قال له بفظاظة إنه يهدر وقته سدىً فزوجته قد غادرت منزلها الزوجي وهو لا يعلم شيئاً على الإطلاق عن وجهتها ولا بصحبة من هي. وبدا تبريره مقنعاً بحيث أحس الشرطي بالضيق وأعرب له عن أسفه. وهكذا طوي ملف القضية.

كان الخوف من أن تلجأ ماريا للإختفاء ثانية قد استحوذ على ساتورنو خلال عطلة الأسبوع في عيد الأضحى حين دعتهما روزا ريخاس Rosa Rejas إلى Cadaqués كاداكيس للقيام بنزهة في مركب شراعي وكنا في الماريتيم Maritim وهو بار قذر ومكتظ يرتاده اليسارالإلهي[1] La Gauche divine في زمن إنحطاط الفرنكوية

(1) هكذا وردت في النص الفرنسي.

(يتعلق بفرنكو). نجلس على مقاعد حديدية أمام طاولة حديدية تتّسع عادة لستة أشخاص ويجلس عليها غالباً عشرون. وكانت ماريا قد أنهت تدخين علبتها الثانية لذاك النهار وتحتاج إلى أعواد ثقاب. وسط جلبة الطاولة إمتدت ذراع نحيلة مكسوة بزغب رجولي يزنرها سوار من البرونز الروماني لتشعل لماريا لفافتها. فشكرته دون أن تلتفت إليه. لكن ساتورنو الساحر رآه. كان مراقصاً ضامر الوجه أمرد، شاحب كالأموات يعقص شعره الفاحم الطويل حتى ليبلغ قطمه على طريقة ذنب الخيل. وكانت ريح الشمال الربيعية تعصف هائجة بزجاج النوافذ لكنه كان يلبس سروالاً مدنياً خفيفاً وفضفاضاً صنعَ من نسيج مُحبّك، وينتعل حذاء فلّاح. لم يلمحاه ثانية إلاّ أواخر الخريف في مطعم مختصّ بثمار البحر في برشلونة. يرتدي الرداء عينه الهندي الرخيص ويعقد شعره ضفيرة طويلة عوضاً عن ذنب الخيل. حياهما معاً كصديقين حميمين وعانق ماريا فبادلته العناق. حينها صعق ساتورنو وتيقّن من أنهما قد تقابلا خفية عنه من قبل. عقب ذلك ببضعة أيام عثر صدفة في مفكرة المنزل على اسم جديد ورقم هاتف جديد كتبا بخط يد ماريا، وألهمته غيرته الفاضحة التي لا ترحم من يكون صاحب الإسم والرقم. لكنه تلقى الضربة القاضية حين اطلع على سيرة الدخيل الإجتماعية: في الثانية والعشرين من العمر. هو الإبن الوحيد لعائلة ميسورة. يعمل في تصميم الواجهات العصرية. ذاع صيته كمخنّث وعُرف عنه حظوته الثابتة لدى النساء المتزوجات اللواتي كان يرفّه عنهنّ. على أن

ساتورنو تمكّن من السيطرة على إنفعالاته وظلّ متماسكاً حتى ذاك المساء الذي لم تعد فيه ماريا إلى المنزل.

في البداية داوم على الإتصال بالشاب يومياً مرة كل ساعتين أو ثلاث ساعات. من السادسة صباحاً وحتى صباح اليوم الذي يليه. ثم أخذ يُكرّر إتصالاته كلّما سنحت له فرصة الوقوع على هاتف. وقد تفاقم عذابه حين لم يجبه أحدٌ. وفي اليوم الرابع ردّت على إتصاله امرأة أندلسية أوضحت له أنها الخادمة الموكلة بتنظيف المنزل ثم أضافت «إن السيد قد غادر المنزل». بغموض أثار جنونه ولم يقاوم ساتورنو اغراء المحاولة فسألها إن كانت الآنسة ماريا صدفة في المنزل.

ـ ليس ثمّة أحد يسكن هنا بهذا الإسم إلا السيد. أجابت الخادمة. فسيدي شاب أعزب».

ـ أعرف هذا تماماً. قال: إنها لا تسكن هناك بل تتردّد على المنزل أحياناً أليس كذلك؟». فثارت ثائرة المرأة.

«تباً للشيطان. لكن من يتكلّم».

فأقفل ساتورنو السماعة وقد بدا له تبرُّم الخادمة إثباتاً إضافياً لما بات بالنسبة له يقيناً كاوياً وليس مجرد شكٌ مما أفقده السيطرة على نفسه تماماً. في الأيام اللاحقة لجأ وفقاً للحروف الأبجدية إلى الإتصال بكل من يمتّ له بصلة معرفة في برشلونة فلم يفده أحدٌ بجواب. في المقابل كان كل إتصال جديد يضاعف تعاسته. ذلك أن

غيرته الجامحة باتت ذائعة الصيت في أوساط المتسرنمين المحنكين من اليسارالإلهي Gauche divine. وباتوا يردون على إتصالاته بدعابات من كافة الأنواع يدفعهم إلى ذلك الرغبة فقط بإيلامه. حينئذاك أدرك مدى وحدته في تلك المدينة المتغطرسة، المتقلّبة الأطوار والغامضة حيث لن يحظى أبداً بالسعادة. عند الفجر وبعد أن قدم طعاماً للهر أوصد أبواب قلبه كيلا يموت واتخذ قراره بنسيان ماريا.

مضى على ماريا شهر، لم تألف خلالهما حياة المستشفى. وكانت تقتات بمشقة فائقة بالقليل من طعام السجن مستعينة على ذلك بشوكة وملعقة وسكين من تلك المعقودة بالمائدة الضخمة المنحوتة من الخشب الطبيعي فيما قُدَّت مطبوعة حجرية للجنرال فرانكو تصدَّرت قاعة الطعام القوطية الكئيبة. في البداية امتنعت عن المشاركة في ساعات الصلاة اليومية، وبالتقليد الأخرق لصلاة السحر وبالتسابيح الصباحية وبصلاة الستّار وبقيّة الفروض التي كانت تستغرق معظم ساعات اليوم. كذلك أبت اللعب بالكرة في قاعة اللهو، والعمل في محترف الورود الإصطناعية الذي نشط بهمة الجهود الجبارة التي بذلتها مجموعة من المنزويات.

غير أنها بدأت تتكيف تدريجياً مع حياة الدير بعد الأسبوع الثالث. في كافة الأحوال كان الأطباء يؤكدون أن الأمور تبدأ دائماً على هذا النحو، لكنها سرعان ما تتحول عاجلاً أم آجلاً لصالح التأقلم مع الجماعة.

في الأيام الأولى عالجت إدمانها على التدخين بفضل حارسة كانت تبيعها السجائر بثمن باهظ يوازي ثمن الذهب. لكنها عادت تعاني من الهياج بعد أن نفد منها المبلغ الزهيد الذي كان بحوزتها. ثم لجأت لاحقاً إلى تدخين سجائر ملفوفة بورق الصحف. كانت المنزويات يصنعنها من أعقاب السجائر المرمية في القمامة، ذلك أن ولعها بالتدخين تضاعف حتى طغى عندها على هاجس الهاتف. وقد ساعدت البيزيتات القليلة التي حصلت عليها مقابل عملها في محترف الزهور الإصطناعية على تسكين هياجها موقتاً.

كانت العزلة ليلاً أشدّ عذاباتها إيلاماً حيث يستبدُّ بها الأرق مثلها مثل المنزويات اللواتي كنَّ يبقين مسهَّدات في القمة لا يجرؤن على الإتيان بأية حركة خوفاً من الحارسة الليلية التي كانت تلازم الباب الموصد بسلسلة أُغلقت بالقفل. على أنها ذات ليلة وقد غمرتها الكآبة سألت بصوت جعلته عالياً ليصل إلى جارتها في السرير الملاصق.

«أين نحن؟».

فأجابت جارتها بصوت خفيض واضح.

«في أعماق الجحيم».

ـ يُقال إنها أرض البرابرة (Maures) هتف صوت آخر من سرير آخر، فرنَّ صداه في أرجاء عنبر النوم. لا شك عندي بتلك الحقيقة. لأن نباح الكلاب وهي تعوي بإتجاه البحر يبلغ مسامعنا حين يكتمل البدر خلال أشهر الصيف».

في تلك اللحظة سُمع لصوت السلسلة تطرق الحلقات قرقعة شبيهة بتلك التي تُحدثها مرساة سفينة شراعية حربية. ثم فُتح الباب. وشرعت الحارسة الشرسة وقد بدت الكائن الوحيد الحي وسط ذاك السكون المحدق. تذرع عنبر النوم جيئة وذهابا فإرتعدت ماريا ووحدها كانت تدرك السبب.

فمنذ أسبوعها الأول في المستشفى اقترحت عليها الحارسة الليلية ومن دون مواربة أن تنام برفقتها في غرفة الحراسة. واعتمدت في البداية نهجاً تجارياً واضحاً: أن تبادلها الحب مقابل السجائر أو الشوكولا أو أي شيء آخر «سيكون لك ما تشائين قالت لها متهدِّجة الأنفاس وستحظين بمقام ملكة». وحيال تمنُّع ماريا انتهجت الحارسة أسلوباً مغايراً وأخذت تدسُّ لها رسائل حب تحت وسادتها أو في جيب سترتها وفي أماكن لم تكن ماريا تتوقَّعها. وكانت رسائلها ضارعة مؤثرة خليقة بأن تحرك الإحساس حتى في الجماد. ليلة الحادثة في العنبر كان قد مضى نحو شهر أو يزيد على خيبتها ولم يبدر منها خلاله ما يشير بغير الإستسلام لهزيمتها. بعد أن تأكدت أن الجميع نيام اقتربت الحارسة من سرير ماريا وهمست لها بأرق كلمات الفحش فيما أخذت تزرع بالقبلات وجهها وعنقها المتصلِّب من الرعب وذراعيها المتشنجتين وساقيها المتعبتين. أخيراً وقد ملكها الظنُّ ربما إلى أن ما يشلُّ ماريا ليس الخوف بل هو الرضا الكامن مضت تطلب المزيد. عند ذاك وجهت لها ماريا بظاهر كفِّها لطمة عنيفة قذفت بها إلى السرير الملاصق. نهضت الحارسة هائجة وسط

لغط المنزويات المذعورات «أيتها المومس. سوف يتعفّن كلانا في زريبة الخنازير هذه إلى حين تقعين في غرامي».

في أول آحاد شهر يونيو حلَّ الصيف بغتةً من دون أية دلائل تُنذر بحلوله. وكان لا بُدَّ من إتخاذ تدابير احترازية طارئة. ذلك أن المنزويات وقد ضاقت أنفاسهن من الحر خلفن أثوابهن الكنسيّة المحبوكة من نسيج رقيق أثناء قيام القداس تابعت ماريا المشهد ضاحكة وألهتها رؤية الحارسات يُطاردن المنزويات وقد بانت أكتافهن عارية يتراكضن كدجاجات حمقاء في أجنحة الكنيسة وفي الممرات الجانبيّة. ووسط الفوضى السائدة حاولت تفادي الضربات العشوائيّة Coups.

ثم من غير أن تعي كيف تم ذلك ألفت نفسها وحيدة في مكتب خالٍ حيث كان ثمة هاتف يرن من دون إنقطاع بإيقاع يُشبه الإسترحام. فرفعت ماريا السماعة وأصغت لصوت مرح وبعيد كان يلهو بتقليد الساعة الناطقة «خمس وأربعون ساعة وأثنان وتسعون دقيقة وسبعمائة ثانية».

- لوطي. قالت ماريا. ثم أقفلت السماعة باسمة وتأهبت لمغادرة الحجرة حين تنبّهت فجأة أنها توشك أن تفلت من يدها فرصة ذهبية قد لا تُتاح لها ثانية. فطلبت الأرقام الستة بلهفة وعلى عجل حتى أنها لم تثق تماماً إن كانت قد أصابت الرقم المشنود وانتظرت خافقة القلب خشية أن ينقطع الإتصال. وغمرها شعور بالكآبة والشوق حين سمعت الرنين المألوف مرة، مرتين، ثلاث. ثم

صوت رجل أحلامها يجيبها من منزلها وبعيداً عنها. «آلو».

انتظرت حتى انحلّت عقدة الدمع التي غصت بها حنجرتها «حبي. حياتي» تنهّدت قائلة. ثم استسلمت للنحيب. على الطرف الآخر ساد لبرهة صمت مخيف قبل أن يطلق الصوت الغاضب الذي أهاجته الغيرة شتيمة «عاهرة، قذرة!». وأقفل الخط.

مساء اليوم نفسه انتابت ماريا نوبة هذيان جنونيّة، فاقتلعت مطبوعة الجنرال الحجرية من جوار قاعة الطعام وقذفت بها بكل ما أوتيت من قوة بإتجاه زجاج النافذة التي تُطلُّ على الحديقة ثم انهارت مضرجة بالدماء. وبما تبقى لها من القوة عاركت هائجة الحارسات حين حاولن عبثاً الإمساك بها إلى أن رأت هيركولينا تقف معقودة الذراعين أمام فرجة الباب تنظر إليها. حينها انفجرت بالبكاء. وعلى الرغم من هذا جرَّتها الحارسات إلى جناح المجنونات الخطيرات حيث عرَّضنها لمنفث المياه الباردة وحقنَّ ساقيها بالتربونتين.

أدركت ماريا وقد أقعدها الإلتهاب المتوالي في ساقيها عن السير إذْ ليس ثمّة حيلة في العالم تتورع عن إختلاقها في سبيل خلاصها من ذاك الجحيم.

في الأسبوع الذي تلا عودتها إلى عنبر النوم نهضت ماريا ذات ليلة على أطراف أصابعها وطرقت باب الزنزانة حيث تنام الحارسة الليلية. واشترطت ماريا الثمن مقدماً. أن يتمّ إيصال رسالة إلى زوجها. فوافقت الحارسة بشرط أن يبقى سرُّ اتفاقهما طي الكتمان.

ثم هدَّدتها وهي تصوب نحوها سبابة شرسة:

«إن إفتُضح الأمر ستصبحين في عداد الأموات».

وهكذا توجَّه ساتورنو في الأسبوع التالي إلى مستشفى المجنونات في شاحنة السيرك الصغيرة التي زيَّنها بالشرائط إحتفاءً بعودة ماريا. إستقبله مدير المستشفى شخصياً في مكتبه النظيف والمنظم كسفينة حربيّة ثم أفاده بكشفٍ عطوفٍ يبيّن الوضع الصحي الذي تعاني منه زوجته، موضحاً بأنه لا علم لأحدٍ بكيف ومتى ومن أين أتت، ذلك أن الإفادة الأولى حول إحتجازها اختصرها التقرير المدوَّن على السجل الرسمي الذي كانت قد أملته بنفسها بعد خضوعها للمعاينة. ولم يؤد التحقيق الذي أجري في اليوم عينه إلى أي جديد على الإطلاق. على أن ما كان يقلق المدير أكثر من أي شيء آخر هو معرفة الكيفية التي تم لساتورنو من خلالها العثور على مكان زوجته. وردَّ ساتورنو ليبعد الشبهات عن الحارسة:

«عبر شركة التأمين التي أجَّرت ماريا السيارة». فعلَّق المدير وقد اكتفى بالرّد «أجهل كيف تتوصل شركات التأمين للكشف عن كافة المعلومات».

ثم خلص قائلاً وهو ينعم النظر في الملف الموجود فوق مكتبه الفقير: «مما لا ريب فيه أنها مريضة للغاية».

وأبدى إستعداده لمنحه مع إتخاذ الإجراءات الضرورية الإذن بمقابلتها شريطة أن يعده ساتورنو الساحر حفاظاً على سلامة زوجته

بإلتزام السلوك الذي سوف يمليه عليه لا سيما في ما يتعلق بكيفية التعامل معها تفادياً لتعرضها ثانية لنوبات جنون حادة كتلك التي تكرّرت مؤخراً وباتت تُشكّل خطراً.

«أمر مستهجن، قال ساتورنو. كانت دائماً حادة الطباع لكنها تمتعت دوماً بسيطرة كاملة على نفسها». فأتى الطبيب بحركة تنمُّ عن المعرفة. «تبقى بعض التصرفات كامنة لسنوات عديدة. قال: ثم تتفلّت فجأة ودفعة واحدة. لحسن الحظ أنها نزلت في مستشفانا فهو مختصٌ في الحالات التي تستدعي العلاج بالصدمة».

وانتهى من ذلك إلى التنويه بما يستبد بماريا من هاجس غريب يتعلّق بالهاتف.

«راقبها عن كثب» قال.

ـ لا تخش شيئاً يا دكتور. أجاب ساتورنو بنبرة مرحة. لا أحسن شيئاً خلاف ذلك.

بدت ردهة الإستقبال وهي من مخلّفات الدير القديم مزيجاً يجمع بين السجن وكرسي الإعتراف. ولم يحدث دخول ساتورنو ذاك القدر من البهجة الذي كان يتوقّعه كلاهما. وقفت ماريا وسط الردهة وبالقرب منها طاولة صغيرة فوقها إناء يخلو من الورود، وكرسيّان. وكانت ترتدي معطفاً رديئاً بلون الفراولة وحذاء قذراً منحها إياه أحدهم بدافع الإشفاق. كان جلياً أنها استعدت للرحيل. وفي ركن يكاد لا يُرى إنزوت هيركولينا معقودة الذراعين. لم تتحرك

ماريا حين رأت زوجها يدخل القاعة، كذلك لم ينمّ وجهها المشطَّب بالندبات التي خلَّفتها شظايا الزجاج عن أي إنفعال. ولم يختلف عناقهما عن أي عناق تقليدي. «كيف حالك» قال لها.

ـ سعيدة لقدومك أخيراً يا أرنبي Mon Lapin. قالت. فالحياة هنا أشبه بالموت».

ولم يتسنَّ لهما الوقت للجلوس فقد أجهشت ماريا بالبكاء ومضت تشكو له مآسي احتجازها في الدير ووحشية الحارسات، ورداءة الطعام العفن أو ليالي الأرق الطويلة التي أمضتها مسهدة يقضُّ الرعب مضجعها «لست أدري كم فاتني من الأيام أو الشهور أو السنوات وأنا في هذا الجحيم. قالت. كل ما أعرفه أن كل يوم مضى كان أسوأ من سابقه. ثم تنهدت بعمق وأضافت: أعتقد بأنني لن أعود أنا ذاتي وكعهدي سابقاً.

ـ انتهى الأمر الآن. قال وهو يداعب بأطراف أصابعه ندبات وجهها الحديثة العهد. سآتي كل سبت. بل حتى خلال أيام الأسبوع إن أذن المدير لي بذلك. وسترين بأن الأمور ستسير على ما يرام.

حدّقت في عينيه مباشرة بعينيها المذعورتين فلجأ ساتورنو إلى ألاعيب الساحر فرتل لها بنبرة صبيانية حمقاء ترجمة ملطَّفة لما كان قد شخَّصه له الطبيب ثم انتهى إلى القول.

«عموماً، ستبرئين في غضون أيام قليلة. عندئذٍ أدركت ماريا ما يجري.

ـ يا إلهي صاحت مبهوتة، لن تصدّق أنت أيضاً أني مجنونة!

ـ كيف يسعك التفكير بأمر مماثل. قال وهو يغتصب ابتسامة كاذبة. لكن من الأوفق لنا جميعاً أن تمكثي هنا قليلاً من الوقت بعد. وفي ظلّ شروط أفضل بالطبع.

ـ لكن، سبق أن قلت لك أني لم أقصد هذا المكان إلاّ بهدف الإتصال هاتفياً، قالت ماريا.

لم يكن ساتورنو يملك رداً مناسباً حيال هاجس ماريا اللعين فإستجار بهاركولينا التي استغلت الفرصة تشير إلى ساعة يدها إيعازاً له بإنتهاء الزيارة. غير أن ماريا حجبت عنه الإشارة والتفتت خلفها فرأت هيركولينا متأهبة تتحيّن فرصة للإنقضاض عليها. عندئذٍ تعلّقت برقبة زوجها وهي تعول كمن أصابها الجنون فعلاً فأبعدها عنه بكل ما أوتي من الحب ليتركها في قبضة هيركولينا التي اندفعت فوقها وأحاطت عنقها بقبضة فولاذية بعد أن لكمتها بيدها اليسرى دون أن تدع لها فرصة للإفلات ثم زمجرت في وجه ساتورنو الساحر. «إغرب عن وجهي». فتوارى ساتورنو مذعوراً غير أنه عاد في السبت التالي إلى المستشفى وقد هدأ روعه من هول الزيارة الأولى مصحوباً هذه المرة بالهر الذي ألبسه زيّه المعهود: سروالاً قصيراً أحمر اللون مخطّطاً بالأصفر كسروال ليوتاردو Leotardo وقبعة الشرفات ومشملاً فضفاضاً كمشمل خُصِّص للطيران. وأركن شاحنة السيرك الصغيرة في فناء المستشفى. ثم قدّم عرضاً رائعاً لثلاث ساعات متواصلة خلب لبّ المنزويات اللواتي احتشدن على الشرفات ليشهدن

العرض ويُطلقن أصواتاً شاذة وهتافات حماسية بمناسبة وبغير مناسبة. كن جميعاً هناك باستثناء ماريا التي رفضت استقبال زوجها وأبت حتى النظر إليه من الشرفة وهو ما اعتبره ساتورنو إهانة مميتة «تلك ردة فعل نموذجية. قال له المدير يواسيه. لن يدوم ذلك طويلاً».

إلاّ أن الأمر استمر على حاله. وبعد فشل محاولاته المتكررة لرؤية ماريا. بذل ساتورنو المستحيل لتتسلّم منه رسالة لكن سعيه بقي عبثاً من غير طائل، فقد أعادت له الرسالة أربع مرات متوالية من دون أن تمسّها أو تُعلّق بكلمة. فلم يملك ساتورنو سوى التراجع غير أنه دام يحمِل لها علب السجائر إلى مكتب الإستقبال في المستشفى ولم يتأكد يوماً إن كانت تصل فعلاً إلى ماريا إلى أن جرفته هموم واقع جديد.

ولم يعد يُعرف عنه شيئاً ما خلا أنه تزوج ثانية وعاد إلى بلاده، قبل أن يغادر برشلونة عهد بالهر وهو يكاد يموت جوعاً إلى صديقة عابرة صغيرة السن تعهّدت بالإضافة إلى الإهتمام بالهر بالإستمرار في تزويد ماريا بالسجائر لكنها ما لبثت أن توارت هي الأخرى.

تتذكر روزا ريفاسن أنها صادفته في كورت انفلس Corte Inflés قبل اثني عشر عاماً في جلباب برتقالي تتزيّن به عادة إحدى الطوائف الشرقية. كان حليق الرأس بالغ السمنة. فروت له كيف استمرت تحمل السجائر إلى ماريا بقدر ما وسعها من الوقت وبأنها

لبّت اثنين أو ثلاث إنذارات طارئة حتى ذلك اليوم الذي ألفت فيه الدير وقد أمسى أنقاضاً كذكرى قصته لعهد مشؤوم. وأنها لاحظت أثناء زيارتها الأخيرة أن ماريا قد سمنت ربما قليلاً لكنها بدت هانئة قريرة العين لإحتجابها في الدير. ذاك النهار اصطحبت الهر معها ذلك أنها كانت قد أنفقت آخر ما تبقى من المال الذي خلّفه لها ساتورنو لشراء طعام للهرّ.

الشهر الرابع 1978م.

أهوال شهر الصيف

أدركنا إريزو Arezzo قبل منتصف النهار بقليل وصرفنا ساعتين في البحث عن قصر النهضة الذي كان الكاتب الفينزويللي ميغيل أوتيرو سيلفا Mijuel Otero Silva قد اشتراه في تلك الناحية النموذجيّة من الريف التوسكاني.

في ذاك الأحد أو مع بداية شهر الصيف اللاهب والصاخب كان من الصعب الوقوع على شخص يعرف شيئاً في الشوارع المكتظّة بالسواح. بعد محاولات متكررةً دامت عديمة الجدوى عدنا نستقلُّ السيارة لنغادر المدينة عبر طريق مسيّجة بأشجار السرو. خالية من أية إشارة تُعيّن الإتجاه. وشرحت لنا حارسة أوزّ gardienne d'oies بوضوح كيف نبلغ القصر. قبل أن نستودعها سألتنا إنْ كنا نفكّر بقضاء الليل في القصر فأجبناها أننا لم نتحسَّب سوى لتناول الغداء هناك.

«حسناً تفعلان. قالت. فالقصر مسكون بالأرواح». ولم نكن نؤمن بأشباح الظهيرة فسخرت وزوجتي من سذاجتها. على أنَّ ولدينا وكبيرهما في التاسعة فيما يبلغ الصغير السابعة، لم يتمكنا من كتمان فرحهما لفكرة التعرف على شبح حقيقي من لحم ودم.

كان ميغيل أوتيرو سيلڤا، وهو بالإضافة إلى كونه كاتباً موهوباً، مضيف رائع وذواقة ظريف، بإنتظارنا مع غداء الأنيس. ولم يكن الوقت يسمح بزيارة القصر قبل الجلوس إلى المائدة، ذلك أننا كنا قد وصلنا في ساعة متأخرة جداً. إلاَّ أن ظاهره لم يكن يوحي بما يخيف، وقد تبدَّدَ كل إحساس لدينا بالقلق حين ترامت أمامنا المدينة بأكملها من على الشرفة المزهرة حيث كنا نتناول الطعام. كان من الصعب التصديق بأن تلك الرابية التي تسوّرها مساكن تتّسع بالكاد لثمانين ألف شخص قد انجبت ذاك المقدار من العباقرة المخلدين. بالمقابل أكَّد لنا ميغيل أوتيرو سيلڤا بظرافته الكاريبيَّة المعهودة بأن أشهر رجل في اريزو ليس في عداد هؤلاء.

«أعظمهم ـ جزم قائلاً ـ كان لودوڤيكو Ludovico

هكذا اسمه فقط من غير كنيته: لودوڤيكو. سلطان الفنون والحرب الذي شيَّد لسوء حظه القصر والذي دام ميغيل يحدثنا عنه طوال فترة الغداء. حدَّثنا عن سطوته العظيمة. عن حبه المغيظ، وعن موته المهول. وروى لنا كيف ذبح زوجته في لحظة جنون في سريرها فيما كانا يمارسان الحب ثم حرّض ضدها كلابه الحربية المفترسة التي مزقتها بأنيابها. وأكَّد لنا بجدية فائقة بأن شبح لودوڤيكو يلازم المنزل الغارق في العتمة بعد منتصف الليل علَّه يحظى بالسلام في مطهر حُبِّه.

في الواقع تراءى القصر رحباً ومعتماً، لكن في وضح النهار وقد أتخمنا وانشرحت قلوبنا، لم يسعنا إلاَّ أن نحمل رواية ميغيل

عمل إحدى دعاباته التي إعتاد أن يعابث بها مدعويه. وكانت الإثنتا وثمانون حجرة التي طفنا بها بعد القيلولة من دون أن يثير أي منها دهشتنا قد خضعت لتعديلات من مختلف الأنواع أجراها من توالوا على إمتلاك القصر. وكان ميغيل قد رممَّ الطابق السفلي برمّته. ورتبَّ لإستخدامه الشخصي حجرة مبلطةً بالرخام وحماماً للسونا وقاعة للياقة البدنيّة. إضافة إلى الشرفة ذات الورود الفيّاضة حيث تناولنا الطعام. أمّا الطابق الأول وهو أكثر الطوابق التي أهلت عبر القرون السالفة فكان عبارة عن حجرات متعاقبة لا طابع يميزها زُخرفت بأثاث يرقى إلى عصور مختلفة أهمِل وأُسلم لمصيره. لكن الحجرة الأخيرة وهي حجرة للنوم، إحتفظت ببكارتها لكأن الزمن غفل عنها. تلك حجرة لودوفيكو.

كانت لحظة عظيمة. هناك بدا سرير بقبة مطرزة بخيوط من الذهب، فوقه غطاء من آيات الزركشة القيطانية حيث تيبَّس بعد أن جفَّ دم العشيقة الذبيح. تراءت لنا المدفأة والرماد المتجمّد لآخر حطبة إستحالت حجراً. والخزانة بمجموعة اسلحتها المعدَّة جيداً للقتال.

وفي إطار ذهبي بانت صورة زيتيّة لفارس حالم رسمها أحد أولئك الأسياد الفلورنثيين الذين لم يحالفهم الحظ ليحظوا بالتخليد في عصرهم. مقابل ذلك أشدَّ ما أثّر بي فوق أي أمر آخر رائحة الفراولة الطازجة التي لبثت من دون أي تفسير معقول تلازم مناخ حجرة النوم.

أيام الصيف في توسكانا طويلة ومضنية إذ يلوذ الأفق بمكانه حتى التاسعة مساء. وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين انتهت جولتنا في القصر، وأصرَّ ميغيل على إصطحابنا لرؤية جداريات بييرو ديلــلا فــرانسيسكــا Piero della Fransesca فــي كنيســة ســان فرانسيسكو. بعدها انتحينا ركناً تحت واحدة من تعريشات المكان Pergolas نهذر ونحتسي القهوة. حين عدنا إلى القصر لاحقاً لنأتي بحقائبنا، كانت المائدة مُعدَّة فمكثنا لتناول العشاء.

بينما نتناول طعامنا تحت سماء بنفسجيّة شاحبة إزدهت بنجمة واحدة، توجه الولدان إلى المطبخ لإحضار مصابيح للجيب، ثم انصرفا لإستكشاف دياجير الطبقات العليا. ومن مكاننا وراء الطاولة كنا نسمع عدواهما فوق السلالم كالخيول الهمجيّة، وصرير الأبواب أو صيحات الفرح تدعو لودوفيكو في الحجرات المظلمة.

كانا من ابتدعا الفكرة اللعينة بالبقاء لقضاء الليل، وأيدهما ميغيل أوتيرو سيلفا بسرور بالغ، فلم تواتِنا الشجاعة لرد طلبهما أمامه.

خلافاً لما كنت أخشاه نمنا ملء أجفاننا، أنا وزوجتي في واحدة من حجرات الطابق السفلي، وإبنانا في الحجرة الملاصقة. وكانت كلتا الحجرتين قد جُدِّدتا وليس فيهما ثمة ما يبعث على التخوُّف. ولحظة كنت ألتمس النوم أخذت أحصي الدقات الإثنتي عشرة يوقّعها رقاص ساعة الحائط في البهو. بغتة فطنت للإنذار الرهيب الذي

وجّهته إلينا حارسة الأوز. لكننا كنا منهكين إلى حد بعيد بحيث سرعان ما استغرقنا في نوم عميق ومُتصل.

حين استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت السابعة، وشمس بهيّة تتوهج عبر النافذة في الكرم البريّ. بالقرب مني كانت زوجتي تسبح في بحر السذاجة الوديع. «هي الحماقة بعينها، قلت في سري. أن نبقى متمسكين بوجود الأشباح في أيامنا هذه». تلك اللحظة بالذات ارتعدت وقد شممت رائحة فراولة طازجة قُطفت لتوّها، ولمحت المدفأة والرماد المتجمد وآخر حطبة استحالت حجراً. وصورة الفارس صاحب النظرة الكئيبة الذي لبث يتأملنا في إطاره الذهبي طيلة ثلاثة قرون. ذلك أننا لم نكن في حجرة الطبقة السفلى حيث رقدنا ليل البارحة بل في حجرة لودوفيكو تحت قبة السرير ذات الستائر المغبرة. في مضجعه الملعون داخل الأغطية المبلّلة بدم ما يزال حاراً.

الشهر العاشر 1980م.

خريف ماريا

كان موظَّف مكتب الشؤون الجنائزيّة دقيقاً في موعده حتى أن ماريا دوس برازيريس أوجدت بالكاد متسعاً من الوقت، وهي في مئزر الحمام وقد لفَّت رأسها بملاقط تجعيد الشعر، لِتَدُسَّ زهرة حمراء في أذنها كيلا تبدو أقل فتنة مما كان يتهيَّأ لها. وتضاعف إحساسها بالأسف لمظهرها لاسيَّما وأنها لم تر حين فتحت الباب كاتباً كئيباً مثلما كانت تتخيَّل تجارَ الموت، بل شاباً خجولاً يرتدي سترة مُخططة، وربطة عنق مُطبَّعة برسوم طيور من كافة الألوان. ولم يكن يضع معطفاً بالرغم من ربيع برشلونه المتقَلب، الذي تجعل منه الريح الخفيفة الماطرة فصلاً لا يطُاق مقارنة بالشتاء. أحسست ماريا دوس برازيريس التي طالما استقبلت العديد من الرجال بخزي قلما شعرت بمثله من قبل. وهمَّت على الرغم من سنواتها الست والسبعين ويقينها من موتها الوشيك قبل حلول الميلاد بأن تعود وتغلق الباب، وأن ترجوَ بائع الخبائز أن يمهلها للحظة ريثما تفرغ من إرتداء ملابسها لكي تستقبله بما يليق به. لكنها فكَّرت بأنه ربما تعرض للبرد على الدرج المظلم فدعته للدخول.

«أعذر لي زيِّ الخفاش هذا. قالت: لكنها المرة الأولى التي يتقيد فيها أحدهم بالوعد المحدَّد منذ خمسين عاماً أمضيتها في كاتالوني.

خاطبته بكاتالانية طليقة تشوبها فصاحة قديمة إلى حد ما، وإنْ مازجها جرس لغة برتغاليَّة منسيَّة. وبدت على الرغم من شيخوختها وملاقطها الحديدية محافظةً على مظهر خلاسية رشيقة وممشوقة. خشنة الشعر متوحشة العينين وكانت قد افتقدت منذ زمن بعيد أي إحساس بالحنان حيال الرجال. كان البائع ما يزال مبهوراً بضوء الشارع فلم يُعقب بأي تعليق بل مسح قدميه بممسحة الأرجل وانحنى ليقبِّل يدها تدليلاً على الإجلال.

«إنك لرجل نموذجيّ ما عدنا نُصادف أمثاله» قالت وهي تطلق ضحكة مجلجلة. إجلسْ».

وعلى الرغم من أنه حديث العهد بالمهنة، كان له من الذكاء ما يكفي ليدرك أن ليس ثمّة من يرحّب بزيارة صباحية في الثامنة، فكيف بإمرأة عجوز صلفة تراءت له للوهلة الأولى مجنونة فارة من Ameriques. فمكث متردداً أمام العتبة وقد خانه النطق. فيما شرعت ماريا دوس برازيريس تشق ستائر النوافذ المخمليَّة السميكة.

أضاء شعاع ابريل الخافت البهو المفرط في الإتقان، والذي يشبه إلى حدٍ بعيد واجهة تحف أثرية فبانت في الداخل اشياء عديدة للإستخدام اليومي رتِّبت بذوق سليم للغاية واحتلّ كل منها ركناً

مناسباً بحيث كان من الصعب العثور على منزل يفوقه ترتيباً ونظافة حتى في مدينة قديمة ومغلقة كبر شلونة.

«عفوك، قال، لقد أخطأت الباب.

ـ وددت لو أنك فعلت. أجابت. لكن الموت لا يخطىء».

فوق طاولة حجرة الطعام فتح البائع كراسًا بطيّات تفوق طيات خارطة بحريّة، مُقسَّماً إلى أجزاء متعددة الألوان تضمَّن كل منها عدداً هائلاً من التقاطعات والأرقام. فأدركت ماريا دوس بريزريس بأنها الخارطة المفصلة لمقبرة مونجويش Montjuich الكبيرة وتذكرت برعب منشأه زمن غابر مقبرة مانوس Manus تحت وابل المطر في أوكتوبر عندما كان آكلو النمل يتخبطون في الوحل بين القبور المجهولة وأضرحة المغامرين ذات الزخارف الزجاجيّة الفلورنثية. ذات صباح وكانت آنذاك ما تزال طفلة رأت الآمازون يطوف ويتحول إلى مستنقع مُغث، والتوابيت المحطمة تقوم في فناء منزلها يتدلّى منها خرق قماش وشعور موتى. كانت تلك الذكرى المسبب الذي إختارت من أجله رابية مونجويش لترقد فيها بسلام عوضاً عن مقبرة سان جيرفازيو San Gervasio القريبة جداً والمألوفة جداً.

«أريد مرقداً لا تبلغه المياه قط.» قالت.

ـ حسناً، إنه هنا، قال البائع وهو يشير إلى الموضع على الخارطة بعصا صغيرة قابلة للطيّ أخرجها من جيبه كما يخرج تماماً قلم حبر فولاذياً. ليس ثمة بحر تبلغ مياهه مثل هذا الإرتفاع».

توجهت صوب رقعة الألوان وعاينت البوابة الرئيسية التي اصطفت بمحاذاتها ثلاثة قبور متلاصقة ومتماثلة ومغفلة الأسماء، حيث كان يرقد بيونافنشورا دورروتي Buenaventura Durruti، وأثنان آخران من قادة الحزب الفوضوي قتلا أثناء الحرب الأهلية. وكان مجهول يقصد المقبرة ليلاً ويكتب على النِصَبِ البيضاء بقلم الرصاص وبالألوان وبالفحم وبقلم الكحل أو بطلاء الأظافر أسماءهم بالترتيب كاملة لا تنقص حرفاً. بالمقابل كان الحراس يمحون صباح كل يوم ما كتب ليلاً كيلا يعلم أحد هوية من يرقد تحت الرخام الصامت. وكانت ماريا دوس برازيريس قد شهدت مأتم دورروتي الأكثر فجيعة وصخباً مقارنة بمآتم كافة القتلى الذين أحصتهم برشلونة وأرادت أن تدفن في قبر مجاور. غير أنه لم يكن ثمة مكان شاغر في المقبرة الكبيرة والمكتظة بحيث رضيت على مضض بما يتوفَّر «شريطة: قالت ألاَّ أدفن في واحدٍ من تلك الأدراج حيث نمكث خمسة أعوام كرسالة تودع علبة البريد». ثم أردفت وقد تذكرت بغتة شرطها الأول. «أريد بصورة خاصة، أن أُدفن راقدةً».

في الواقع كانت قد سرت شائعة تدعي بأنهم يحفرون قبوراً عامودية لتوفير مساحة الأرض تشهيراً بالاعلان الصاخب الذي يعرض بيع القبور نقداً أو بالتقسيط. بخطاب موجز ودقيق حفظه عن ظهر قلب وغالباً ما كان يردده أوضح البائع بأن المؤسسات التقليدية للشؤون الجنائزيّة تغذي تلك الشائعة المغرضة بهدف وحيد هو التعريض بالعرض الجديد للبيع بالتقسيط. كان بصدد التدليل على

ذلك حين طُرق الباب ثلاث طرقات خفيفة حذرة فإنقطع عن الكلام متردداً لكن ماريا دوس برازيريس أومأت له بأن يتابع.

«لا تقلق. قالت له بصوت خفيض يكاد لا يُسمع، إنه نوا Noi.»

فتابع البائع محاضرته. وأبدت ماريا دوس برازيريس إقتناعها بحجته. غير أنها قبل أن تفتح الباب، أرادت أن توجز كحصيلة نهائية الفكرة التي كانت قد نضجت في أعماقها بأدق تفاصيلها حميميةً طيلة سنوات بعيدة منذ فيضان مانوس.

«ما أود قوله، حدَّدت قائلة، هو أني ألتمس ركناً أرقد فيه تحت التراب حيث لا يكتسح الطوفان مرقدي. وتحت فيء أشجار صيفيّة إن أمكن ذلك، حيث لا أُنبش بعد حين ليلقى بي في مكب القمامة».

فتحت الباب فانسلَّ كلب صغير مجعد الوبر مبللٌ بالرذاذ ومرتبك الخطوات. لم يبد أن ثمة صلة ما تجمعه بسائر المنزل. كان قد عاد من نزهته الصباحية في الجوار وما كاد يدخل حتى شرع يُعبِّر عن حبوره. قفز فوق الطاولة وأخذ ينبح من غير سبب. وكان يحذر اللجوء إلى تصرّف ما، حتى لا تلوث قوائمه المغمورة بالوحل خارطة المقبرة. غير أن نظرة واحدة من سيدته بدت كافية لتضع حدّاً لدلاله. «نوا، صاحت، دع الطاولة Daixa d'aci» إنكمش الكلب الصغير ونظر إليها مذعوراً ثم إنحدرت فوق خطمه دمعتان صافيتان

فالتفتت ماريا دوسن برازريس جهة البائع وألفته مرتبكاً.

« Collons صاح هذا الأخير. لقد بكى!

ـ هذا لأنه سعيد لرؤية زائر هنا في مثل هذه الساعة. قالت ماريا دوسن برازريس بصوت هامس ينمُّ عن الإعتذار. عادة حين يدخل المنزل يبدي رزانة تفوق رزانة الرجال بإستثنائك على ما ألاحظ».

ـ لكنه وحقِّ الربِّ بكى. كرَّر البائع الذي تنبَّه بغتة فاعتذر عن عدم لياقته وقد احمر وجهه خجلاً. أستميحك العُذر لكنني ما رأيت مثل هذا من قبل حتى في السينما.

ـ بوسع كافة الكلاب أن تفعل. إنَّ درَّبناها على البكاء لكن أصحابها يحاولون تلقينها عادات تجعلها تتألم. مثلاً. كيف تأكل في أطباق خاصة بها أو تتبرَّز في ساعة محددة وفي الموضع عينه بالمقابل هم لا يعلمونها أموراً طبيعيةً تروق بها كالضحك أو البكاء. حسناً أين كُنَّا من الحديث؟

كانا قد فرغا تقريباً، وكان يجدر بماريا أن تقنع بصيف من دون فيء، لأن أفياء المقبرة حُفظت لأصحاب المقامات الرفيعة في الحكم. بالمقابل طفح العقد بالشروط والبنود حتى زاد عن الحاجة ذلك أنها كانت ترغب بإستغلالها الحسم الممنوح في حال الدفع نقداً وفي الحال.

بعد أن أنجز عمله، وفيما انهمك بتنظيم الأوراق في محفظته

أحاط البائع المنزل بنظرة متفحِّصة وهزته نفحة جماله السحرية فالتفت ناحية ماريا دوسن برازريس كمن يراها للمرة الأولى.

«هل سيعني أن أطرح سؤالاً متطفِّلاً؟ سألها. قادته حتى الباب وهي تقول.

«بالطبع. شرط ألاّ يتعلق بسني».

ـ لدي هوس مفرط بتخمين مهنة الأشخاص من خلال ما يقتنونه في منازلهم. لكني هنا وبصدق أقول عاجز عن ذلك. فما هي مهنتك؟

أجابته ماريا دوسن برازيريس مقهقهةً.

«أعمل بغياً يا ولدي. وهل انقطع هذا؟

إحتقن وجه البائع «اعذريني.

ـ الإعتذار أولى بي. قالت وهي تمسكه من ذراعه لتحول دون أن يهشِّم عظامه بالباب. إحذرْ! ولا تحطم وجهك قبل دفني كما يليق بي.»

ما إنّ أوصدت الباب حتى غمرت الكلب بين ذراعيها ومضت تناغيه. وصوتها الإفريقي الشجيُّ يختلط بأنغام الجوقة الطفولية التي تعالت في تلك اللحظة بالذات في دار الحضانة المجاور. لثلاثة أشهر خلت. كان موتها قد تكشَّف لها في الحلم. مذّاك شعرت أنها تلتصق أكثر من أي وقت مضى بذاك الكائن الملازم لعزلتها. كانت قد تحسَّبت بدقة بالغة لتوزيع أملاكها بعد مماتها، ولمصير جسدها، بحيث بات يمكنها الموت فور ذلك من غير أن تُقلِق صفو إنسان.

واعتزلت البغاء بمحض إرادتها بعد أن ادَّخرت بمبالغ صغيرة ثروة لم تبذل في سبيل جمعها تضحيات جليلة وإختارت لنفسها ملاذاً نهائياً بلدة غراسيا Gracia البالغة في العراقة والنبل، والمترامية حينها حتى لتقارن بالمدينة حيث اشترت دوراً منخفضاً يقع مباشرة فوق الدور الأرضي لكنه حطام تفوح منه في الليل وفي النهار رائحة سمك الرنكة المُدخّن. وترى جدرانه التي تخرها ملح البارود آثار حرب غابرة بلا فُخار. لم يكن للبناء بواب. وعلى الرغم من أن كافة طوابقه كانت مأهولة فقد تداعت بعض درجات السلالم الرطبة والمعتمة. أعادت ماريا دوسن برازريس بناء المطبخ والحمامات، وغطت الجدران بألوان مبرقشة وزخرفت النوافذ بزجاج مشذوف وبستائر مخملية، ثم رتَّبت أخيراً الآثاث الثمين والأشياء التي تُستعمل عادة والأواني المزخرفة والصناديق المليئة بالحرائر وفرو التيمور المسروقة بأيدي الفاشيين من المنازل التي هجرها الجمهوريون إبان جنون الهزيمة. وكانت قد اشترتها تدريجيًا قطعة قطعة وسنة إثر سنة وبثمن بخس من مبيعات المزادات السرّية.

قطعت كل صلة لها بالماضي بإستثناء صداقتها بالكونت دوكاردونا Decardona الذي دام يزورها بلا انقطاع يوم آخر جمعة من كل شهر ليشاطرها غداء يعقبه لهو منحط. على أن صداقة الصبا تلك ظلت محاطة بهالة من السريّة. ذلك أن الكونت كان يركن سيارته التي تحمل شعار نبالته في مكان بعيد إسرافاً في الحذر ثم ينسلُّ كالطيف إلى الدور المنخفض حفظاً لشرف السيدة وشرفه. ولم

تكن ماريا تعرف أحداً من سكان البناء ما خلا جيراناً لها سكنوا حديثاً في الدور المقابل وهما زوجان شابان وأبنة في التاسعة. إنه أمرٌ لا يُصدق». كانت تحدث نفسها. لكنه كان أمراً لا مراء فيه ذلك أنها لم تصادف قط أحداً سواهما على السلالم.

في المقابل اثبتَ لها نصّ وصيتها أنها كانت مندمجة أكثر مما تهيّأ لها بذاك المحيط الكاتالاني الصلف الذي يتجذَّر شرفه القومي في الحياد. وكانت قد وزّعت ثروتها حتى آخر مقتنياتها الأكثر تفاهة بين أقرب الناس إلى قلبها وهم أيضاً أقرب جيرانها. وإنْ لم تكن في نهاية المطاف على يقين من أنها تعرفت بإنصاف منذ كانت بالمقابل واثقة من أنها لم تُغفل أحداً جديراً بألاَّ يُغْفل.

وقد نمَّ تصرفها عن دراية بالغة الدقة إلى حدٍّ أن موثّق العقود الذي كان يتبجّح بأنه يعرف الكثير لم يصدق عينيه حين رآها تملي غيباً على كتبة المحامي القائمة المفضلة بأموالها وممتلكاتها مشيرة إلى كل غرض باسمه المضبوط بكاتالانية قروسطيّة ومحدِّدة كل وريث مع ذكر عنوانه ومهنته وفقاً لمكانته في قلبها.

إنتهى بها الأمر عقب زيارة بائع القبور لتنضمّ إلى زائري المقبرة الأسبوعيّين، وعلى غرار جيرانها في القبور المجاورة شرعت تزرع في أحواض الزهور وروداً تتفتّح في كافة فصول السنة. وكانت تروي ما ينبت من عشب جديد وتشذّبه بالمقص ليغدو أكثف من مرجة فندق المدينة، إلى أن أمسى المكان أليفاً لديها، حتى أنها لم

تدرك في النهاية قط كيف وسعها أن تجده في المرة الأولى بمثل تلك الكآبة.

حين قامت بزيارتها الأولى خفق قلبها عند رؤية القبور الثلاثة المجهولة على مقربة من البوابة. لكنها لم تتباطأ لتتأملها من كثب. ذلك أن الحارس المؤرّق كان يجلس على مسافة بضعة أمتار منها. لكنها اغتنمت خلال زيارتها الثالثة نهار الأحد لحظة غفلته لتحقّق واحداً من أعظم أحلامها. وبأحمر شفاهها كتبت فوق الشاهد الأول الذي غسله المطر إسم دوروتي. ثم منذ ذلك الحين دأبت كلما سنحت لها الفرصة، تارة فوق قبر واحد وطوراً فوق قبرين أو القبور الثلاثة على تكرار فعلتها وهي رابطة الجأش يعصف بقلبها الحنين.

نحو أواخر سبتمبر حضرت ذات أحد، أول دفن شهدته الرابية. ولم يمضِ سوى ثلاثة أسابيع حتى دُفنت ذات بعد ظهر جليدي عروس شابة في القبر المجاور لقبرها. في نهاية العام كان ثمة سبعة أجزاء حفيرة قد أهلت. وهكذا مرّ الشتاء عابراً من غير أن يدركها الموت، لم تكن تشعر بأي توعُّك وبقدر ما كانت الحرارة تشتد، وينسلُّ عبر النوافذ المشرَّعة لجب الحياة المتدفق، بقدر ما كانت تستعيد شجاعتها لتقاوم ألغاز أحلامها. عند عودته ألفاها الكونت دو كاردونا De Cardona الذي أمضى أشهر القيظ في الريف أكثر فتنة من أيام ربيعها الخمسين الفياضَّة بالشباب.

ظفرت ماريا دوس برازيريس بعد محاولات عقيمة متكررة

بمعرفة نوا لمقرّ سيدته الآخير فوق الرابية الفسيحة ذات القبور المتشابهة. ثم عكفت على تعليمه البكاء أمام الرمس الخالي كي يواصل فعل ذلك بحكم العادة بعد وفاتها. ودربته حين اصطحبته مرات عديدة من المنزل إلى المقبرة سيراً على الأقدام على تمييز نقاط الاستدلال ليثبت في ذاكرته مسار باص الرامبلا حتى جاء اليوم الذي أحست فيه أن الوقت حان ليقصد المكان وحيداً من دونها.

في الثالثة من مساء الأحد، موعد التمرين النهائي نزعت عنه سترته الربيعية منه لأن الصيف كان وشيكاً، وكيلا تلتفت إليه الأنظار ثم تركته لشأنه. من الجهة الظليلة للشارع رأته يبتعد وهو يجرجر عجيزته الحزينة الخجلى تحت ذيله المترعِّص. وقبل أن تلمحه يلفّ تقاطع شارع لاكال مايور La Calle Mayor بإتجاه البحر جاهدت لتكبت رغبتها بالبكاء رثاءً له، ولنفسها، ولأعوام كثيرة طفحت بالأحزان والأوهام المشتركة. مكثت ربع ساعة قبل أن تستقل من محطة بلازا دو ليسبس Ploza de Lasseps باص الرامبلا على أمل أن تلمحه عبر النافذة من غير أن يراها. وفي الواقع تبيّنته وسط شلة من أطفال الأحد وتراءى لها وقوراً ومتأملاً ينتظر إشارة المرور الحمراء في جادة بازيو دو غراسيا Paseo de Gracia.
«يا ألهي، تنهدت، كم يبدو وحيداً».

تحت شمس مونجويش Montjuich الشرسة انتظرته زهاء ساعتين «حيث البعض من زوّار الآحاد الغابرة ممن لم تعد تعيهم الذاكرة جيداً، على الرغم من أنها تذكرتهم بصعوبة، ذلك أن اليوم

الذي قابلتهم فيه لأول مرة كان بعيداً جداً بحيث ما عادوا يرتدون الحداد أو يتمثلون موتاهم وهم يزيّنون قبورهم بالزهر.

عقب رحيل الجميع بفترة وجيزة، سمعت زعيقاً كئيباً أفزع النورس فحلّق مبتعداً، ورغبت من كل أعماقها وهي ترى وسط إمتداد البحر سفينة بيضاء يخفق فوقها العلم البرازيللي، لو أنّها رسول يحمل لها رسالة من أحد نزلاء سجن برنامبوكو Pernambeuco يعلمها فيها بموته في سبيلها. وكان قد مضى خمس ساعات واثنتا عشرة دقيقة حين ظهر نوا أخيراً على الرابية وهو يلهث وقد سال لعابه من التعب والحر. لكنه بدا شديد الإعتزاز كصبيٍّ حققّ مفخرة. منذ تلك اللحظة قهرت ماريا خوفها من ألاّ يبكيها أحد فوق القبر.

في الخريف الذي تلا بدأت تكدرها أعراض تطيُّر أثقلت عليها يوماً إثر يوم ولم تفلح في الكشف عن أسبابها. وعادت ترتاد مقهى البلازا دل ريلوج Plaza del reloj لتناول القهوة كالعادة تحت أشجار السفط الذهبيّة متدثرة بمعطف ياقته من ذيل الثعلب، ومعتمرة قبعة مزينة بزهور إصطناعية لفرط ما كانت قديمة باتت من جديد تتماش وموضة العصر. وفي سعيها للكشف عن سبب كدرها نبّهت غريزتها وأخذت تعير سمعها لهذر بائعي الطيور في الرامبلا، ولهمسات باعة الكتب في الأكشاك الذين ما عادوا لأول مرة منذ زمن بعيد إلى جدالهم حول كرة القدم، وللصمت المطبق يلوذ به معاقو الحرب وهم يرمون فتات الخبز للحمام، وحيثما حلت كانت ترصد

أمارات أكيدة لموت محتم.

في عيد الميلاد شعشعت أنوار الزينة بين أشجار السفط وتعالت الموسيقى وصيحات الفرح من الشرفات واجتاح أرصفة المقاهي حشد من السواح غرباء عن المدينة. بالمقابل لوحظ في غمرة العيد التوتُّر المتحفظ عينه الذي سبق عهد إستئثار الفوضويين بالشارع. ولم تفلح ماريا دوس برازريس التي عاصرت عهود الأهواء العظيمة تلك في السيطرة على قلقها. وللمرة الأولى بدأت توقظها من رقادها ليلاً إختلاجات رعب. وفي ذات مساء صرع رجال الشرطة تحت نافذتها بالرصاص، طالباً كان قد بيّض الجدار بالنقش التالي: Visca Catalunya Lliure.

«رباه، قالت في سرها مرتاعة. كما لو أن كل شيء يموت لموتي.»

لم تكن قد عاشت قلقاً مماثلاً سوى في مانوس، يوم كانت ما تزال طفلة صغيرة. عندما تهمد بغتة قبل طلوع الفجر بدقائق أصداء الليل العديدة. فتتجمّد المياه ويترنح الزمن ويغمر الغابة الآمازونيّة صمت سحيق يشبه الموت.

في غمرة ذاك القلق الذي لا يُقهر، زارها كالعادة الكونت دوكاردونا للعشاء في الجمعة الأخيرة من شهر إبريل.

كانت زياراته قد أمست طقساً، وكان يأتي بإنتظام ما بين السابعة والتاسعة يحمل زجاجة من الشمبانيا الأسبانية ملفوفة بصحيفة

المساء لئلا يلاحظه أحد وعلبة من الحلوى بالشوكولا والزبدة. وكانت ماريا دوس برازيريس تُحضِّر له طبقاً من البريشة العصوية ودجاجة مشوية طريةً وهي الوجبة المفُضلة آنذاك لدى الكاتلانيين المتحدِّرين من أصل رفيع. بالإضافة إلى حبات من الفاكهة الموسميَّة، وبينما تنهمك في المطبخ يُشغل الكونت الفونوغراف ليسمع تسجيلات تاريخية لمتطوعات من الأوبرا الإيطالية فيما يحتسي برشفات صغيرة قدحاً من البورتو يحرص ألاّ يفرغه قبل انتهاء الأسطوانات.

بعد العشاء الحيويّ الطويل. كانا يمارسان حباً آبداً يخلِّف لدى كليهما مذاق الكارثة الكريه. وقبل رحيله يدسُّ الكونت الذي كان يستبد به الهلع بإستمرار عند اقتراب منتصف الليل خمسة وعشرين بيزيتا تحت مرمدة الغرفة. ذاك كان أجر ماريا دوس برازيريس يوم عاشرها في منزل باراليو Paralelo للدعارة. وذاك هو الأمر الوحيد الذي لم يمسَّ به صدأ الزمن.

لم يكن أي منهما يسأل نفسه علام تقوم صداقتهما، وكانت ماريا دوس برازيريس تدين له ببضعة أفضال تافهة، فهو من زودها بنصائح مفيدة حول تدبير نفقاتها، وعلَّمها إدراك القيمة الفعلية لذخائرها وكيفية حفظها لئلا يكتشف أحد أنها مسروقة. لكنه كان بوجه خاص من مهَّد لها الطريق لشيخوخة لائقة في حي الغراسيا عندما اعتبرت في الماخور حيث أمضت طيلة حياتها عاهرة مبتذلة لا تتوافق والذوق العصري، وتقرر إرسالها إلى منزل للمتقاعدات

السريّات اللواتي كنَّ يعلِّمن الأولاد ممارسة الجنس لقاء خمس بيزيتات. وكانت قد روت للكونت بأن أمها باعتها وهي في الرابعة عشرة في مرفأ مانوس وأن نقيباً عبرياً في سفينة تركية عبث بها دون رأفة أثناء عبور الأطلنطيك قبل أن يتركها في قذارة أنوار باراليلو بيون من دون فلس ولا علم بلغة ولا اسم حتى.

إلى ذاك الحد كان كلاهما يعي مدى إختلافهما وبأن ثمة أموراً صغيرة تافهة تجمع بينهما، بحيث ما كانا يشعران بوطأة الوحدة إلاّ حين يجتمعان معاً، غير أن واحدهما ما جرؤ قط على خدش سحر العادة. وكان يجدر حدوث زلزلة قومية ليدرك كلاهما معاً وفي الوقت نفسه إلى أي حدٍ وبأي حنوٍّ كانا يتباغضان طوال تلك الأعوام.

يوم حدث الإنفجار بينهما، كان الكونت يسمع ثنائي الحب لوشيا البانيز Lucia Albanose وبنيامينو جيغلي Beniamino Gigli يشدوان بلحن «المتشردون» حين تنامى إليه بغتة ما يشير إلى أن ماريا دوس برازيريس تتنصّت للمذياع فإقترب متسللاً على أطراف أصابعه وأرهف السمع. تعهد الجنرال فرانسيسكو فرانكو ديكتاتور أسبانيا الأزلي بتقرير المصير النهائي لثلاثة من المنشقين حُكم عليهم بالإعدام. تنهد الكونت بإرتياح.

«إذاً سوف يُعدمون بالرصاص من دون محاكمة. قال. لأن الكوديللو Caudillo رجل محقّ.»

فسمّرت ماريا دوس برازيريس عليه عينيها الناريتين كصلٍّ

ملكي ورأت حدقتيه من خلال نظارته الذهبية خاليتين من الإنفعال، رأت أنيابه كوحش مفترس، ويديه النَغِلَتيْن كحيوان ألف الرطوبة والظلمات. رأته على ما كانت عليه حاله «حسناً توسل للرب كيلا يُعدموا، قالت: لأنني سأدسُّ السُمَّ في طعامك إن فعلوا. فذعر الكونت» وعلام هذا؟

- لأني بغيّ تملك حساً بالعدالة».

لم يعد الكونت دوكاردونا قط. وأيقنت ماريا دوس برازيريس بأن آخر حلقة من حلقات حياتها قد أشرفت على النهاية. قبل ذلك الحين بزمن قصير كانت ما تزال تحس بالغيظ أن تخلى لها أحدهم عن مقعده في الباص، أو ساعدها على إجتياز الشارع أو أمسكها من ذراعها لترتقي السلالم. لكنها ما لبثت أن سلّمت بذلك بل باتت تبتغيه كحاجة مقيتة. حينذاك أوصت على شاهد قبر فوضوي من دون اسم ولا تاريخ. وأخذت تنام دون أن تغلق مزلاج الباب ليتمكن نوا من الخروج وإعلان النبأ إنْ غافلها الموت أثناء رقادها.

حين عودتها من المقبرة ذات نهار أحد، جازمت عند قرص الدرج الفتاة الصغيرة التي تقطن الدور المقابل فرافقتها مسافة قصيرة وحدثتها ببساطة الجدّة بأمور عديدة ثم مضت تراقبها وهي تلهو بصحبة نوا كصديقين قديمين. وفي جادة دل ديامونت Del Diamanta دعتها مثلما كانت قد قررت لتناول المرطبات.

«أتحبين الكلاب؟ سألتها.

- إني أعبدها. أجابت الصغيرة.

عندهما عرضت عليها ماريا دوس برازيريس الاقتراح الذي طالما فكرت به لزمن طويل.

«إن حدث لي يوماً مكروه، اهتمي بنوا، قالت لها. ما أطلبه منك فقط هو أن تطلقي له الحرية نهار الأحد وألاّ تقلقي بشأنه اطلاقاً فسوف يقصد مكاناً يعرفه جيداً.

هلَّلت الصغيرة للعرض كذلك عادت ماريا دوس برازريس إلى منزلها قريرة العين هانئة كونها عايشت حلماً كان قد تغلغل في أعماقها منذ عهد بعيد. بالمقابل لم يكن كلل الشيخوخة ولا مماطلة الموت من حالا دون تحقيق حلمها ذاك. كذلك ما كان العائق قراراً شخصياً. فقد تكفلت الحياة ذات بعد ظهر جليدي بإتخاذه بدلاً منها عندما هاج الطقس فجأة لحظة غادرت المقبرة، كانت قد كتبت الأسماء فوق شواهد القبور الثلاثة وانحدرت سيراً على الأقدام بإتجاه محطة الباص حين باغتتها رشقات المطر الأول وبللتها من الرأس حتى أخمص قدميها، فاحتمت بمشقة بالغة تحت الأروقة المقوّسة لحي مقفر بدا كأنه ينتمي لمدينة أخرى بمصانعه المهجورة وحوانيت البقالة الخربة وشاحنات البضاعة الفخمة التي زادت من هول قرقعة المطر.

وفيما جعلت الكلب الصغير في حضنها وهو يرشح ماء علّها تدفئه، مضت ماريا دوس برازيريس ترقب مرور الباصات المكتظة أو سيارات الأجرة الخالية وقد انزلت راياتها، دون أن يبدو لها أن أحداً يلاحظ إشارات إستغاثتها. فجأة وكمعجزة يستحيل حدوثها عبرت

بهدوء سيارة ليموزين فاخرة بلون الفولاذ الداكن الشارع الذي اكتسحه السيل وتوقفت عند المنعطف تماماً ثم تراجعت إلى الخلف حيث كانت تقف ماريا دوس برازيريس. وكما بفعل لهاث سحري أُنزل زجاج النافذة وعرض عليها السائق إيصالها.

«أقصد مكاناً بعيداً، قالت ماريا دوس برازيريس صادقةً. لكنك قد تسديني خدمة جليلة إن أنت اختصرت لي المسافة حتى مكان قريب.

ـ أي مكان تقصدين؟ أصرَّ قائلاً.

ـ غراسيا. أجابت.

ـ إنها وجهة سيري. هيا اصعدي.

من داخل السيارة حيث اشتمت رائحة عقاقير مبردة شعرت وقد تراءى لها أن المطر انقلب حدثاً خيالياً وأن المدينة اكتست لوناً آخر. إنها تسكن عالماً غرائبياً وسعيداً حيث يتحلّل كل شيء قبل الأوان. كان السائق يشق لنفسه طريقاً وسط فوضى السير ببساطة لا تخلو من السحر. وكانت ماريا دوس برازيريس تشعر بالخجل من بؤسها، وبؤس الكلب الصغير المسكين الراقد فوق ركبتيها على نحو خاص.

«لكأنّها السفينة، قالت تعبيراً عن إعجابها بالسيارة لم يسبق لي قط إن رأيت مثيلاً لها، حتى في الحلم.

ـ في الحقيقة لست آسف سوى لأمر واحد، إنها ليست ملكاً

لي. قال الرجل بكاتالانية متعثّرة ثم أضاف بالأسبانية بعد صمت قصير لن يكفي راتبي لمدى العمر لتسديد ثمنها.

ـ أعتقد هذا بالطبع. زفرت قائلة.

مضت تتأمله بطرف عينها. ولاحظت أنه شبه يافع بشعره القصير المُجعَّد، وبروفيله الرومانيّ بلون البرونز تكلّله هالة من الخضرة عكستها لوحة القيادة المضادة. وفكرت أنه ليس وسيماً لكنه يتمتع بجاذبية خاصة وبأنه يبدو أنيقاً بسترته الجلدية الرخيصة التي رثت بفعل كثرة الاستعمال، وأن أمه لا بُدَّ تشعر بالسعادة حين يعود إلى المنزل. وحدهما يداه الخشنتان كيدي مزارع كانتا تشيان بأنه ليس مالك السيارة.

لم يعودا للحديث طيلة مسافة الطريق. غير أن ماريا لاحظت تكراراً أنه كان يتفحّصها خلسة. مرة أخرى تألمت كونها ما تزال وهي في مثل سنها على قيد الحياة وأحست أنها دميمة، وجديرة بالرثاء بوشاح الخادمة الذي كانت قد حمت به رأسها على عجل حين بدأت تمطر، وبمعطفها الخريفي الرث الذي لم تُفكِّر بتغييره لأنها كانت تحلم بالموت.

حين إقتربا من حي الغراسيا كانت الغيوم قد انقشعت وانتشر الظلام وأشعلت المصابيح. طلبت ماريا دوس برازيزريس من سائقها أن يدعها عند أقرب تقاطع للشارع لكنه أبى إلاّ أن ينقلها حتى باب المنزل. بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ أوقف السيارة على الرصيف لتتمكن من النزول دون أن تتعرضّ للبلل. أفلتت الكلب، وجدّت

في النزول من السيارة بأوفر ما يتيحه لها جسدها من الوقار ثم إلتفتت لتشكر السائق فألفت في عينيه نظرة رجل جعلتها مبهورة. أدامت فيه النظر للحظة دون أن تدرك جيداً من ينتظر الآخر وما الذي يتوقعه واحدهما من الآخر. فسألها بنبرة قاطعة: هل أصعد؟»
اجتاحها إحساس بالمهانة.

«إني شاكرة لك جداً لما فعلت، لكني لن اسمح لك على الاطلاق بأن تسخر مني.

ـ لا أملك ما يبرّر السخرية من أيٍ كان، أجاب بالآسبانية. وبرزانة حازمة. لا سيّما من امرأة مثلك».

كانت ماريا دوس برازيريس قد عرفت كثيراً من الرجال من أمثال هذا الأخير. كذلك حالت دون انتحار آخرين يفوقونه سفاهة لكنها ما شعرت قط من قبل بخوف مماثل من إتخاذ القرار.

سمعته يصرُّ من جديد بالنبرة القاطعة عينها! «هل أصعد؟.» إبتعدت دون أن تغلق باب السيارة وردت بالأسبانية لتكون على يقين من أنه فهم جيداً ما تقوله.

«إفعل ما يروق لك».

دخلت الرواق المضاء بنور منحرف يتسلل من الشارع، وصعدت أول درجات السلم وهي نهب لرعب ما كانت تؤمن بمثله سوى لحظة الموت. ثم حين توقفت أمام الباب لتبحث عن المفتاح في طيات جيبها وقد رنّحها القلق، تناهى إليها من الشارع صوت

صفقتين متتاليتين لباب السيارة. فهمَّ نوا بالنباح وكان قد تقدَّمها لكنها أمرته بصوت مخنوق.
«أصمت».

للتو سمعت وقع خطوات فوق درجات السلم المتداعية، وخشيت أن يتوقف وجيب قلبها. ولجزء من الثانية تقاطر أمام ناظريها الحلم النذير الذي كان قد بدل حياتها خلال سنوات ثلاث. وأدركت خطأ تأويلها «رباه. حدَّثت نفسها مرتاعة، لم يكن هو الموت إذاً؟»

وجدت أخيراً القفل، وأصغت لوقع الخطوات المتزنة لذاك الذي كان يتقدم في العتمة وقد تلاحقت أنفاسه تدريجيّاً واعتراه ذعر مماثل. وأدركت فجأة أنها كانت على صواب حين إنتظرت طيلة العديد والعديد والعديد من الأعوام، وحين تعذبت مراراً وتكراراً، كل ذلك كان فقط لتعيش تلك اللحظة.

الشهر الخامس 1979م.

سبعة عشر انكليزياً مسموماً

أول ما لاحظته السنيورة برودانسيا لينيرو Prudencia Linero حين بلغت السفينة مرفأ نابولي، كان الرائحة الشبيهة برائحة مرفأ ريوهاشا Riohacha. ولم تحدّث أحداً بذلك بالطبع، ذلك أنه ما كان بوسع أمرىء أن يفهمها على ظهر تلك السفينة المتهالكة، المكتظّة بإيطاليين غادروا بيونس إيرس قاصدين وطنهم للمرة الأولى بعد الحرب. لكنها شعرت بأنها أقل عزلة، وأقل خوفاً، وأقلّ إنسلاخاً عن الآخرين برغم سنواتها الاثنتين والسبعين. وبرغم الثمانية عشر يوماً التي أمضتها في عرض البحر عرضةً لأنوائه العاتية، بعيداً عن انسبائها ومنزلها.

منذ الفجر، تراءت أنوار اليابسة، وكان المسافرون قد استيقظوا باكراً خلافاً لعادتهم، وارتدوا ثيابهم الجديدة. وارتقبوا أن ترسو بهم السفينة وقد وجفت قلوبهم خشية ألاّ تفعل. بحيث أن ذلك الأحد الأخير على المتن بدا لهم الأحد الحقيقي الوحيد خلال رحلتهم البحريّة. وكانت السنيورة برودانسيا لينيرو أحد المسافرين القلائل المشاركين في القداس. في الأيام السابقة دامت تتجول على السفينة

بثياب داكنة. غير أنها ارتدت ذاك النهار استعداداً لإستقبال اليابسة، ثوباً كستنائياً طويلاً وفضفاضاً شدَّته عند الخصر بحزام القديس فرانسوا وإنتعلت حذاءً من الجلد الطبيعيّ لا يشبه بحدَّته بشيء نعل الراهبة. وكانت بذلك تفي بعهدها، فقد نذرت للرب ألاّ تستبدل حتى مماتها ثوبها الذي كان يلفُّها حتى القدمين. إنْ هو وهبها نعمة السفر إلى روما لرؤية قداسة الحبر الأعظم، نعمةً تحسب أنها مُنِحتْ إيَّاها. عند نهاية القداس اشعلت شمعة عسلية شكراناً للروح القدس لأنه نفخ فيها الشجاعة لإحتمال ضراوة العواصف الكاريبيَّة، ثم تلت صلاة لكلٍّ من ابنائها التسعة، ولأحفادها الأربعة عشر، الذين كانوا في تلك اللحظة يحلمون بها في عتمة ريوهاشا التي تكنسها الرياح.

حين صعدت إلى المتن فور تناولها الفطور الصباحي بدا لها أن الحياة قد انقلبت فوق ظهر السفينة. فقد كُدِّست الأمتعة في البهو الكبير وسط ركام من أصناف المشتريات التي ابتاعها الإيطاليون من أسواق الأنتيل السحريَّة. وفي المطعم كان ثمة قرد من برنمبوكو Pernambaco يقبع على المبسط في قفص حلزونيّ القضبان. حدث ذلك في مطلع شهر أغسطس، ذات أحد مميَّز من صيف ما بعد الحرب. غمرت شمس صبيحته الذهبية التي تتكشَّف عن مثلها صباحات الصيف، السفينة الضخمة التي انزلقت ببطء فوق مياه حوضٍ رائق فيما يُسمع لها صفير خافت سقيم.

ولم يكد المسافرون المنحنون فوق دربزين السفينة يميزون في الأفق قلعة دوقيات الأنجو Anjou الكابية حتى تصايحوا جذلاً بشتى

لهجاتهم الجنوبيّة وهم يشيرون إلى أماكن مألوفة تراءى لهم أنهم يعرفونها جيداً وإنْ لم تحضرهم أسماؤها. ولاحظت السنيورة برودانسيا لينيرو وكانت قد عقدت العديد من الصداقات أثناء الرحلة بين صفوف المسنّين، وتعهدت أطفالاً إنشغلت عنهم أمهاتهم بالرقص، وخاطت أيضاً زراراً لسترة النقيب البحري، بأن الأماكن لم تعد هي إياها وباتت متباعدة نائية، وتلاشى كل الأنس والدفء الإنساني الذي أتاح لها مغالبة أولى مشاعر الحنين عند إنقلاب المدارات. وتفتّت كل الشغف الأزليّ بالمدّ الصاخب عندما لاح المرفأ أمام ناظريها.

توهّمت السنيورة برودانسيا لينيرو، وهي التي تجهل طبيعة الإيطاليين المتقلّبة أن الألم يسكن قلبها وحده دون قلوب الآخرين. فهي المسافرة الوحيدة في رحلة الذهاب وسط مسافرين يقومون برحلة العودة. على هذه الشاكلة لأمراء، تتمّ كافة الرحلات، فكّرت وهي تكابد للمرة الأولى انقباضاً داخلياً يجتاح عادة جميع الغرباء فيما انصرفت من مكانها على المتن تتأمّل بقايا عوالم لا تُحصى انقرضت في القاع. بغتة أجفلتها صيحة رعب صدرت عن شابة حسناء وقفت إلى جانبها.

«Mamma Mia. صاحت الشابة وهي تشير إلى الأعماق، انظروا!»

تحت صفحة الماء رأت السنيورة برودانسيا لينيرو رجلاً غريقاً يطفو على ظهره. بدا لها كهلاً أصلع الرأس، تنمّ ملامحه عن وقار

فطريٌّ نادر. لعينيَّه الضاحكتين المبحلقتين لون السماء عند إنشقاق الضوء. كان يرتدي لباساً رسمياً ضيقاً وصداراً من البروكار وينتعل جزمة لمّاعة. وكانت زهرة الغادرينيا المشكولة بعروة سترته ما تزال نضرة. بيده اليمنى علبة مكعبة الشكل غُلِّفت بورق الهدايا وقد انقبضت أصابعه الفولاذيَّة الداكنة على شريطها المزخرف كآخر ما أمكنه التشبُّث به لحظة الموت.

«لا بُدَّ أنه سقط أثناء حفلة عرس» قال أحد الضباط، غالباً ما تشهد هذه المياه حوادث مثيلة خلال الصيف».

مرَّ ذلك عابراً لأن السفينة دخلت الجون في اللحظة نفسها. وأستأثرت شؤون أخرى أقل كآبة بإهتمام المسافرين. لكن السنيورة برودانسيا لينيرو واصلت التفكير بالغريق المسكين فيما تعلقت عيناها بتماوج بدلته الرسمية حيث خطت السفينة أثلاماً في الماء.

في الجون، وقفت جرَّارةٌ متداعية هبَّت للقاء السفينة وجرَّتها ما بين حطام السفن الحربية التي أُبيدت إبان الصراع، وبقدر ما كانت السفينة تتقدَّم وهي تشق طريقها وسط الردم الصدئة كانت المياه تستحيل راكدة كالزيت، والحرارة تشتعل بأشد من غليان ريوهاشا عند قيظ الظهيرة. بغتة انبثقت المدينة بأكملها من الطرف الآخر للقناة متألّقة تحت شمس الحادية عشرة بقصورها الخيالية وأكواخها العتيقة المتعددة الألوان والمتراصَّة فوق التلال. حينها، تصاعدت من الأعماق الهائجة رائحة عفونة لا تُطاق عرفت فيها السنيورة برودانسيا لينيرو ذات الفوح الكريه للسرطانات المتعفنة في فناء منزلها.

أثناء المناورات التي أقيمت لإرساء السفينة فجر المسافرون فيض بهجتهم وقد تعرفوا على عائلاتهم بين الحشود الهائجة في الميناء. ومعظمها كان من النساء المسنَّات ذوات الصدور الهائلة المحشورة في ثياب الحداد أتين بصحبة أكثر أطفال العالم عدداً وأجملهنَّ على الإطلاق يرافقهن أزواج صغار السّن، بالغو الحماس، ينتمون إلى ذاك الصنف الخالد من الأزواج الذين يقرأون الصحيفة بعد زوجاتهم ويحرصون برغم الحر على إرتداء البذلات الضيقة كبذلات كتبة العقود. وسط ذاك الضجيج الصاخب أخرج رجل هرم بان شديد الكآبة من جيوب معطفه الرث حفنات وحفنات من كتاكيت صغيرة تدافعت وتوزعت خلال ثوان لتملأ رصيف الميناء وهي تُطلق زقزقات مذعورة وتتراكض في كافة الإتجاهات لتفُلت بفضل غريزتها الحيوانيّة المدهشة من الدوس بأقدام الحشد الغافل عن المعجزة. ثم قلب الساحر قبّعته وألقى بها على الأرض. لكن أحداً من الركاب لم يتكرم برمي قطعة واحدة من المال.

بهرها المشهد الرائع الذي بدا أنه يُمثّل احتفاءً بها لأنها الوحيدة التي كانت تتابعه بإعجاب، حتى أنه ما كان بوسعها تحديد لحظة إقتراب العبَّارة. ولا متى تدفق السيل البشري فوق السفينة متصايحاً بحماسه له وقع صياح القراصنة عند الإغارة. وأحست السنيورة برودانسيا لينيرو وهي تتهالك فوق صندوق متاعها الخشبي ذي الزوايا المطليّة بالنحاس وقد أصمّتها صيحات الحبور، وزنخ البصل العفن يفوح من عائلات المسافرين. وحاصرها هرج الحمالين يتدافعون في

ما بينهم لنقل الأمتعة، بأنها مرصودة لموت مهين شبيه بإنسحاق الكتاكيت على رصيف الميناء. فشرعت تتلو حلقة لا تفرغ من الصلوات علّها تقيها إغواءات ومهالك أرض الكفرة تلك. هناك عثر عليها النقيب البحري بعد أن إنحسرت كارثة الضجيج، وخلت الردهة المقفرة من الجميع.

«لا يجدر بأحد (البقاء هنا، قال لها بشيء من الود. ما الذي أستطيعه من أجلك؟

ـ عليّ إنتظار القنصل، أجابت. وكانت تعني ذلك حقاً، فقد بعث ابنها البكر قبل إقلاع السفينة بيومين برسالة إلى القنصل يرجوه فيها إنتظارها في الميناء ومساعدتها على إنجاز معاملاتها للذهاب إلى روما، وزوّده بإسم السفينة وبساعة وصولها، وبأنه سوف يمكنه التعرُّف إليها من الثوب الفرنسيسكاني الذي ستضعه قبل نزولها البرّ. بدت شديدة الثقة بنفسها، حتى أن النقيب أذن لها بالإنتظار لبعض الوقت على الرغم من أن الطاقم كان يتأهب لتناول فطوره. والكراسي قد قُلبت فوق الطاولات تمهيداً لتنظيف المتن الذي أُغرق بالمياه. لذا لبث صندوقها الخشبي يتنقَّل من ناحية إلى أخرى كي لا يصيبه البلل، ولم يبدر عن السنيورة برودانسيا لينيرو بالمقابل ما ينمّ عن الكدر وهي تبدّل أمكنتها بين الفينة والأخرى، بل واصلت صلواتها من غير إنقطاع، إلى أن دُعيت لمغادرة الردهة. وألفت نفسها في النهاية تجلس تحت أشعة الشمس وسط زوارق الإنقاذ، حيث عثر عليها النقيب بعد نحو الساعتين تنضح عرقاً وتكاد تختنق

بسترة الغوص. وهي تتلو تسبيحاتها القانطة، ذلك أنها كانت تشعر بالكآبة والرعب وتغالب بمشقة فائقة رغبتها بالبكاء.

«عبثاً تواصلين صلواتك. قال لها النقيب بنبرة لا تحمل الودّ السابق عينه. ففي شهر أغسطس يكفُّ حتى الرب عن العمل».

أوضح لها أن نصف سكان إيطاليا يقصدون الشاطىء في مثل ذاك الوقت من السنة، لا سيما أيام الآحاد. ولا ريب أن مشاغل العمل صرفت القنصل عن التغيُّب. لكنه في مطلق الأحوال لن يكون في مكتبه قبل نهار الإثنين، وبأنه من الأوفق لها في مثل هذه الحالة أن تعثر على فندق تخلد فيه للراحة تلك الليلة ريثما تتّصل غداة اليوم التالي بالقنصلية التي ستجد رقم هاتفها في دليل الهاتف دون أدنى صعوبة تُذكر. لم يكن أمام السنيورة برودانسيا لينيرو خياراً أفضل مما اقترحه عليها النقيب الذي ساعدها على إنجاز إجراءات الهجرة والمعاملات الجمركية، ورافقها إلى مكتب الصيرفة قبل أن يودعها في سيارة أجرة مؤكداً على سائقها أن يقلّها بأي حال من الأحوال إلى فندق لائق.

إندفعت سيارة الأجرة القديمة التي تشبه عربة دفن الموتى متأرجحة في الشوارع المقفرة. وخطر للسنيورة برودانسيا لينيرو بغتة، أنهما ربما كانا الكائنين الوحيدين على قيد الحياة في مدينة للأشباح يسيران معلقين بسلك حديدي في قلب الشارع. وحدَّثت نفسها أيضاً بأنه يستحيل لرجل مثله يهذر بهذا المقدار وبمثل ذاك

الإنفعال أن يجد متسعاً من الوقت ليؤذي إمرأة وحيدة مسكينة جابهت مهالك المحيط ومخاطره لتحظى بمقابلة البابا.

بعد أن عبرا متاهة من الأزقة عادت ترى البحر، فيما تابعت السيارة جولتها كيفما اتفق على إمتداد شاطىء لاهب ومُقفر تُسيّجه فنادق صغيرة لا تُحصى تعدّدت ألوانها، لم يتوقف السائق أمام أيّ منها بل أتجه مباشرة صوب فندق إحتجب مقابل الحديقة العامة حيث انبثقت أشجار نخيل شامخة وتوزعت مقاعد طُليت باللون الأخضر. ألقى السائق بالصندوق فوق الرصيف الظليل وهو يؤكد للسنيورة برودانسيا لينيرو بعد أن لاحظ تردّدها أنه أكثر الفنادق احتشاماً في نابولي.

رفع حمّال أمتعة لطيف، جميل الطلعة الصندوق فوق كتفيه واضعاً نفسه بتصرف السيدة. ثم تقدمها حتى القفص الحديدي للمصعد الذي وُضع إرتجالاً في منتصف السلالم وشرع يدندن بأعلى صوته بلحن بوتشيني Puccini بجرأة تبعث على الضيق. كان البناء قديماً وقد رُمّمت طوابقه التسعة بعد أن تحوّل كل منها إلى فندق مستقل. للحظة قصيرة استبدّ بالسنيورة برودانسيا لينيرو وهم الشعور المفاجىء بأنها سجينة قفص للدجاج يصعد ببطء وسط السلالم الرخامية الكامدة مباغتاً البعض في داراتهم منصرفين بسراويلهم القصيرة الممزقة إلى أشد شؤونهم حميميّة متجشئين حوامضهم المعويّة.

عند الطابق الثالث انتفض المصعد بقفزة فجائية قبل أن

يتوقف. فكفّ الحمّال عن الغناء ودفع مزلاق الباب، ثم بإنحناءة ظريفة مبجّلة أشعر السنيورة برودانسيا لينيرو بأنها باتت في دارها.

وراء مكتب الإستقبال المصنوع من الخشب المزخرف بقطع زجاجية متعددة الألوان، تحاذيه أصص نحاسية زُرعت فيها نباتات انتشر لها فيء لطيف لمحت مراهقاً حالماً إستظرفته على الفور، ذلك أنه كان يشبه أصغر أحفادها. استظرفت أيضاً اسم الفندق المحفور على لوحة برونزية. وراقت لها رائحة حامض الفينيق والسرخسيات المتدلّية، والسكون الطاغي، وزهور الزنبق المطبوعة على ورق الجدران، كادت تهم بتجاوز عتبة المصعد حين انقبض صدرها بغتةً، فعلى صف طويل من الأرائك كان يسترخي عدد من السياح الإنكليز بسراويل قصيرة وصنادل للشاطىء. أحصتهم سبعة عشر يرقدون في وضعية متشابهة. تراءوا لها شخصاً واحداً إنعكست صورته تكراراً في مرايا قاعة للعرض. ولم يكن بوسع السنيورة برودانسيا لينيرو التمييز بينهم. لكن الأمر الوحيد الذي أثار ضيقها، هو ذلك الخط الطويل من الرُكَبِ الورديّة التي ذكّرتها بعراقيب الخنازير المعلّقة بالكلابات في متجرٍ للحوم. جمدت في مكانها قبل أن تتراجع مرتعدة لتدخل المصعد ثانية.

«لنذهب إلى فندق آخر، قالت.

ـ هو الفندق الوحيد الذي يضمُّ قاعة للطعام سيدتي، قال الحمال.

ـ سيان عندي. أجابت».

فبدرت من الحمّال حركة تنمّ على الخضوع. ثم تابع الأغنية حتى نهايتها وهو يصعد بإتجاه الطابق الخامس، حيث بدا كل شيء مختلفاً. فصاحبة الفندق سيدة مهيبة إحتفظت بنضارتها. تتكلم الإسبانية بطلاقة. وليس في الرواق ثمة من يرقد على الأرائك الخالية. واقعاً لم يكن هناك قاعة للطعام لكن الفندق عقد اتفاقاً مع نزل مجاور يؤمن للزبائن طلباتهم بأسعار متهاودة الأمر الذي جعل السنيورة بروداِنسيا لينيرو تقرر البقاء لقضاء الليل سيما وأنها إستكانت لفصاحة صاحبة الفندق ولخفة روحها إضافة لشعورها بالعزاء حين لم تلمح إنكليزياً واحداً بركبتين ورديتين يغفو في الرواق.

كانت الساعة قد بلغت الثانية ظهراً، وكانت مغاليق النوافذ في الغرفة موصدة وقد سادها السكون وما يشبه الظلّ المنعش كدغلٍ سريّ يحلو فيه البكاء. حالما انفردت في الغرفة، أغلقت السنيورة برودانسيا لينيرو مزلاجيّ الباب. وللمرة الأولى منذ بدء النهار أفرغت بمشقة بالغة دفعة صغيرة من البول سمحت لها بإستعادة ما فقدته من حيويتها الفائقة خلال الرحلة. ثم نزعت صندلها وفكّت حزامها وتمدّدت على جنبها الأيسر ناحية القلب فوق السرير الزوجي الضخم، الذي بدا عريقاً للغاية ومتّسعاً للغاية ليضمّها وحدها دون شريك آخر. وأرخت العنان هذه المرة لسيل مختلفٍ من الينابيع، سيل دموعها التي حبستها زمناً طويلاً.

كانت تلك، هي المرة الأولى التي تغادر فيها ريوهاشا. وكانت

أيضاً بصورة خاصة واحدة من المرات النادرة التي تغادر فيها منزلها منذ زواج أبنائها ورحيلهم. ذلك أنها كانت قد ألفتْ نفسها وحيدة بصحبة هنديتين باثستين تعينانها على الإهتمام بجسد زوجها المريض الراقد بلا حراك. في مخدع الزوجية أضاعت نصف حياتها بالقرب من السرير الضخم الذي ضمَّ بقايا الرجل الوحيد الذي أحبته دائماً والذي دام في غيبوبته نحو ثلاثين عاماً مضطجعاً في سرير حبهما الفتيّ على فراش من صوف الماعز.

في شهر أوكتوبر الأخير أفاق المريض من غيبوبته في حالة صحو فجائية. وتعرّف على أنسبائه المحيطين به فالتمس استدعاء مصور. أُتي بمصوّر الحديقة العامة العجوز الذي كان يستخدم آلة ضخمة بمنفاخ ومنديل أسود ويستعين لصور الداخل بحوض المانيزيوم. وتولّى المريض شخصياً توجيه عملية التصوير «صورة من أجل برودانسيا لقاء الحب والسعادة اللتين وهبتني إياهما في حياتي» قال وهو يستسلم لأول ومضة «صورتان من أجل ابنتيّ المحبوبتين برودانسيتا وناتالي» واستسلم للومضة الثانية «صورتان أخريان من أجل أبنائي. مثال العطف والرشاد في عائلتنا» واستمر على هذا المنوال إلى أن انعدمت الورقة وتوجّب على المصور العودة إلى منزله ليأتي بأوراق أخرى.

في الرابعة مساءً، وكانت الغرفة قد اختنقت ببخار المانيزيوم وضاقت بجلبة الأهل والأصدقاء والمعارف الذين تزاحموا لإلتقاط الصور لهم، خارت قوى المريض في سريره فاستأذن من الجميع

ملوّحاً بيده كما لو كان يودّع العالم من فوق دربزين سفينة.

لم يحمل موته للأرملة العزاء الذي توخّاه الجميع، بل على النقيض تماماً أسلمها لحزن شديد دفع أبناءها للتشاور في ما بينهم بغية سؤالها عما يستطيعونه من أجل مؤاساتها فأجابتهم بأنها لا ترغب سوى بأمر واحد: الذهاب إلى روما لرؤية قداسة البابا «سأذهب بمفردي، بثوب القديس فرانسوا. هو نذر قطعته على نفسي».

من سنوات الأرق تلك، لم تحتفظ سوى بمتعة البكاء فقط. كانت في السفينة تطيل المكوث في المراحيض لتمارس متعتها هذه من غير أن يراها أحد، فقد قاسمتها القمرة راهبتان من أخوية القديسة كلير كانتا تقصدان مارسيليا. لذا وجدت في غرفة الفندق في نابولي أول ركن آمن تلوذ به منذ رحيلها عن ريوهاشا حيث يمكنها أخيراً أن تذرف الدمع كما تشتهي. وربما كان بوسعها مواصلة البكاء حتى ساعة سفرها في قطار روما غداة اليوم التالي لو لم تطرق صاحبة الفندق بابها في السابعة مساءً لتنذرها بأن العشاء سوف يفوتها إن لم تقصد النزل المجاور قبل الأوان.

رافقها خادم الفندق. على الطريق هبت من عرض البحر نسمة باردة، وكان بعض المستحمّين قد لازموا الشاطىء حتى الرمق الأخير لشمس ذاك النهار. تعقّبت السنيورة برودانسيا لينيرو الخادم في متاهة الأزقة الضيقة والمنحرفة التي إستفاقت لتوها من سبات عطلة الأحد. وألفت نفسها فجأة تحت تعريشة ظليلة حيث مُدّت طاولات مغطاة بشراشف ذات مربعات صغيرة حمراء ومزينة بأباريق زجاجية حُوّلت

إلى مزهريات نُسِّقت فيها ورود ورقية. لم يكن في النزل تلك الساعة غير الخدم وكاهن بالغ البؤس إنتحى زاوية بعيدة وشرع يأكل خبزاً وبصلاً.

أحست عند دخولها أن الأنظار تنصبُّ على ثوبها القطني الفضفاض، ولم يسؤها ذلك، فقد كانت تدرك بأن سخرية الآخرين إنّما هي جزء من التكفير عن الذنوب. بالمقابل شعرت بشيء يشبه الرثاء تجاه النادلة، ذلك أنها كانت شابة جميلة شقراء لصوتها رنين كالغناء. وفكرت السنيورة برودانسيا لينيرو في سرّها بأن إيطاليا ما بعد الحرب تعيش على ما يبدو أوضاعاً متردّية مما يُرغم شابة بمثل هذا الحسن على الخدمة في النزل. مع ذلك شعرت بالراحة تحت سقف العريشة المزهرة، وأيقظت رائحة الغار وقديد التوابل المتسرّبة من المطبخ شهيتها التي فقدتها خلال نهارها الحافل بالهموم، وللمرة الأولى منذ زمن بعيد لم تلحّ عليها الرغبة بالبكاء. غير أنه لم يكن بوسعها أن تأكل حسب مشتهاها، منه لأنها عجزت عن التفاهم مع النادلة الشقراء برغم ما أظهرته هذه الأخيرة من لطف وطول أناة، ولأن الطبق الوحيد المتوفّر من اللحوم كان عبارة عن طيور صغيرة غريدة كتلك التي يربيها سكان ريوهاشا داخل الأقفاص. إلى أن عرض الكاهن الذي كان يأكل وحيداً في الزاوية أن يلعب بينهما دور المترجم موضحاً للسنيورة برودانسيا لينيرو أن أوروبا ما تزال تعاني من الضائقة التي خلّفتها الحرب بحيث يجدر بها أن تعتبر الحصول على طبق من طيور الغابة ضرباً من الإعجاز لكنها أصرت على الرفض.

«بالنسبة لي. سوف يبدو الأمر كما لو كنت ألتهم أحد أبنائي». قالت. وقنعت بحساء من الشعيرية وطبق من الكوسى المسلوقة إلى جانب شريحة من لحم الخنزير الدسم وقطعة من الخبز المتحجّر كالرخام. وفيما إنصرفت لطعامها دنا الكاهن منها ملتمساً كرمها لتجود له بكوب من القهوة، ثم جلس إلى طاولتها. كان يوغسلافياً ساهم في ما مضى بالبعثات الدينية في بوليڤيا. وكان يتكلم الإسبانية بصعوبة وبأسلوب متأنّق. وقد رأت فيه السنيورة برودانسيا لينيرو شخصاً عادياً حُرم من الرأفة. ولاحظت يديه الخشنتين وأظافره المتآكلة القذرة، ولهاثة المشبع برائحة البصل العفن حتى لكأنها ظلّ دائم يلازمه. لكنه كان بالنسبة لها برغم كل شيء خادماً من رعية الرب. وقد أسعدها لقاء غريبٍ بعيد عن دياره تتجاذب معه أطراف الحديث.

تحادثا بهدوء، غير آبهين بالضوضاء الصاخبة التي أخذت تحاصرهما بعد أن امتلأت الطاولات المجاورة بالزبائن. وكانت السنيورة برودانسيا لينيرو قد جاهرت أمامه من قبل برأيها صراحة ببلدٍ كإيطاليا، هي لا تحبها ليس فقط لأن رجالها يتّصفون بالجسارة وهو ما كانت تعتبره تجاوزاً. أو لأنهم يطهون الطيور الغريدة في مطاعمها وهو ما تستنكره بشدة وتراه تجاوزاً مفرطاً. بل لأنهم اعتادوا أن يتركوا جثث غرقاهم ليجرفها التيار. وحاول الكاهن الذي طلب لنفسه إضافة إلى كوب القهوة قدحاً من العرق على نفقتها أن يبرهن لها كم ينطوي عليه حكمها من خفّة. مشيراً إلى أنهم عيّنوا

إبان الحرب دائرة مختصة ناشطة للغاية مهمتها إنتشال الغرقى الذين كانت جثثهم تطفو صباحاً في خليج نابولي، ثم التحقق من هوياتهم وتأمين مدافن مسيحية لهم. «منذ قرون خلص الكاهن قائلاً، أدرك الطليان بأنهم لن يملكوا حياة أخرى بعد الموت، لذا حاولوا ما وسعهم عيش حياتهم على أفضل صورة، وهو ما غلَّب عليهم طابع التقلُّب وجعلهم يحسنون تقدير العواقب. بالمقابل صرفهم هذا عن رذيلة القسوة.

«لكن السفينة تابعت سيرها وكأن شيئاً لم يكن. قالت.

ـ إطلاقاً، فقد أبلغوا السلطات المختصَّة في المرفأ عبر اللاسلكي أجاب الكاهن. ولا بُدَّ أن جثة الغريق قد انتشلت الآن ودفنت كما يدفن المسيحي المؤمن».

رطَّب الحديث مزاجهما، ولم تلحظ السنيورة برودانسيا لينيرو إلاَّ بعد أن أنهت عشاءها بأن النزل يعجُّ بالزبائن، وأن الطاولات المجاورة يحتلُّها سياح نصف عراة كانوا يأكلون بعمق فيما استغرق بعضهم في عناق العشاق عازفين عن الطعام. وفي وسط القاعة قعد بمحاذاة المبسط بعض سكان الحي يلعبون بالنرد ويحتسون نبيذاً لا لون له. وأدركت السنيورة برودانسيا لينيرو أن حافزاً وحيداً فقط يُقعدها عن الرحيل عن ذاك البلد العاق.

«أتعتقد أني سأجد صعوبة في مقابلة البابا؟». سألت. طمأنها الكاهن أن الأمر سهلٌ لاسيّما في الصيف، فالبابا يصطاف في

كاستلغندولفو Castelgandolfo وقد خصّص لبعد ظهر الأربعاء جلسة عامة يستقبل خلالها كافة الحجاج القادمين من أقطار العالم. ولن يكلّفها الحضور أكثر من عشرين ليراً.

«وكلفة الإعتراف كم تبلغ»؟ سألت.

ـ لا يمنح قداسة الباب أحداً بركة الإعتراف، أجاب الكاهن مستنكراً سؤالها. بإستثناء الملوك بالطبع.

ـ لا أدري مبرراً يدعوه لحجب بركته هذه عن امرأة مسكينة قصدته من أقاصي الأرض. علّقت قائلة:

ـ ثمة ملوك غيَّبهم الموت وهم بالإنتظار. مع أنهم ملوك. قال الكاهن. لكن هلا أخبرتني أيُّ إثم رهيب ارتكبته لتتكبّدي وحيدة مشقة مثل تلك الرحلة طمعاً بالإعتراف فقط أمام قداسته؟».

فكرت السنيورة برودانسيا لينيرو قليلاً. وللمرة الأولى لاحظ الكاهن أنها كانت تبتسم.

«Ave maria purisima. قالت: كنت لأكتفي برؤيته فقط. ثم أضافت وهي تزفر تنهيدة بدت كأنها تصدر من أعماق كيانها. «إنه حلم حياتي!».

في الواقع لم تكن الكآبة قد بارحتها بعد ولا إنزاح عنها الغمُّ. ولم تكن ترغب سوى بمغادرة المكان والرحيل فوراً من إيطاليا. تركها الكاهن وهو يتمنّى لها حظًّا موفّقاً، وقد تراءى له أنه لن يجني

في أغلب الظن نفعاً منها بعد. ثم اتجه نحو طاولة أخرى يستجدي كوباً آخر من القهوة.

عندما خرجت السنيورة برودانسيا لينيرو من النزل، رأت أمامها مدينة أخرى. أدهشها شعاع الشمس الساطع في التاسعة ليلاً. وفزعت إذ إصطدمت بالحشد الصاخب يغزو الشوارع لينعم برطوبة الهواء الذي هبَّ من جديد. فتساءلت كيف يسعهم العيش وسط فرقعات الدراجات النارية المجنونة يقودها رجال نصف عراة وقد تشبَّثت بهم من الخلف فوق حاملات الأمتعة فتيات بارعات الحسن. يشقّون بها الطريق قافزين، متلوِّين كالبهلوانات بين بسطات البطيخ الأحمر ولفائف الجنبون المتدلِّية.

كان جوُّ الشارع يفيض بالبهجة لكنه بدا بالنسبة للسنيورة برودانسيا لينيرو منذراً بالكوارث. تاهت في الزحمة وبغتة، وجدت نفسها تنفذ إلى شارع سيِّيء السمعة، حيث كانت تجلس نساء صموتات أمام منازل متشابهة جعلها وميض أنوارها الحمراء ترتعد هولاً. وتعقَّبها على مسافة بضع مئات من الأمتار رجل أنيق اللباس يضع في أصبعه خاتم من الذهب المُصمَّت، ويشكل في ربطة عنقه دبوساً ماسيّاً، حاول مخاطبتها بالايطاليّة ثم بالإنكليزية والفرنسية، وحين لم يلق منها تجاوباً أبرز لها باطاقة أخرجها من جيبه مع بطاقات أخرى فأدركت من الإلتفاتة الأولى أنها عبرت أبواب الجحيم.

لاذت بالفرار مصعوقة. وعند طرف الشارع عادت ترى البحر

الغسقي من جديد. وزكمت أنفها رائحة عفونة الأصداف النتنة في مرفأ ريوهاشا، فتنفّست الصعداء وقد عاد إليها روعها. على الشاطىء المقفر لاحت لها الفنادق المبقّعة بالألوان، والسيارات المأتميّة، وألق أول نجمة رصّعت قبّة السماء وفي وسط الجون الصغير ميّزت الباخرة التي أتت على متنها ترسو وحيدة بمحاذاة الرصيف وقد تلألأت بالأنوار، وفكرت بأنه لم يعد ثمة ما يربطها بحياتها. إنعطفت يساراً لكنها توقّفت عن متابعة طريقها وذلك أن دورية من الجنود كانت قد قطعت السير لتخلي الشارع من الفضوليين، ولاحظت بأن صفاً من سيارات الإسعاف مشرّعة الأبواب تقف أمام الفندق الذي تقيم فيه.

تطاولت السنيورة برودانسيا لينيرو على أطراف أصابعها. مرة أخرى لمحت من فوق مناكب المتسكعين السياح الإنكليز. كانوا يخرجون بهم من الداخل واحداً تلو الآخر مسمّرين على المحامل من غير حراك وهم بلباسهم الأنيق الذي تزيّوا به خصيصاً للعشاء. كان مؤلفاً من سروال صوفيّ وربطة عنق ذات خطوط مائلة وسترة قاتمة تحمل شارة ترينيتي كوليج Trinity Collège خيطت فوق الجيب مباشرة على مستوى الصدر. من جديد تراءوا لها شخصاً واحداً تنعكس صورته في أكثر من مرآة. وكما في مدرج رياضي، كانت أصوات الجيران الذين أطلوا على الشرفات تختلط بأصوات الفضوليين المحتشدين في الشارع لتحصي عددهم كلما لاح محمل جديد، حتى بلغوا سبعة عشر. حُشِر كل اثنين منهم داخل سيارة

إسعاف، ثم انطلقت بهم القافلة وهي تطلق صفّاراتها الشبيهة بصفارات الإنذار في أوقات الحرب.

دلفت السنيورة برودانسيا لينيرو وقد إستبدّ بها رعب هائل إلى المصعد المزدحم بزبائن الفنادق الأخرى، الذين تابعوا هذرهم بلغاتٍ مبهمة، واستوقفوا المصعد عند كل طابق بإستثناء الطابق الثالث الذي فُتحت أبوابه وأضيئت أنواره، على أن مكتب الإستقبال كان خالياً كذلك أرائك الرواق حيث رأت مساء أمس الركب الوردية لسبعة عشر انكليزياً نائماً. عقّبت صاحبة الفندق في الطابق الخامس على الحادث المفجع بهياج إنفعالي.

«ماتوا جميعاً مسممين بحساء المحار عند العشاء. محارٌ في شهر أغسطس هل يسعك تصوُّر ذلك؟». قالت للسنيورة برودانسيا لينيرو بالإسبانية ثم وقد سلّمتها مفتاح الغرفة إلتفتت صوب بقية الزبائن تخاطبهم باللغة المحلية. «كوننا لا نملك قاعة للطعام يدعو الزبون للنوم قرير العين لا يخشى الموت أثناء رقاده».

مرة جديدة غصّت السنيورة برودانسيا لينيرو بالبكاء وهي تنفرد بنفسها في الغرفة وتغلق الرتاج بعد أن دفعت بالأريكة لصق الباب وجعلت من حقيبتها الخشبية سداً منيعاً تحصّنت وراءه لتتقي أهوال تلك البلاد حيث يجري أكثر من حادث مشؤوم في آن واحد. ثم زرّرت قميص نومها الأرمليّ واستلقت على ظهرها تتلو سبع عشرة صلاة لراحة نفس سبعة عشر إنكليزياً ماتوا مسمّمين.

الشهر الرابع 1980م.

صيف مدام فورب السعيد

عند أوبتنا إلى المنزل ذات مساء، عثرنا على ثعبان بحريٍّ ضخم سُمِّر عنقه بإطار الباب. كان أسود اللون يشع بوميض فوسفوريّ. يذكر مرآه بعينيه اللتين ما تزالان نابضتين بالحياة، وأسنانه المنشاريّة وفكّيه المنفرجين بِرُقيّةٍ غجريّة شريرة. كنت في التاسعة آنذاك، وقد اعتراني حينها رعب جامح حيال تلك الرؤية الهذيانيّة بحيث شعرت بصوتي يتقطّع. فيما رمى أخي الذي يصغرني بعامين، بقوارير الأوكسجين ومجاذيف القدم المطاطيّة وأقنعة الغوص ولاذ بالفرار وهو يطلق صيحة هلع. من على السلّم الحجري المتعرّج والمرتفع بمحاذاة الصخور العالية الفاصلة ما بين المنزل ورصيف الركوب سمعت مدام فورب صيحته فإندفعت بإتجاهنا لاهثة ممتقعة الوجه. وأكتفت برؤية الحيوان المصلوب لتدرك سبب ذعرنا. كان يروق لها القول إنه حين يجتمع صبيّان معاً يغدو كلاهما مسؤولاً عما يُقترف من ذنوب أياً يكن منهما الفاعل. بحيث أنها ما تورعت عن تأنيبنا جزاء صيحة أخي. كما لامتنا لعدم رباطة جأشنا. وقد خاطبتنا بالألمانية عوضاً عن الإنكليزية حسب ما نصّت عليه شروط

عملها كمدرّسة، ربما لأنها كانت هي الأخرى تشعر بالخوف ولم تكن راغبة في الإفصاح عن ذلك. غير أنها ما كادت تستردّ أنفاسها حتى عادت تخاطبنا بالإنكليزية الجشّة Rociellcue وقد طغى عليها هاجسها التربوي.

«إنها سمكة من جنس Muraenahelna، قالت لنا، وقد سُمّيت كذلك كونها كانت في عرف الإغريق حيواناً مقدّساً».

بغتةً برز أورست Oreste من خلف أجمّة من نباتات الكِبَر Câpries، وهو شاب يقطن الجزيرة تولى تعليمنا السباحة في الأعماق. كان يضع قناع الغوص وقد رفعه فوق جبهته، ورداءً صغيراً للبحر وحزاماً جلدياً شُكّلَت فيه ست مديات من أشكال وأحجام مختلفة، ذلك أنه ما كان يتصوّر أن للصيد في الأعماق أسلوباً آخر خلاف مجابهة وحوش البحر وجهاً لوجه. كان في العشرين من عمره، يصرف جلّ وقته تحت الماء، يشبه جسده الملطّخ دوماً بزيت المحرك جسد حيوان بحري. حين التقته مدام فورب للمرة الأولى أعلنت أمام ذوينا أنه من المستحيل تخيُّل كائن بشري يفوقه ملاحةً. إلاّ أنّ ذلك لم يَشْفع له أو يُجنّبه الملامة فقد كان عليه هو الآخر تحمُّل تأنيبها له بالإيطالية جزاء فعلته حين سمَّر الثعبان أبو مريشة بإطار الباب لا يدفعه إلى ذلك سوى الرغبة بإخافة الصبيين، وقد أنذرته بعدها بوجوب إنزال الثعبان باحترام يليق بمخلوق أسطوريّ، ومن ثمَّ دعتنا لإرتداء ملابسنا إستعداداً للغداء.

نفَّذنا في الحال ما دعتنا إليه، ساعين لعدم إرتكاب أية هفوة

أخرى، ذلك أننا كنا قد أدركنا في غضون أسبوعين أمضيناهما تحت رعاية مدام فورب أن العيش معها هو الشأن الأصعب على الإطلاق.

تحت مياه الدوش، ووسط غبش غرفة الإستحمام أدركت أن أخي ما يزال يُفكّر بأبي مريئة.

«كانت له عيونٌ تشبه عيون البشر». قال لي وكنت في سرّي أوافقه غير أني أقنعته بالعكس. ونجحت في تحويل الموضوع ريثما انتهيت من الإستحمام، لكنه سألني عقب ذلك البقاء إلى جانبه وملازمته.

«لا زال الوقت نهاراً» قلت.

وأزحت الستائر. كنا في منتصف شهر أغسطس، وكنا نرى عبر النافذة السهل الكئيب المُحرق يترامى حتى الطرف الآخر من الجزيرة، والشمس كما لو كانت تتدلّى من السماء.

«ليس لهذا السبب، فقط لأني أخشى من الشعور بالخوف». قال.

غير أنه بدا حين جلسنا إلى المائدة أوفر هدوءاً، وقد حظيت العناية التي صرفها على زينته بتنويه خاص من مدام فورب، وعلامتين إضافيتين تشجيعاً لحسن سلوكه خلال الأسبوع. في المقابل انتزعت مني علامتين من أصل خمسٍ كنت حصلت عليهما بحجة أني بلغت قاعة الطعام لاهثة الأنفاس. ذلك أنني كنت قد أسلمت نفسي في اللحظة الأخيرة للإستعجال. وكان إحراز خمسين

علامة يجيز لنا الحصول على حصة مضاعفة من الحلوى، غير أن كلينا ما وُفِّق قط في تجاوز خمس عشرة علامة، وهو ما اعتبرناه مدعاة للأسف لأننا ما حظينا مرة بأشهى من حلوى البودينغ التي تعُدُّها مدام فورب.

قبل الجلوس إلى المائدة. كنا نقف للصلاة أمام أطباقنا الفارغة. ولم تكن مدام فورب كاثوليكيّة، لكن عقدها كمربية كان يملي عليها دعوتنا للصلاة ست مرات في اليوم. وقد حفظتها عن ظهر قلب وفاءً منها بإلتزامها. ثم كنا نجلس نحن الثلاثة، وفيما نحبس أنفاسنا، تشرع هي في تفحّص مظهرنا بدقة تطول أتفه التفاصيل وأدقها حتى إذا اطمأنت لحسن إنضباطنا ضغطت زر الجرس. فتُطلّ الطاهية فولڤيا فلامينيا حاملة الشريدة الأزلية بالشّعيريّة، غِذاء ذاك الصيف المقيت.

في البداية، حين كنا ما نزال بصحبة ذوينا، كان تناول الإفطار ممتعاً يشبه الإحتفال. وكانت فولڤيا فلامينيا Fulvia Flaminea تقدم لنا الفطور وهي تقوقأ حول المائدة مبدية ميلاً إلى الفوضى كنا نبتهج له، ثم تشاركنا الجلوس إلى المائدة وينتهي بها الأمر إلى النقر من أطباقنا. غير أنها أخذت مذ تسلّمت مدام فورب قيادنا تقدّم لنا الطعام وسط صمت مُطبق كنا نُصغي معه إلى قرقرة الحساء وهو يغلي في القدر. كنا نأكل وقد إلتحم عمودنا الفقري بظهر المقعد نمضغ عشر مرات من جهة وعشراً أخرى من الجهة المقابلة محملقين بتلك المرأة الخريفيّة الشرسة والسقيمة وهي تتلو عن ظهر

قلب عظتها في الكياسة والأدب لشدّ ما كانت تشبه قدّاس الأحد حين يخلو من سلوى الغناء.

يوم عثرنا على أبي مريثة مُسمَّراً بالباب، حدثتنا مدام فورب حول الواجبات حيال الوطن. فيما بدت فولڤيا فلامينيا Fulvia Flaminea كالعائمة في فضاء يتخلخل بفعل صوتها. وهي تقدم لنا بعد الثريدة مباشرة طبقاً من الفتيلة المشوية من لحم Nivéeme فاحت له رائحة شهية. أنا الذي كنت أؤثر لحم السمك على أي غذاء آخر في الأرض أو في السماء شعرت بقلبي يُثقل بذكر منزلنا في غواكامايال Guacamayal لكن أخي نحا طبقه جانباً من غير أن يتذوق ما فيه.

«لا أرغب في هذا الطعام»، قال.

قطعت مدام فورب عظتها.

«لا يمكنك أن تجزم. حتى أنك لم تتذوقه». ثم حدَّقت بالطاهية تطلب مؤازرتها لكن الأوان كان قد فات.

ـ أبو مريثة أذكى أسماك العالم مذاقاً Figlio mio علَّقت فولڤيا فلامينيا Fulvia flaminea. ذقْ وسترى».

لم تتكدَّر مدام فورب البتة. روت لنا أمنية لأسلوبها الصارم كيف كان الملوك في العصور الغابرة يتلذّذون بلحم أبي مريثة. وبأن المحاربين كانوا يتنافسون للحصول على مرارته لما تغذّيه فيهم من شجاعة فائقة. ثم كرَّرت كما تفعل غالباً بين حين وآخر أن الذوق السليم لا يعتبر فضيلة فطرية، في المقابل من المجدي فرضه منذ

الطفولة. إذ لا نفع في تعلُّمه متى تجاوزنا سناً معيّنة. بحي
بعد ثمة مبرر مشروع للإمتناع عن الطعام. ولم أستطع
تذوقت السمك قبل أن أعلم من أي نوع هو التحرر
التناقض الذي انتابني. فقد كان له مذاق آسر يمازجه
المرارة، إلاّ أن صورة أبي مريئة مسمّراً بأعلى الباب غلبت

إزدرد أخي اللقمة الأولى رغماً عنه ويجهد يفوق إح
لم يتمكن من الإحتفاظ بها فتقياً.

- إمضِ إلى الحمام، قالت مدام فورب من غير أن
جفن، اغتسل وعد للطعام».

إعتراني شعور بالقلق ذلك أني كنت أدرك تماماً كم س
إجتياز كافة أرجاء المنزل وسط ظلام يتزايد، والبقاء و
الحمام طيلة الفترة التي يستدعيها اغتساله. غير أنه سرعا
شاحباً مرتدياً قميصاً نظيفاً. تأخذه رعشة خفيفة. وهكذا إج
الإمتحان الصارم لنظافته. عندها قطعت مدام فورب ش
السمك ثم أمرته باستئناف طعامه. ابتلعت اللقمة الثان
قصوى، فيما مكث أخي جامداً من غير أن يمسس الـ
السكين.

«لن آكل من هذا». قال.

أتى جوابه حازماً مما حمل مدام فورب على الزوغان

«حسناً! قالت لكنك ستُحرم من الحلوى».

زودتني الرغبة بمُوازرة أخي بشيء من جرأته فشبكت

والسكين في طبقي وهو ما أملت علينا مدام فورب القيام به حين يفرغ الطبق ثم قلت:

«أنا أيضاً سأحرم من الحلوى».

ـ «إذاً، لن تشاهدا التلفاز». أردفت.

ـ لن نشاهده». قلت.

وضعت مدام فورب فوطتها على الطاولة، فوقفنا نحن الثلاثة للصلاة. ثم دعتنا للنوم وهي تحذّرنا بأن علينا الإستسلام للرقاد في فترة لا تتجاوز الوقت الذي يقتضيها لتفرغ من وجبتها، وبأنها ألغت كل علاماتنا الجيدة، كما أنذرتنا بوجوب تحصيل عشرين علامة ليحق لنا بعدها من جديد تذوق الكاتو بالكريما، والبسكوت بالفانيللا، والكعك اللذيذ بالخوخ. ذاك الذي ما حظينا قط بمثل نكهته الشهية.

عاجلاً أم آجلاً، حريٌّ بنا الوصول إلى مثل تلك القطيعة. لقد مكثنا طيلة عام بكامله نرتقب بلهفة فائقة حلول هذا الصيف حرّاً بلا قيود على جزيرة بنتالاريا Pantalaria في أقصى الجنوب الصقلّي Sicile. وعلى هذا النحو أمضينا الشهر الأول من الإجازة بصحبة ذوينا. أذكر كما في حلم، السهل الشمسي بصخوره البركانيّة، والبحر الأزلي والمنزل ودرج مدخله المطليّ بالكلس، ونوافذ كنا نرنو عبرها إلى ليالٍ يسكن فيها الهواء، وإلى المراوح المضيئة لمنارات أفريقيا.

كنا برفقة أبي نستكشف الأعماق الساكنة المحيطة بالجزيرة

حين عثرنا على مجموعة من الطوربيدات صفراء اللون بقيت من الحرب الأخيرة. ووقعنا على جرّة إغريقية يُقدَّر ارتفاعها بنحو المتر، زيّنت بنقوش شريطيّة مدهشة، كان يرقد في قعرها ثفل خمر مسموم لا تعي الذاكرة تاريخه. وكنا نسبح في جون يتصاعد منه البخار، وتكثف مياهه حتى ليمكن المشي فوقها. غير أن أروع اكتشافاتنا على الإطلاق كانت، فولڤيا فلامينيا Fulvia Flaminea. كان لها مظهر مطران سعيد. تظهر دوماً وبين ساقيها تتسكع عصابة من الهررة المسترخية تُعيق خطاها لكنها تدعي التغاضي عنها ليس بدافع الحب وإنما لحجة أنها تحول دون أن تلتهمها الجرذان.

في المساء، وفيما ينصرف ذوونا لمتابعة برامج خاصة بالبالغين على التلفاز، كانت فولڤيا فلامينيا Fulvia Flaminea تصطحبنا إلى منزلها الكائن على بعد نحو مئة متر من منزلنا. حيث تعلّمنا التعرّف إلى اللغات المحلّية القديمة، والأغاني أو عصفات نحيب الريح التونسيّة. وكان زوجها دونها سناً بكثير من الأعوام يعمل طيلة الصيف في الفنادق السياحية، في الطرف الآخر من الجزيرة، ولا يؤوب إلى المنزل لغير النوم.

كان أورست يعيش مع أهله أبعد قليلاً، ويعود على الدوام مساء، بقطيع من الأسماك، وسلال ملأى بكركند اصطيد لساعته. يعلّقها في المطبخ ليتولى زوج فولڤيا فلامينيا بيعها لأصحاب الفنادق غداة اليوم التالي.

ثم يأتي لإصطحابنا وقد رفع فانوس الغوص إلى جبينه لنصطاد

معاً دَثيمات ضخمة كالأرانب كانت تتوارى متربصة بفضلات المطابخ. وكنا في بعض الأحيان نعود بعد أن يخلد ذوونا للرقاد فيجافينا النوم غالباً، بسبب الضوضاء الناجمة عن القوارض تتنازع فضلات الطعام في صحن الدار. غير أن هذه المنغّصات شكّلت جزءاً لا يتجزّأ من سحر صيفنا السعيد.

لم يكن القرار بإستخدام مدرّسة ألمانية ليأتي سوى من جانب أبي. وكان كاتباً كاريبيًّا يملك من التباهي ما ليس له من الموهبة. يبدو دوماً وقد سحرته مخلّفات الأمجاد الأوروبية، توّاقاً لضرب الصفح عن أصوله في مؤلفاته وحياته على حدٍّ سواء. وقد صمّم تصميماً كاملاً على أن يمحو من أذهاننا كل أثر لماضيه. أما أمي فقد مكثت طيلة حياتها صاغرة لمهنتها كمدرّسة هربت من غواجيرا Guajira، وما كان ليتبادر إلى ذهنها يوماً أن زوجها قد يصمّم لقرار أخرق أو غير مناسب. بحيث أن كليهما لم يستشر قلبه ليعلم أي حال سترسو عليه حياتنا تحت رعاية رقيب صارم من دورتمند Dortmund يصرّ على تلقيننا قسراً، أشدّ العادات نتانة للمجتمع الأوروبي فيما ينصرفان هما لمشاركة أربعين كاتباً في لقاء ثقافي يستمرّ خمسة أسابيع في جزر بحر إيجه.

كانت مدام فورب قد وصلت في آخر سبت من شهر يونيو على متن سفينة بالرم Palerme الدورية. وقد أدركنا فور التقيناها أن أوان الإحتفال قد انتهى. وسط حرارة هاجرية غادرت السفينة منتعلة جزمة جندي، ومرتدية ثوباً بياقة تشبه ياقة السترة الرجالية تخفي شعرها

القصير كشعر الرجال تحت قبعة من اللبد. وكانت تفوح منها رائحة بول القرود. «للأوروبيين كافة رائحة مماثلة، لا سيّما خلال الصيف، قال أبي. تلك هي رائحة الحضارة».

غير أنها بدت على الرغم من مظهرها العسكري مخلوقاً نحيلاً كان من الممكن أن يوحي لنا بشيء من الود لو أنّنا أكبر سناً أو لو أنها احتفظت بملمح ينمّ عن الحنان.

ارتجّ عالمنا، فتحولت ساعات البحر الست، هي التي شكّلت لنا منذ بداية الإجازة منبعاً لا ينضب لمخيّلتنا، إلى تكرار مملّ يتم لساعة واحدة يومياً وفي التوقيت عينه.

أيام كنا بعهدة ذوينا، كنا نسبح بقدر ما يحلو لنا بصحبة أورست، مسحورين بجرأته الفائقة ومهارته في مجابهة الأخطبوط في عقر داره الملوث بالحبر والدم. سلاحه الوحيد في ذلك مدياته القتالية. لاحقاً داوم على مجيئه كما من قبل في نحو الحادية عشرة على متن زورقه المزوّد بمحرّك، إلاّ أن مدام فورب كانت ترفض السماح له بتأخيرنا دقيقة واحدة فوق الوقت المحدّد لتمرين الغوص. كذلك حرّمت علينا الذهاب لزيارة فولڤيا فلامينيا بحجة أن مثل هذه الزيارات تعتبر تجاوزاً لحدود الإلفة تجاه الخدم. كما رفضت علينا تكريس الوقت الذي كنا نهدره لإصطياد الذئيمات، لقراءة شكسبير، ولم يكن بوسعنا نحن اللذين اعتدنا سرقة ثمار المانغا من الحدائق، وقتل الكلاب برشقها بلبن القرميد في شوارع غاكامايال

Guacamayal اللاهبة، أن نتخيّل عذاباً أشدّ إيلاماً من ذاك التأديب المُترف.

في المقابل سرعان ما تبيّن لنا أن مدام فورب لم تكن تُلزم نفسها بما تلزمنا به وهو ما شكّل الثغرة الأولى للحدّ من سطوتها. في البداية لاحظنا أنها تلازم الشاطىء وبثياب القتال، وتستظلّ شمسية متعددة الألوان لتستغرق بمطالعة أساطير شيللر الشعريّة، فيما ينهمك أورست في تدريبنا على الغوص. ومن ثم كانت تصرف ساعات بكاملها في تلقيننا الدروس النظرية حول حسن السلوك الإجتماعي حتى يحين أوان استراحة الفطور. إلى أن سألت أورست ذات يوم أن يقودها في قارب آلي إلى مخازن السياح التي نصادفها في الفنادق. وعادت منها برداء للبحر بقطعة واحدة أسود اللون براقاً كجلد الفقمة. إلاّ أنها لم تكن تدخل الماء أبداً. بل تكتفي فيما نسبح بحمام شمسي. وكانت تجفّف عرقها بفوطة من غير أن تتبرّد بأنبوب الترطيب بحيث أمست في غضون ثلاثة أيام شبيهة بسرطان غُطّس بماء ساخن وفاحت منها رائحة الحضارة على نحوٍ يتعذّر احتماله.

أثناء الليل، كانت تطلق لغرائزها العنان، وكنا قد شعرنا منذ أوكلت رعايتنا أن أحدهم يجوب المنزل المُعتم ويعكّر صفو الظلمات، فاستبد الرعب بأخي لظنّه أنهم ربما كانوا الغرقى الهائمين الذين طالما حدثتنا عنهم فولڤيا فلامينيا.

لكننا سرعان ما اكتشفنا أنها مدام فورب، تمارس ليلاً حياتها

الفعلية كامرأة وحيدة تتنكّر لها خلال النهار. وقد فاجأناها ذات صباح في المطبخ فجراً مرتدية قميصاً للنوم كطلاب المدارس الداخليّة، تحتسي البورتو فيما تشرع بتحضير حلوياتها الفاخرة ملطّخة بالطحين من قمّة رأسها حتى أخمص قدميها، ومستسلمة لإضطراب فكري كان من شأنه إثارة سخط الوجه الآخر لمدام فورب.

وتبيّن لنا أنها لم تكن تقصد غرفتها حين تأوي للنوم، بل تقصد الشاطىء للسباحة خفيةً، أو تتخلّف في البهو حتى ساعة متأخرة، تتابع على التلفاز بعد أن تخفي صوته الأفلام المحظورة على الصغار وتلتهم الحلوى وتُفرغ زجاجة نبيذ من تلك التي كان أبي يحرص على الإحتفاظ بها للمناسبات الخاصّة. تعارضاً مع عظاتها حول التقشّف والإنضباط السلوكي كانت تُتخم نفسها بلا انقطاع بتناول المآكل بنهم لا حدود له. لاحقاً كنا نسمعها تناجي نفسها في غرفتها أو تتلو بلغتها الألمانية الرخيمة مقاطع شعرية كاملة من Dué Jungfrau von orléans.

كنا نسمعها تغنّي ونسمعها تنتحب حتى الفجر في سريرها وكانت تتراءى لنا حول الفطور صباحاً وقد تورّمت عيناها من البكاء. أكثر كآبة وأشد استبداداً يوماً إثر يوم. لم نشعر أنا وأخي أبداً بتعاسة تماثل تعاستنا آنذاك. غير أني كنت على إستعداد لتحمّل المصيبة حتى النهاية، ذلك أني كنت أعي تماماً أن لحججها سلطاناً يفوق قدرتنا على المواجهة. على النقيض من ذلك استمر أخي يجابهها

بكل ما يتّصف به من إحتدام في الطبع فتحوّل صيفنا السعيد إلى جحيم.

ثم أتت حادثة أبي مريته لتشكّل الحدّ الفاصل. مساء ذاك اليوم وفيما كنا في أسرّتنا نصغي إلى تنقلات مدام فورب المتوالية في المنزل الساكن، أفرغ أخي كل الضغينة المتراكمة التي كانت تنخر روحه، دفعة واحدة «سأقتلها». قال.

بوغتّ، ليس لقراره فقط، بل للصدفة التي جعلتني أفكّر بذات الأمر منذ الفطور، على أنني حاولت ردعه.

«سيفصلون لك رأسك» قلت.

ـ ليس ثمّة مقصلة في صقلية» أجاب ثم لن يعلم أحد من الفاعل».

كان يُفكّر في الجرّة المتشلة من الماء حيث يترسّب دائماً تفل النبيذ المسموم. وكان أبي قد إحتفظ بها ليخضعها لتحليل أكثر تعمُّقاً بغية الكشف عن طبيعة السم الذي لا يمكن أن ينشأ فقط عن تراكم السنين. بدا لنا إستخدامه للتخلص من مدام فورب أمراً يسيراً للغاية فما كان بوسع أحد التفكير بسبب آخر لموتها سوى الإنتحار أو لعارض صحّي ما. بحيث أننا ما إن أصغينا إليها تنهار فجراً بعد أن أضناها إيلام ليلها المُسهّد حتى سكبنا من محتوى الجرة، في زجاجة النبيذ التي كان يحتفظ بها أبي للمناسبات الخاصة مقداراً كان كفيلاً وفق ما سمعناه يردد أمامنا بقتل حصان. ثم في التاسعة تماماً تناولنا

في المطبخ فطورنا الصباحي. قدّمته لنا مدام فورب شخصيًا وتألّف من خبز ممزوج بالحليب كانت قد أعدّته فولڤيا فلامينيا في الفرن منذ ساعة مبكرة.

بعد إنتظار يومين على استبدال النبيذ، لمّح لي أخي بنظرة خائبة أثناء فطور الصباح أن الزجاجة المسمومة في الصوان لم تُمسّ بعد. كان نهار جمعة فبقيت الزجاجة سليمة خلال عطلة الأسبوع. على أن مدام فورب عادت فإحتست نصفها ليل الثلاثاء وهي تتابع على التلفاز أفلاماً جنسيّة ماجنة.

مع ذلك، مثلت على الفطور صباح الأربعاء بذات إنتظامها. بدت مثقلة الرأس بأرق لياليها تزوغ عيناها من خلف زجاجات نظارتها السميكة بنظرة قلقة خلاف العادة. وقد إزدادت قلقاً حين لمحت في سلة الخبز رسالة محرَّرة بطوابع ألمانية. شرعت في قراءتها وهي ترتشف قهوتها وهو ما حذَّرتنا تكراراً من القيام به. بقدر ما كانت تقرأ، بقدر ما كانت الكلمات تشعُّ بدفق من ضياء يشرق به وجهها. بعدها نزعت طوابع المغلّف البريديّ ووضعتها في السلة مع قطع الخبز الصغيرة ليضيفها زوج فولڤيا فلامينيا إلى مجموعته.

ذاك اليوم وعلى الرغم من تجربة مقيتة سبق أن خاضتها، رافقتنا في رحلة إستكشاف الأعماق، وتسكعت بصحبتنا في مياه اليم الخفيفة إلى أن فرغت قوارير الأوكسجين ثم عدنا إلى المنزل من غير

أن نخضع لأمثولتنا في حسن السلوك. بالإضافة إلى مزاجها الرائق طيلة ذاك النهار تجلّت مدام فورب عند الغداء أكثر حيوية من أي وقت مضى. من جانبه، لم يكن لأخي طاقة بعد على احتمال المزيد. لذا ما إن صدر الأمر بالمباشرة بالطعام حتى نحا بحركة ساخطة طبق الثريدة بالشُعَيْرِيّة،

«سئمت عجيزتي حساء الذباب هذا!».

دوّى لكلامه وقع كوقع قنبلة حارقة، فشحبت مدام فورب وتصلّبت شفتاها. وفيما أخذ جوّ التوتر بالتراجع غشت الدموع زجاج نظارتها فنزعتها ومسحتها بالفوطة قبل أن تنهض، مخلّفة على المائدة مرارة هزيمتها، مجرّدة من الأمجاد:

«افعلوا ما يحلو لكم، قالت. فلن أستمر».

إنزوت في غرفتها منذ السابعة، غير أننا لمحناها تمرّ قبل منتصف الليل، وقد ظنت أننا خلدنا للنوم حاملة معها إلى الغرفة نصف قالب الحلوى بالشوكولا، وبقايا زجاجة النبيذ القاتل.

أخذتني الرعشة رثاءً.

«مسكينة مدام فورب» قلت.

ولم يكن أخي يتنسّم السلام.

«يا لتعاستنا إن لم تمت الليلة» قال.

قبل طلوع الفجر، خاطبت نفسها لوقت طويل، وانشدت مقاطع لشيللر بملء صوتها، كما لو كانت تحت تأثير نوبة من

الجنون الهذياني. وإختتمت مسرحيتها بصيحة أخيرة دوّت في كافة أرجاء المنزل ثم تنهدت مراراً من أعماق روحها وغرقت في غطيط مُغمٍّ ومتواصل شبيه بصفير مركب حاد عن مجراه.

حين استيقظنا منهوكي القوى بعد أن أضنانا قلق البارحة، كانت الشمس ترشق بشعاعها مغالق الشبابيك. غير أن المنزل بدا كأنه مطويٌّ في جوف مستنقع. لاحظنا أن الساعة بلغت نحو العاشرة ولم يُنبِّهنا بعد روتين مدام فورب الصباحي. فما سمعنا طراوة الماء في الثامنة، ولا صنبور المغسلة، ولا صفق مصراع الباب، ولا وقع حديد جزمتها ولا الضربات الثلاث القاضية على الباب براحة يدها الشبيهة بكفّ الزناجة. الصق أخي أذنه بالحائط حابساً أنفاسه علّه يلتقط أدنى حركة تشير إلى وجود كائن في الغرفة المجاورة ثم أطلّت تنهيدة راحة.

«لقد تمّ الأمر، لن نسمع بعد الآن سوى ضجيج البحر».

قبل الحادية عشرة بقليل، وقبل وصول فولڤيا فلامينيا مصحوبة بعصابة الهررة لإنجاز أعمالها المنزلية، جهّزنا فطورنا بأنفسنا ثم قصدنا الشاطىء يحمل كل منا قارورتين للأوكسجين وأخريين للإحتياط. وكان أورست قد سبقنا إلى رصيف الركوب حيث شرع بتفريغ مرجان اصطاده للتو لقاء ست دينارات. فأوضحنا له أننا انتظرنا مدام فورب حتى الحادية عشرة لكنها لبثت نائمة. فقررنا المجيء من دونها، وروينا له أيضاً كيف أُصيبت مساءً بنوبة من البكاء على المائدة، وأنها ربما كانت تُفضّل ملازمة السرير لحاجتها

للنوم. ولم يبدِ أورست اهتماماً بالغاً كما أملنا بالتفاصيل. طفنا برفقته لمدة تزيد على الساعة تحت الماء سألنا بعدها العودة لتناول الغداء ومن ثم يمّم بزورقه المزوّد بمحرك شطر الفنادق لبيع المرجان. من أعلى السلم الحجري، لوّحنا له بأيدينا بغية إيهامه بعودتنا إلى المنزل. ولبثنا قابعين خلف الجروف نرقب ابتعاده. عندئذٍ علّقنا قوارير الأوكسجين المليئة بأكتافنا مصمّمين على تمديد فترة الغوص بمعزل عن سلطة أحد.

لاح الجوُّ غائماً وكان ثمة هزيمٌ آخر من الرعد تلوح معالمه في الأفق، إلاّ أن البحر كان رائقاً شفافاً يشعُّ بألق الماء. فسبحنا مسافة طالت حتى بلغت مستوى منارة بنتلاريا Pantalaria. حيث حولنا إتجاهنا يميناً على بعد مئة متر، لنغوص مجدداً في عمق المكان الذي خمّنا أننا عثرنا فيه مع بداية الصيف على الطوربيدات الحربيّة.

واقعاً، كانت ما تزال في مكانها: ستة طوربيدات طُليت بلون الشمس وسجّلت عليها أرقامها التسلسليّة من غير أن تُمسّ، راقدة في القاع البركاني في ترتيب مُتقن لا يمكن أن يأتِ عرضاً. ثم عدنا لنطوف حول المنارة بحثاً عن المدينة المطمورة التي طالما حدثتنا عنها فولڤينا فلامينيا بإفتتان فائق. غير أننا لم نوفّق في العثور عليها.

لبثنا ساعتين في الماء، ولم نصعد إلاّ بعد أن كدنا نفرغ من الأوكسجين. موقنين أنه ليس ثمة بعد ألغاز نكشف عنها.

ثمة عاصفة صيفية كانت قد هبت خلال غوصنا في الأعماق،

وقد تجلى البحر هائجاً. وفي الأجواء حوّم سرب من الجوارح كان يطلق زعقات وحشية فوق صف من الأسماك تحتضر مطروحة على الشاطىء. إلاّ أن غبش المساء لم يكن قد لاح بعد، فتراءت لنا الحياة جميلة من غير مدام فورب.

غير أننا لمحنا بعد أن ارتقينا بمشقة فائقة السلم الحجري المنحوت في قلب الصخور، حشداً كبيراً يتجمع داخل المنزل وسيارتين للشرطة تقف أمام الباب. حينها عاد إلينا رشدنا وأدركنا لأول مرة هول ما ارتكبناه. فاستبدت الرعشة بأخي وتراجع يريد الإنكفاء.

«لن أدخل» قال.

في المقابل كان يتملكني حدسٌ غامض أننا سوف نبرأ من كل شك إنْ نحن إحتملنا رؤية الجثة.

«إهدأ، قلت له. خذ نفساً عميقاً وردد عبارة واحدة فقط: «لا نعرف شيئاً».

لم يعرنا أحدٌ إهتماماً، فرمينا أمام العتبة بقوارير الأوكسجين والمجاذيف المطاطية وأقنعة الغوص ودخلنا عبر الرواق الجانبيّ حيث كان رجلان يفترشان الأرض ويدخنان السجائر بجانب حمّالة الجرحى. عندها، رأينا سيارة الإسعاف أمام الباب الخلفي وبقربها تقف ثلّة من الجنود مسلحين بالبنادق. في البهو، كانت نساء الجيران يصلّين باللغة المحلّية وقد جلسن على مقاعد صُفّت على

طول الجدار، فيما احتشد أزواجهن في الحديقة يتحادثون بأمور لا علاقة لها بالموت.

ضغطتُ على يد أخي المثلجة والمتصلّبة بقوة. ثم دخلنا من الخلف. بدت غرفتنا وقد شُرّع بابها على مصراعيه، على حالها حيث غادرناها صباحاً. أمام غرفة مدام فورب الملاصقة لغرفتنا وقف دركي إيطالي يراقب مدخل الباب ولم يكن مقفلاً. لم نكد نتجاوز عتبته خافقي القلب حتى اندفعت فولڤيا فلامينيا من المطبخ كالإعصار لتصفق الباب وهي تولول هولاً.

«بحق الله Figlioli. لا تنظرا!».

لكن الأوان كان قد فات، فما رأينا، تلك اللحظة الخاطفة خلّف فينا بصماته الأبديّة. كان هناك رجلان يقيسان بالسنتمتر المسافة ما بين السرير والجدار فيما انهمك ثالث في التصوير بآلة مغطاة بقماش أسود، تماثل تلك التي يستخدمها المصورون في الحدائق العامة.

لم تكن مدام فورب على سريرها المفكّك. كانت مطروحة أرضاً على جانبها. عارية تسبح في بحيرة من دماء جفّت بعد أن بلّلت أرضية غرفتها، وقد مُزّق جسدها بضربات خنجر. سبعة وعشرون جرحاً قاتلاً بلغ عددها. وكان عنقها كفيلاً بأن يكشف لنا أنها ضُربت بضراوة حب جنونيّ لا هوادة فيه وبأن مدام فورب تلقت الضربات بإنفعال مماثل دون أن تصدر عنها نأمة أو حتى تذرف

دمعة. تنشد شيللر بصوتها العسكري الرخيم مدركةً أنها بهذا تُسدّد الثمن الحتمي لصيفها السعيد.

1976م.

الضوء مثل الماء

ثانيةً طالب الصَّبيان بمركب بمجاذيف هديّة للميلاد.

«حسناً، قال الأب، سنشتريه حين عودتنا إلى قرطاجينه Cortagena».

توتو الذي كان في التاسعة، وجويل البالغ سبعة أعوام كانا أكثر عناداً مما قدرّه ذووهما.

«لا، صاحا معاً، نريده الآن وعلى الفور».

«للشروع في ذلك، قالت الأم، مياه الدوش هنا. هي المياه الوحيدة الصالحة للإبحار».

كان أهل الصبيَّين على صواب. فقد كانا يملكان في قرطاجينه Cortjena مسكناً بحديقة، وحاجزاً يغوص في مياه المستنقع وملجأً يتّسع ليختين كبيرين. في المقابل كانا يعيشان في مدريد مع ولديهما محشورين في الطابق التاسع من البناء رقم 47 في جادة بازيو دو لا كاستيلانّا Paseo de La Castellana. لكن كلاهما وعلى الرغم من الإعتبارات كافة كان يشفق من رد طلبهما. ذلك أنهما كانا قد

وعداهما بشراء مركب بمقاذيف وسدُّسية وبوصلة إنْ هما أحرزا المرتبة الأولى في صفيّهما. وكان الصبيّان قد حقّقا ذلك. بحيث أن الأب تولى شراء كل شيء من غير أن يفصح عن ذلك أمام زوجته التي أبدت مقارنةً به، تحفظاً كبيراً حيال الوفاء بديون الهديّة. كان مركباً رائعاً من الألمنيوم بخيط ذهبي يميّز خط العوم.

«المركب في الكاراج. أعلن الأب أثناء الفطور. المشكلة أنه لا يُدخل في المصعد، ولا يُنقل عبر السُلّم، وأن الكاراج لا يتّسع له.»

غير أن الصبيّين بادرا بعد ظهر نهار السبت إلى دعوة بعض الأصدقاء لمساعدتهما في نقل المركب على السلم. وقد تمكّنا بمعونتهم من حمله حتى حجرة الخدم: Chambre de service.

«احسنتما! قال الأب. والآن؟.»

ـ «الآن. لا شيء، أجاب الصبيّان. أردنا فقط أن نرى المركب في الحجرة وقد فعلنا.»

مساء الأربعاء وكما في كل أربعاء قصد الأهل السينما فأقفل الصبيّان وقد باتا أصحاب المكان وأسياده الأبواب والنوافذ وهشّما حُبابةً مضاءةً لواحدة من لمبات البهو، فإنثال منها دفق من الضوء ذهبي، نديّ كالماء. ومن ثم تركاه يسيل إلى أن بلغ إرتفاعه خمسة وعشرين سنتمتراً. عندئذٍ قطعا التيّار وأنكفآ يبحثان عن المركب ثم شرعا في الإبحار مفتوتَيْن ما بين جزر المنزل.

تلك المغامرة الخرافيّة أتت عاقبة غفلة من غفلاتي المتكررة،

ذات نهار كنت أشارك فيه بحلقة درامية حول شاعرية المواعين المنزليّة Póesie des ustensiles ménage وكان توتو قد سألني حينها، كيف يسعنا أن نجعل الضوء يسيل بالضغط على زر صغير. ولم أملك الجرأة على التفكير مرتين بالجواب.

«الضوء، هو مثل الماء، أجبته: نفتح الصنبور فيتدفّق.»

بحيث أن الصبيّين واظبا على إنجازهما مساء كل أربعاء واعتادا استعمال السدسيّة والبوصلة حتى إذا ما عاد ذووهما من السينما كانا يجدانهما وقد استسلما للرقاد كملاكين دنيويين صغيرين.

بعد بضعة أشهر، رغب الصبيّان في امتلاك المزيد فطلبا أمتعة كاملة للغوص تحت الماء مع أقنعة للوجه ومجاذيف مطاطية للقدمين وقوارير هوائية وبنادق تعمل على الهواء المضغوط.

«من الحماقة الإحتفاظ بمركب بمجاذيف، لا جدوى من إستخدامه. في غرفة الخدم Chambre de service فكيف إن احتفظتما أيضاً بأمتعة للغوص!»

ـ وإن نلنا جائزة التفوّق؟» سأل جويل.

ـ لا. قالت الأم مرتاعةً، انتهى الأمر.» فأخذ عليها الأب تصلُّبها.

هذان الصبيّان لا يبذلان أدنى جهد للقيام بما ينبغي عليهما القيام به، قالت الأم. لكنهما كفيلان بتحقيق المستحيل لمجرد نزوة».

في نهاية المطاف، لم يحسم الأهل الأمر بالنفي أو بالإيجاب. غير أن توتو وجويل اللذين كانا قد تراجعا في العامين السابقين إلى المرتبة الأخيرة في صفيهما حصلا في شهر يوليو على جائزة التفوق. وتلقيّا تهاني المدير.

عصراً ومن غير أن يضطّرا لتكرار طلبهما، عثرا في غرفتهما على أمتعة الغوص مغلّفة بلفافتها الأصليّة. بحيث أنهما عمدا مساء الأربعاء التي تلت أثناء غياب ذويهما لمشاهدة فيلم آخر تانغو في مارسيه إلى ملء الشقّة بالضوء طول ذراعين. ثم غطسا كقرشين وديعين تحت الأثاث والأسرّة. ومن قاع الضوء أعادا رفع أشياء كانت ما تزال متقعرة في الظلمة منذ أعوام.

يوم توزيع الجوائز، احتفت المدرسة بالصبيين كمثال يُحتذى، ثم سُلِّما شهادتيهما. هذه المرة لم يشترطا شيئاً. ذلك أن ذويهما لم يسألاهما تحقيق رغبة محددة وقد برهنا عن تعقُّل بالغ إذ اكتفيا بإقامة حفل في المنزل إرضاءً لرفاق المدرسة.

حين انفرد الأب بزوجته بدا مفتوناً.
«ذاك دليل على النضج. قال.»
ـ لتستجبْ لك السماء» أجابت الأم.

مساء الأربعاء التالية وفيما كان ذوو الصبيين في الخارج لمشاهدة فيلم الحرب الجزائريّة، لمح المارة الذين صودف وجودهم في جادة بازيو دو لا كاستيلانا Paseo de La Castellana، مسيلاً

من الضوء ينهمر من بناء عتيق يتوارى خلف الأشجار، كان السيل يتدفّق من الشرفة ويفيض شلالاً على مقدّم البناء قبل أن ينساب على امتداد الجادة الواسعة فيضاً ذهبياً ينير فضاء المدينة ويطول حدود سييرا دو غوادارامـا Sierra de Guadarama حين كسر رجال الاطفاء باب الطابق الخامس وكان قد تمّ استدعاؤهم على عجل، وجدوا الشقة عائمة حتى السقف بفيض من الضوء، فيما كانت اريكة ومقاعد البهو المكسوة بفرو الفهد تطفو على إرتفاع متفاوت وسط زجاجات البار والبيانو بشاله الأندلسي الذي كان يتطاير كثلم كبير بلون الذهب. وكانت المواعين المنزلية في فيض شاعريتها تُحلّق بأجنحتها الخاصة في فضاء المطبخ. أما آلات الجوقة العسكرية وكان الصبيان يستعينان بها للرقص فكانت تعوم هائمة وسط الأسماك الملوّنة التي افلتت من رقابة الأكواريوم، وهي الكائنات الحيّة الوحيدة والسعيدة في ذاك المستنقع الكبير الملطّخ بالضياء.

في غرفة الإستحمام طنت فراشي الأسنان العائدة لأفراد الأسرة كما الأكياس الواقية الخاصة بالأب، وقموع الكريم وطاقم الأسنان الإحتياطي الخاص بالأم. أما تلفاز الغرفة فبدا يتمايل وقد لاحت على شاشته آخر صورة لفيلم منتصف الليل الذي حُظّر على الصبيين مشاهدته.

في طرف الرواق ظهر توتو طافياً من جهة وقد جلس على مؤخرة المركب وتشبّث بالمجاذيف مرتدياً قناع الوجه يرصد منارة المرفأ طيلة الفترة التي أتاحها له أوكسجين القارورة. فيما لاح جويل

من جهة أخرى في مقدمة المركب يتقصّى نجمة القطب مستعيناً بالسدسيَّة. وكان رفاقهم السبعة والثلاثون عائمين ـ وسط أرجاء المنزل كافة مخلَّدين في اللحظة الحاسمة حيث كانوا يبولون على غرنو قيات حوض الزهور وينشدون نشيد مدرستهم بعد أن حرَّفوا مفرداته إمعاناً في السخرية بالمدير ويحتسون خلسة قدحاً من البراندي من زجاجة الأب. ولأنهم أشعلوا دفعة واحدة الكثير من الأنوار فاض المنزل بالضوء وغرق جميع تلامذة صف الثالث المتوسط في مدرسة سان جوليان الشافي Saint - Julien l'hospitalien في المبنى رقم 47 من جادة بازيو دو لا كاستيلانيا Paseo de La Castullania في مدريد عاصمة أسبانية، المدينة السلفيّة ذات الصيف اللاهب والريح الجليديَّة، حيث لا بحر ولا نهر وحيث ما أجاد سلفيّو الأرياف قط فنَّ السباحة في الضوء.

1978م.

ريح الشمال

لم أره سوى لمرة واحدة في بوكاسيو Bogcacio، وهي حانة ليليّة تضاهي حانات برشلونة، قبل مصرعه المروِّع ببضع ساعات. حيث كانت زمرة من الشباب السويديّ تضايقه وتُصرّ على إصطحابه لإستكمال السهرة في كاداكيس Cadaquis، في الثانية من بعد منتصف الليل. كانوا أحد عشر شاباً يصعب التمييز بينهم لتشابههم فتياناً وفتيات. فجميعهم متعجرفون، لهم ذات الأرداف الضيّقة والضفائر الذهبية الطويلة. أما هو فلم يكن قد تجاوز العشرين بعد. تحت ذؤابات شعره الفولاذية المصقولة بان لون بشرته الزيتونية باهتاً كسائر الكاريبيّين الذين حرصت أمهاتهم على السير بهم في الظلّ. وكان لعينيه العربيّتين سحر خاص كفيل بأن يخلب لب أية شابة سويدية، بل ربما حتى العديد من الشبان السويديين. رفعوه أعلى المبسط كدمية قمامة ومضوا يوقعّون له بإيديهم ألحاناً عصرية لحمله على مرافقتهم. بدا مذعوراً وهو يحاول تبرير موقفه. ثم حين تدخّل أحدهم محتجاً ليدعوه بسلام إنبرى له أحد الشبان مقهقهاً «إنه لنا، صاح قائلاً، وجدناه في القمامة».

كنت قد دخلت الحانة قبل ذلك بلحظات بصحبة شلة من الأصدقاء بعد انتهاء الحفل الموسيقي الأخير لدافيد أوستراخ David Oistrakh. وقد أثار فيّ جحود السويديين شعوراً بالهلع. ذلك أن أعذار الفتى التي تدفعه للرفض بدت مقدَّسة. فقد مكث حتى الصيف المنصرم في كاداكيس حيث التزم غناء الألحان الأنتيليّة في مطعم صغير ذائع الصيت. إلى أن جاء يوم أنهكته فيه ريح الشمال، فعزم على الرحيل ونجح بالفرار غداة اليوم التالي قاطعاً على نفسه عهداً بعدم العودة سواء هبت ريح الشمال أم لم تهب، موقناً أنه سوف يلقى حتفه لا مراء إن هو عاد مرة أخرى. وهو إعتقاد كاريبي راسخ تعجز عن إدراكه زمرة من الشماليين العقلانيين ألهبها قيظ الصيف وذهب بعقولها النبيذ الكاتالاني الحريف والمعتَّق، وبُذِرَتْ في قلوبها أفكار لا دين لها ولا عرف.

أمَّا أنا فكنت أدركه كما لا يدركه أحد.

تعتبر كاداكيس واحدة من أجمل قرى الكوستا برافا وهي على وجه التأكيد من أوفرها أماناً وتجهيزاً بفضل الطريق الممهدة على هيئة كورنيش ضيق ومتعرج يزنّره واد سحيق لا قرار له حيث ينبغي للسائق أن يحافظ على رباطة جأشه متى تجاوزت سيارته سرعة خمسين كيلو متراً في الساعة. أمَّا منازلها فبيضاء منخفضة بُنيت على الطراز التقليدي لأكواخ الصيادين في سواحل المتوسط، وقد حافظت مساكنها الجديدة رغم هندستها الحديثة على تناغمها مع البناء القديم. في أشهر الصيف تتحول كاداكيس، حين تشتدُّ الحرارة

لكأنها تهبُّ من الصحاري الأفريقيَّة لتصفح الرصيف المقابل، إلى جحيم أشبه بجحيم بابل بوجود السياح القادمين من انحاء أوروبا كافة ليقاسموا سكان القرية فردوسها الساحر مع بعض الغرباء ممن حالفهم الحظ فابتاعوا لأنفسهم منازل بأسعار متدنِّية يوم كانت فرص الشراء ما تزال متوافرةً. ومع قدوم الربيع والخريف، وهما فصلان يطيب خلالهما المناخ في كاداكيس، يخشى الجميع الحديث عن ريح الشمال. تلك الريح البريَّة العاتية والعنيدة التي تحمل معها كما يدَّعي السكان وبعض الكتَّاب الذين ذاقوا مرارتها، بذرة الجنون.

. منذ خمسة عشر عاماً كنت حريصاً على زيارتها دائماً إلى أن قرعت ريح الشمال ذات يوم بابنا وقد حدست بها حتى من قبل هبوبها، إذ لازمني هاجس غامض بأن ثمة أمراً ما سوف يحدث. فتكدَّر مزاجي فجأة وشعرت بإكتئاب مباغت من غير سبب واضح، وتملَّكني الإحساس بأن أطفالي الذين لم يبلغ كبيرهم بعد سن العاشرة، يتابعونني في أرجاء المنزل بنظراتهم الحادة. لحظات فقط ودخل البواب يحمل علبة مليئة بالمعدات وبحبال لتوتيد السفن، وشرع يُدعِّم النوافذ والأبواب، ولم يفاجئه وهني وإنحطاط قواي.

«انها ريح الشمال، قال لي، سوف تعصف بالقرية بعد ساعة من الآن». وكان ذلك الذئب البحري الهرم ما يزال يحتفظ من مهنته السابقة بالمشمَّع الواقي من المطر، وبالقبعة والغليون، كما ببشرة حرقتها أملاح البحار التي خاض عبابها.

كان يُكرّس ساعات فراغه للعبة الكرة في الميدان بصحبة جنود قدامى خاضوا حروباً غابرة، ويشارك السياح تناول المشروبات الفاتحة للشهية في المقاهي المنتشرة على الشاطىء. ذلك أن لغته الكاتالانية كجندي مكلَّفٍ بالمدافع جعلته قادراً على التفاهم مع اللغات كافة، وكان يدعي معرفة جميع مرافىء العالم لكنه لم يعرف أبداً مدينة من الداخل «حتى باريس في فرنسا، وهي مع ذلك لا تعني لي كثيراً». لأنه لم يثق يوماً بأية وسيلة نقل خلاف تلك التي تعبر الماء.

خلال السنوات الأخيرة شاخ كثيراً، ولم يعد يخرج إلى الشارع، بل يمضي معظم أوقاته في مسكن البواب حيث يقيم، منفرداً بنفسه كشأنه دائماً في ما مضى. كان يعنى بتحضير طعامه بنفسه مستعيناً على ذلك بقصعة ومسخّن يعمل على الغول وسيلته الوحيدة ليولِمَ لنا لذائذ طعام جدير بالأسياد. وكان ينصرف منذ طلوع النهار للإهتمام بشؤون المستأجرين، فيجول بالطوابق واحداً تلو الآخر. وهو إضافة إلى سخائه التلقائي وخشونته المحبَّبة التي يتَّصف بها الكاتالانيون واحدٌ من الأشخاص القلائل الذين بهرتني مروءتهم وقابليتهم لإسداء العون. لم يكن مهذاراً لكنه صريح العبارة، مباشرٌ. حين يُثقل عليه الإحساس بالفراغ كان يستغرق لساعات طويلة في ملء بطاقات تتكهَّن بنتائج مباريات كرة القدم، ما ثبت يوماً على الأرجح صحة أي منها.

ذلك اليوم، مضى يحدِّثنا فيما أنهمك بتدعيم الأبواب

والنوافذ، عن ريح الشمال لكأنها امرأة فاحشة لا معنى لحياته من دونها. وقد أذهلني أن يدين رجل عايش البحر بمثل تلك الضريبة لريح بريّة، هي ريح قديمة العهد» قال.

لاحقاً، بات لدينا انطباع بأن السنوات لا تتجزأ بالنسبة إليه إلى فصول وأشهر وأيام بل إلى عدد المرات التي تهبُّ فيها ريح الشمال. «في العام الماضي، عقب هبوب العاصفة الثانية بنحو ثلاثة أيام إنتابتني نوبة من الخوف». صارحني ذات نهار. وربما يُفسرُ هذا معتقده الذي يزعم بأن الإنسان يشيخ عدة سنوات كلّما هبت ريح الشمال مرة. وقد حفّزَ فينا هاجسه الرغبة بمعرفتها، كما لو كنّا نتوقع زيارة مثيرة وحالمة.

لم يطل انتظارنا، فما كاد البواب يغادرنا حتى سمعنا صفيراً بدأ يرتفع رويداً رويداً، ويصبح أكثر حدة، لينتهي بفرقعة تشبه إرتجاجاً أرضياً. في تلك اللحظة هبَّت الريح بعصفات متباعدة في البداية، تلاحقت تدريجياً ثم جنَّت دفعة واحدة بصورة متواصلة، وبحدة وقوة هائلتين تفوقان قوى الطبيعة.

كانت الشقة التي نقيم فيها تُطل على الجبل خلافاً لما هو مألوف في الكاريبي، وقد يكون لهذا علاقة بطبع الكاتالانيين الغريب، الذي ينزع إلى المعارضة، فهم يعشقون البحر حين لا يرونه أمامهم، بحيث أخذت الريح تصيب أهدافها مباشرة وتُهدِّد بإقتلاع رتاج النوافذ.

لكن ما أدهشني بالمقابل، أنَّ الطقس تجلى رائعاً بصورة

خارقة، فالشمس ساطعة والسماء تتحدى الريح بصفائها. حتى أنني عزمت على الخروج لرؤية البحر بصحبة أطفالي الذين شبوا وسط أعاصير الكاريبب والهزات الأرضية المتكرِّرة في المكسيك، بحيث ما عاد يقلقنا هبوب ريح أو سكونها أياً تكن شراستها. مررنا بسكن البواب متسلِّلين على أطراف أصابعنا وكان يقف منتصباً دون حراك أمام طبق من النقانق بالفاصوليا، يتأمل الريح عبر النافذة فلم يشعر بخروجنا.

تقدمنا عبر المساكن التي شكلت لنا غطاء يقينا الريح، لكننا حالما إنعطفنا عند زاوية الشارع المقفر بات لزاماً علينا أن نتمسك بركن مكين كيلا يُطيح بنا جنون العاصفة. لبثنا على حالنا هذه نتأمل البحر ونعجب له كيف يبقى هادئاً رائقاً وسط مثل تلك الكارثة الطبيعية، إلى أن أغاثنا الحارس بمساندة بعض سكان الجوار، عندئذٍ لم يعد ثمة مفر من الإقرار بأن الحكمة كانت تقتضي منا ملازمة المنزل وعدم مغادرته إلى ما شاء الله. لكن أحداً ما كان ليملك أدنى تصورٍ عن أوان مشيئته.

عقب ذلك بيومين، نشأ لدينا إحساس بأن تلك الريح الهائلة ليست بظاهرة أرضية طبيعية، بل هي اعتداء مضمر وجَّهه ضدنا شخصياً دون سوانا شخص مجهول. خلال ذلك دأب البواب على زيارتنا مرات عدّة في اليوم ليطمئنَّ إلى حالنا، وليعمل لنا ثماراً وسكاكر للأطفال. وقد وهبنا يوم الثلاثاء في موعد الغداء طبقاً من أشهى أطباق المطبخ الكاتالاني طهاه بنفسه على نار هادئة: كان ارنباً بالحلزون، إلتهمناه في جوٍّ إحتفالي أبعد عنا شبح الأيام الماضية.

كان يوم الأربعاء أطول أيام حياتي، فقد ظلّت الريح هي الحدث الوحيد الدائم والمتواصل، لكن شيئاً ما على ما يبدو، يشبه العتمة التي تسبق إنشقاق الضوء ساد فجأة، ذلك أننا إستيقظنا جميعاً في اللحظة عينها ليلاً، وقد ضاقت صدورنا بسكون مطلق طاغٍ لا يماثله سوى سكون الموت. من جهة الجبل بدت أوراق الأشجار ساكنة لا تتحرك، حتى أن البواب حين خرجنا، لم يكن قد أضاء النور بعد ليتسنى له أن يتأمل البحر يتألق بوميض فوسفوري وسماء السحر تتلألأ بنجومها كاملة. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة، لكن عدداً من السياح كان قد إستغلَّ هدأة الريح ووقف فوق حصى الشاطىء، وكانت المراكب الشراعية تتأهّب للإبحار بعد انقطاع قسري دام ثلاثة أيام.

حين غادرنا الشقة، لم يسترع المسكن الغارق في العتمة انتباهنا، لكنه عند أوبتنا كان ما يزال معتماً والهواء ذو الوميض الفوسفوري الذي يسع به البحر. أقلقني الأمر فطرقت الباب مرتين، ثم دفعته حين لم ألق جواباً. أعتقد أن الأطفال رأوه قبلي فنمت عنهم صيحة رعب. كان البواب الهرم مع شارات البحّار البارع المغروزة في ثنية سترته معلقاً بعارضة السقف الغليظة وجسده ما يزال يتأرجح مع آخر لهاث لفظته ريح الشمال.

في مرحلة النقاهة، ومع شعور بالحنين نشأ قبل أوانه غادرنا القرية قبل التاريخ المعيَّن مصمِّمين تصميماً قاطعاً على عدم العودة نهائياً. من جديد عاد السياح يغزون الشوارع، وعلت أصداء

الموسيقى من ميدان الجنود القدامى الذين كانوا لا يقوون إلاَّ بشق النفس على إلتقاط كرات لعبة الكرة. وعبر النوافذ المعبَّرة في الماريتيم Maritim لمحنا بعض الأصدقاء ممن صمدوا وعادوا يستأنفون حياتهم في أجواء ربيع متألق باغتته ريح الشمال.

لذا، لم يكن ثمة من يدرك مثلي مبلغ الرعب الهائل الذي أصيب به الصبي وجعله يتمسك بعدم العودة إلى كاراكيس خشية أن تصدق النبؤة. بالمقابل لم يكن من الممكن بأي حال من الأحوال ردُّ الشبان السويديين عن غيِّهم، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إصطحاب الصبي قسراً مدَّعين بتباهيهم الأوروبي قدرتهم على تخليص الصبي من خرافاته الأفريقية بدواء فعال. حشُروه وهو ما يزال يقاوم داخل شاحنة السكارى وسط تصفيق وصفير زبائن الحانة الذين انقسموا بين مؤيِّد ومعارض ثم يمَّموا شطر كاداكيس في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

صباح اليوم التالي ايقظني رنين الهاتف، وكنت قد سهوت عند عودتي فجراً عن إسدال الستائر، لم أستطع تحديد الوقت لكن الغرفة بدت مشعشعة بضياء الصيف، على الطرف الآخر نبهني صوت قلق لم أتبين صاحبه للوهلة الأولى «اتذكر الصبي الذي اقتيد البارحة إلى كاداكيس؟».

لم يكن ثمة مدعاة لسماعي المزيد. فالمأساة فاقت حدود تصوراتي، قبل بلوغهم كاداكيس استبد الهلع بالصبي فأغتنم فرصة شرودهم وألقى بنفسه من الشاحنة أثناء سيرها ليستقرَّ في الهاوية. علَّه بذلك ينجو من موت محتَّم.

1982م.

أثر دمائك على الثلج

كان الظلام قد هبط حين بلغا الحدود، لاحظت نينا داكونت أن أصبعها الذي يحمل خاتم الزواج ما يزال ينزف. على ضوء مصباح العاصفة تأمل الحارس المدني الملتفح بغطاء من الصوف الخام يلفّ به قبعته المبرنقة المثلثة القرون جوازي السفر، باذلاً أقصى طاقته كيلا تطيح به ريح البرينيه العاصفة. وعلى الرغم من موافقة الجوازين الديبلوماسيين للأصول القانونية رفع الرجل مصباحه ليتيقن من التشابه التام ما بين الصور والأصل. كانت نينا داكونت شبه طفلة بعينيها الغرّيدتين الهانئتين، وببشرتها السكرية الصهباء التي أمعنت شمس الكاريبي بتلطيفها في ذاك الغسق الكئيب من شهر يناير، وكانت متدثرة حتى العنق بمعطف من فرو الفيزون ما كان يكفي لشرائه راتب العسكريين السنوي المعيَّن لكافة الحامية الحدودية. وكان بيللي سانشيز دي أفيلا زوجها الذي تولى القيادة يصغرها بعام واحد ويكاد يماثلها ملاحة بسترته الشطرنجيّة وبقبعة لاعبي البيسبول. وخلافاً لزوجته بدا ضخم الجثة، صنديداً، يملك كفّين حديديَّين كتلك التي للأقوياء ذوي القلوب الوجلة. في المقابل كانت

السيارة الميتاليكية التي كانت تُصعد من داخلها لهاث بهيمة نزقة خير ما يُنم عنه وضعهما هما الإثنين. فلم يحدث لتلك الناحية الحدودية المعدمة أن شهدت قط سيارة مثيلة، وكان مقعدها الخلفي ينوء بكتلة من الحقائب بالغة الجدّة، وبرزم الهدايا التي لم تُفضّ بعد، بالإضافة إلى السكسافون الوتري الذي تولعت به نينا داكونت قبل أن تستسلم لغرام فتاها المغيظ، وغد الشواطىء الشهيرة.

حين أعاد الحارس المدني الجوازين بعد ختمهما سأله بيللي سانشيزأين يمكنهما العثور على صيدلية لتضميد اصبع زوجته، فأجابه الشرطي صائحاً في وجه الريح أن يستعلم عن ذلك في هانداي Hendaye لجهة الحدود الفرنسية. لكن رجال الشرطة هناك كانوا يجلسون وقد شمروا أكمامهم أمام طاولة في مرقب زجاجي حسن الإضاءة والتدفئة، منهمكين بلعب الورق فيما يلتهمون خبزاً مُغمساً بكؤوس النبيذ: فاكتفوا بنظرة خاطفة أحاطوا بها أنموذج ومظهر السيارة ثم أشاروا لهم بالعبور إلى فرنسا. أطلق بيللي سانشيز بوق السيارة تكراراً لتنبيههم، غير أن غفلتهم عما يريده جعلت أحدهم يفتح كوة المرقب ويصيح بهما بأشدّ من صياح الريح. «تباً اغربا عن وجهي». عندئذٍ ترجلت نينا داكونت من السيارة وقد رفعت ياقة معطفها حتى الأذنين، وبفرنسية متقنة سألت الشرطي أين يمكنها العثور على صيدلية. بفم محشو بالخبز ومن غير إهتمام أجابها الرجل بأن الأمر ليس من شأنه لا سيما في مثل تلك العاصفة ثم عمد إلى إقفال الكوة. لكن نظراته تسمّرت بغتة على المرأة الشابة التي

كانت تمصُّ إصبعها وقد تألقت ببريق الفيزون. ولا بُدَّ أنها ظهرت له وسط ذاك الليل البهيم كحورية ساحرة من حوريات الجنّ ذلك أن مزاجه رقَّ فجأة وأوضح لها أن أقرب المدن هي بياريتز Biarritz، لكنه لن يسعها في غمرة الشقاء وفي مثل ذاك المناخ الرديء إيجاد صيدلية عاملة قبل مدينة بايون Bayonne التي تبعد قليلاً. «هل الأمر خطير؟ سألها الرجل، ـ لا، لا أهمية لذلك. أجابت نينا داكونت باسمة وهي تلوح له باصبعها المجروح حيث كان يلمع خاتم الزواج الماسي. ويبدو بالكاد في طرفه جرح صغير، مجرد وخز شوكة وردة.

قبل بايون، عاد الثلج ينهمر، ولم يكن الوقت قد تجاوز السابعة، غير أنهما ألفيا الشوارع مقفرة والمنازل موصدة بفعل هياج العاصفة. بعد أن طافا بالبلدة دون أن يعثرا على صيدلية عزما على متابعة سيرهما. وقد إغتبط بيللي سانشيز لهذا القرار فقد كان شغوفاً إلى حد النهم بالسيارات النادرة، وكان إبناً مدلّلاً يستعين في كبح ما ينتابه من مشاعر الاثم بكثير من الوسائل الحائلة دون إشباع تطلّباته، ولم يكن قد قاد من قبل سيارة تماثل سيارة البنثلي تلك، التي ينحسر غطاؤها والتي كانت هدية زواجه، وقد تجلّى شغفه بالقيادة أنه كان يشعر بالإنتعاش ما دامت السيارة تواصل سيرها وبالإنهاك متى توقفت. حتى أنه كان جديراً بمتابعة القيادة إلى بوردو حيث ينتظرهما جناح فاخر للزواج في فندق سبلنديد. وما كانت أشد العواصف هياجاً ولا ثلوج السماء كافة لتثنيه عن ذلك، بالمقابل كانت نينا

داكونت خائرة القوى لا سيما بعد الشق الأخير من طريق مدريد وهو كناية عن درب ضيق يسوطه وابل البَرَدِ بحيث أنها لفت اصبعها بمنديل أحسنت شده لتوقف نزيف الدم المستمر ثم استسلمت للنوم بعد أن تجاوزا بايون.

لم يتنبه بيللي سانشيز لرقادها إلاّ قبيل منتصف الليل بقليل، حين كان الثلج قد توقف. وسكنت الريح بين أشجار الصنوبر وصقلت النجوم سماء الجزر. كانا قد تجاوزا أضواء بوردو لكنه لم يتوقف إلاّ ليملأ خزان السيارة بالوقود في محطة قائمة على جانب الطريق، ذلك أنه أحس بحيوية تساعده على مواصلة القيادة حتى باريس من غير توقف. كان سعيداً للغاية بدميته الباهظة التي بلغت قيمتها خمسة وعشرين الف ليرة استرلينية حتى أنه ما تساءل إن كانت تعني له ذات ما تعنيه لتلك المخلوقة الرائعة الهاجعة إلى جواره وقد لفّت اصبعها بمنديل مخضّب بالدم، وعبرت رقادها اليافع لأول مرة زوابع الشك.

كانا قد تزوجا قبل ثلاثة أيام في قرطاجينة دو اندياس Eartagena de Indias التي تبعد عشرة آلاف كيلومتر تحت الأنظار المبهرة لعائلة بيللي سانشيز، والأنظار الخائبة لذوي نينا داكونت، إنما بمباركة رئيس الأساقفة شخصياً. ما عداهما هما الإثنين ليس ثمة من كان يدرك البواعث الدفينة لمثل هذا الحب غير المتوقع. وما من أحد عرف منشأه. حدث ذلك قبل ثلاثة أشهر من زواجهما، ذات نهار أحد على شاطىء البحر عندما اقتحمت سَلَّة بيللي سانشيز

حجرات الثياب الخاصة بالنساء على شاطىء ماربيللا Marbella، كانت نينا داكونت التي بلغت الثامنة عشرة ولم يمضِ زمن طويل على تخرجها في مدرسة شاتلليني Chatallenie الداخلية في سان ـ بلنير في سويسرا وهي تتقن أربع لغات لا لكنة فيها وتعزف على السكسافون الوتري ببراعة فائقة. قد قصدت الشاطىء لأول مرة بعد عودتها.

كانت قد تعرّت تمهيداً لإرتداء المايو حين ضجّت الكابينات المجاورة فجأة بأولى صيحات الهلع. وتعالت منها غمغمات العراك، لكنها لم تدرك ما يجري إلاّ حين تطايرت شظايا مزلاج الباب وانبعث امامها أبهى من وقعت عليه عيناها من أوغاد الرجال. كان عارياً إلاّ من سروال قصير وقد أكتسى جسده الرشيق الواثق بسمرة ذهبية كسمرة البحّارة. حول معصمه الأيمن حيث إنعقد سوار المصارع الروماني، التفّت سلسلة حديديّة مجدولة هي سلاحه الفتاك. ومن عنقه تدلّت ميدالية صغيرة خلت من النقوش، تناغمت إختلاجاتها الساكنة مع وَجِيفِ قلبه الهائم. معاً كانا قد درسا في المدرسة الإبتدائية نفسها ومعاً كانا قد احتفلا بالعديد من اعياد الميلاد، ذلك أنهما ينتميان إلى أصول دينية واحدة تحكّمت وفق مشيئتها بمصائر المدينة منذ الإستعمار، غير أنهما تباعدا ولم يلتقيا لزمن بعيد بحيث أن واحدهما ما عرف الآخر للوهلة الأولى: لبثت نينا داكونت ساكنة في مكانها، دون أن يبدو منها ما ينم عن الرغبة بستر عريها. عندئذ أكمل بيللي سانشيز طقسه الصبياني التافه فخلع،

سرواله كاشفاً أمامها عن شموخ عضوه المنتصب. فحدقت في عينيه مباشرة ولم يرف لها جفن ثم قالت وهي تغالب رعبها: «سبق لي أن رأيت ما هو أكبر وأشد انتصاباً. ما عليك إذاً سوى التفكير جيداً بما تنوي فعله، إذ يجدر بك ممارسة الحب معي أفضل مما يمارسه زنجي».

واقعاً، كانت نينا داكونت ماتزال عذراء، ولم يحدث لها أبداً أن رأت رجلاً عارياً من قبل. لكنها نجحت في اثارته بحيث ألفى نفسه تلقائياً يُسدِّد لكمة هائجة تجاه الجدار. فكان أن هشَّمت له السلسلة المجدولة حول معصمه عظام يده، حملته بسيارتها إلى المستشفى ومكثت إلى جانبه حتى تجاوز طور النقاهة. وانتهى بهما الأمر أن تعلَّما فن ممارسة الحب معاً، كما يجدر بعاشقين. كانا يمضيان عصريات يونيو العصيبة تلك على الشرفة الداخلية للمنزل حيث لاقت حتفها ستة أجيال متوالية من عائلة داكونت النبيلة، هي في عزف أغنيات عصرية على آلة السكسافون، وهو في أرجوحة النوم مسترخياً وقد لُفَّت يده بالجصِّ يتأملها بإنبهار لا حدود له. كان للمنزل فرجات عدة تُشرف على المستنقع العفن في الجوف الصغير، وهو من أقدم مساكن حي المانغا Manga وأضخمها لكنه، أيضاً، دون ريب، أشدها قباحة. أمَّا الشرفة المبلطة بمربعات منسقة حيث كانت نينا داكونت تعزف على السكسافون فأشبه بواحة من الإنتعاش وسط قيظ الظهيرة إذ تُطِّل على صحن الدار الذي ترعاه الأفياء الظليلة لأشجار المانغا والموز حيث يرقد شاهد لقبر مجهول أعتق

من المنزل ومن ذاكرة العائلة. وكان أقلُّ الناس إحساساً بالموسيقى يجدون في انغام السكسافون ما ينطوي على مفارقة تاريخية في منزل بمثل ذلك النبل.

«قد يُقال إنه بوق سفينة» أكدت جدة نينا داكونت حين سمعت عزفها لأول مرة. وعبثاً كانت تحاول أمها دفعها لتعزف بطريقة مختلفة عن تلك التي ألفتها بحكم العادة. ذلك انها كانت تجلس منفرجة الساقين فيما تنحسر تنورتها حتى تبلغ ردفيها بفجور لم يكن يتراءى للأم متلائماً بالضرورة مع الموسيقى. «لست أبالي بأية آلة تعزفين. كانت تقول لها شرط أن تعزفي مضمومة الساقين». على أن ذاك الجموح الشبيه بأهواء مركب يتأهب للإبحار، وذاك التوق للحب هما ما أتاحا لنينا داكونت النفاذ إلى اعماق بيللي سانشيز. فقد تكشفت لها خلف ستار من سمعته المشينة كزقاقي ، داعر يدعمها إقتران لقبين أسريّيْن شهيرين شخصية يتيم نفورٍ ورقيق. وبقدر ما كانت عظام يده تتماثل للشفاء، بقدر ما كانا يقربان من بعضهما إلى أن أذهلته البساطة التي جرفهما بها الحب حين قادته إلى سريرها الطفولي ذات مساء ممطر كانا خلاله وحيدين في المنزل، طيلة أسبوعين تقريباً داما يلهوان في الساعة عينها يومياً عاريين تحت الأنظار المنذهلة لمقاتلين لا يرتدون بزاتهم العسكرية، ولجدات نهمات سبقنهما إلى نعيم ذلك المضجع التاريخي. حتى بعد جمودهما بعد ممارسة الحب كانا يمكثان عاريين، يستنشقان عبر النوافذ المشرعة روائح الوخم المتصاعدة من هياكل المراكب، وعفن

البراز في المستنقع، ويصغيان في هدءات السكسافون لوشوشات الدار الرتيبة وللنوتة الفريدة يوقّعها ضفدع قابع تحت أشجار الموز ولقطرة الماء تطرق جمود الرمس المجهول، ولدورة الحياة الطبيعية التي لم يكن قد تسنّى لهما الوقت بعد ليألفاها.

حين عاد ذوو نينا داكونته إلى الدار، كانا قد بلغا شوطاً بعيداً في فن الحب، حتى لم يعد ثمة مكان في العالم لأي شيء آخر. مارساه في كل الأوقات وفي الأمكنة كافة وفي كل مرة كانا يحاولان ابتكار جديد منه، في البداية كانا يمارسانه بنهم في سيارات السباق التي كانت تهدّىء من ثائرة بيللي سانشيز ثم تحولا حين باتت تلك السيارات مكاناً مألوفاً، للإندساس ليلاً في الكابينات الخالية على شاطىء ماربيللا حيث جمعهما القدر وجها لوجه للمرة الأولى. وقد بلغ بهما الأمر أن إنسلاً متنكرين اثناء كرنفال شهر نوفمبر إلى حجرات الحي القديم لزنوج في جتسماني Gatsemani تحت رعاية قوّادات كان عليهن لبضعة شهور خلت تحمُّل بيللي سانشيز وزمرته الداعرة من دون أن يجرأنَ على الإعتراض. استسلمت نينا داكونت لغرامياتها السرّيّة بتفانٍ هذياني يماثل ذاك الذي أغدقته حتى ذلك الحين على عزف السكسافون إلى أن أدرك وغدها الأليف ما الذي عنته حين جابهته بقولها: أن يمارسه بأفضل مما يفعله الزنجي. وكان بيللي سانشيز يلبي جيداً وبصورة دائمة رغباتها وبشغف يضاهي شغفها. بعد زواجهما، مارسا واجبهما الزوجي فوق أجواء الأطلنطيك فيما كانت المضيفات غارقات في النوم. مقهقهان حتى

الدمع وقد إنحشرا خلف الباب الموصد في مراحيض الطائرة. وحدهما فقط كانا يدركان آنذاك، بعد مضي أربع وعشرين ساعة على زواجهما أن نينا داكونت حامل منذ شهرين.

حين بلغا مدريد، لم يبدوا كعاشقين أشبعا غليلهما، لكنهما كانا ما يزالان يحتفظان بما يكفي للإيحاء بسلوك زوجين بريئين. وكان ذووهما قد أعدوا كل شيء لإستقبالهما. قبل أن يغادرا الطائرة صعد موظف رسميّ إلى متنها. وفي قمرة من الدرجة الأولى سلّم نينا داكونت معطف الفيزون الأبيض الموشح بسواد براق هدية ذويها بمناسبة زواجها وقدّم لبيللي سانشيز سترة من فرو الخريف، أحدث ما أطلعته الموضة ذلك الشتاء، إضافة إلى سلسلة مفاتيح، ليس ما يميّزها أو يشيرإلى سيارة كانت بإنتظارهما كمفاجأة لهما في المطار.

في قاعة التشريفات الرسمية إستضافهما الوفد الديبلوماسي لبلدهما، فقد كان السفير وزوجته من المعارف القدامى لعائلتيهما، كما كان إضافة إلى صفته الديبلوماسية، الطبيب الذي أشرف على ولادة نينا داكونت. استقبلها بباقة من الزهر رائعة للغاية نديّة للغاية، حتى أن حبات الندى فوقها بدت قطرات إصطناعية. شكرته بقبلة جفلة وقد أربكها أن تبدو شابة صغيرة تزوجت قبل الأوان، وتناولت منه باقة الزهر. حينها وخزت الشوكة إصبعها، لكنها تغلّبت على جرحها بعبارة ساحرة «فعلت ذلك عمداً، علّك تلاحظ خاتم زواجي».

انبهر اعضاء الوفد أجمعهم بروعة الخاتم الذي لا بُدّ كلّف ثروة

طائلة سواء لقيمة الالماس الذي يُرصّعه أو لصياغته القديمة التي لم يذهب بها الزمن. في المقابل ليس ثمة من لاحظ أن إصبعها قد بدأ ينزف، ذلك أن انتباه الجميع تحوّل إلى السيارة الجديدة. وعلى الرغم من أن السفير قد تلطّف بنقلها إلى المطار بعد أن غلفها بورق السيلوفان المعقود بشريط ضخم من الحرير المُذهب، لم يطرِ بيللي سانشيز على بادرته، فقد بدا نافذ الصبر لرؤية السيارة إلى حد جعله ينتزع الغلاف دفعة واحدة. كانت من أحدث طراز سيارات البنتلي Bentley، حاسرة السقف ومبطنة بجلد حقيقي فمضى يتأملها مبهوراً. كانت السماء تتجلى كمعطف من الرماد، ومن قمم جبال سيارا غاداراما Guadarrama هبّت ريح جليدية، وكان الوفد كله تحت رحمة شوادن الطبيعة، لكن بيللي سانشيز ما كان قد شعر بالصقيع بعد. فلم يلاحظ أن سياط الجليد نالت من الجميع. ودام يتمعن بالسيارة مرغماً أعضاء الوفد الديبلوماسي على البقاء في العراء إلى أن انتهى من تفحص أدق تفاصيلها. عندها أخذ السفير لنفسه مكاناً إلى جانبه ليرشده إلى المقر الرسمي حيث كان حفل غداء بإنتظارهم. على الطريق حدثه عن الأماكن التي تدين لها المدينة بشهرتها. لكن بيللي سانشيز ظلّ ساهياً فقد كان مأخوذاً تماماً بسحر العربة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها بلده، حيث طاف على المؤسسات التعليمية كافة الخاصة منها والعامة، معيداً في كل مرة سنته الدراسية نفسها لينتهي من ذلك كله فاشلاً، يتأرجح فوق

(غمامة من إنعدام الحب. حين رأى لأول مرة مدينة خلاف مدينته، تُضاء فيها مجموعة المساكن الرماديّة في وضح النهار، وتتعرى أشجارها، وينأى عنها البحر إجتاحه إحساس متنامٍ بالإضطراب حاول إقصاءه بعيداً، غير أنه، وعلى غفلة منه، ما لبث أن سقط في شرك النسيان.

في الأفق كان ثمة عاصفة مباغتة وساكنة قد همدت. هي أولى عواصف ذاك الشتاء. وكانت المدينة عندما غادرا المقر الرسمي في طريقهما إلى باريس مغمورة بثلج متلألىء، نسي معه بيللي سانشيز السيارة. ومضى يصيح مبتهجاً على مرأى من الجميع ويرشق نفسه بهباء الثلج، ويتمرغ بمعطفه فوق الندف البيضاء في وسط الطريق.

ذاك المساء، وكان الطقس قد صفا وانكفأ الإعصار بعد أن تجاوزا مدريد، لاحظت نينا داكونت للمرة الأولى أن إصبعها كان ينزف. فأذهلها الأمر، ذلك أنها كانت قد رافقت زوجة السفير التي تهوى غناء الأوبريت الإيطاليّة، بالعزف على السكسافون بعد انتهائهما من تناول الغداء الرسمي، ولم تكن تشعر حينها سوى بألم بسيط في بنصرها. لاحقاً وفيما كانت ترشد زوجها إلى أقصر الطرق المؤدّية إلى الحدود، كانت ترفع أصبعها إلى فمها في كل مرة ينزف فيها دون أن تعير الأمر أهمية. ولم تلح عليها فكرة البحث عن صيدلية إلاّ بعد بلوغهما البرينيه. فيما بعد رزحت تحت وطأة النعاس بعد أرق الأيام الأخيرة. حتى أنها حين استيقظت من غفوتها وقد لازمها، كما لو كانت تعيش كابوساً، الإحساس بأن السيارة تدور بها

فوق الماء. لم تفكر للحظات طويلة بالمنديل المعقود حول أصبعها. كان البندول المضاء للوحة القيادة يشير إلى إنقضاء ثلاث ساعات، وسرعان ما أدركت بعد حساب سريع أنهما تجاوزا بورود وانغوليم Angouléme وبواتييه، وأنهما لا بدَّ في طريقهما الآن لإجتياز سدَّ تغمره فيضانات نهر اللوار. كان ضوء القمر يخترق الضباب، ومن بين أشجار الصنوبر لاحت ظلال القصور كأطياف تنبجس من حكايات الجن. خمَّنت نينا داكونت التي كانت تحفظ جغرافية المنطقة عن ظهر قلب أنهما يبعدان عن باريس مسيرة ثلاث ساعات، وفكرت بغتة أن بيللي سانشيز الرابط الجأش واصل القيادة دون توقُّف. «إنَّك لمتوحش. قالت له. أنت تقود منذ إحدى عشرة ساعة من غير أن تتناول أي طعام».

كانت نشوته بالسيارة الجديدة قد أجَّجت طاقته. وعلى الرغم من أنه لم ينم كفايته في الطائرة كان يشعر أنه بكامل يقظته وبأنه في حال أفضل من أي وقت مضى ليبلغ باريس قبل الفجر.

«مع ما أكلته في السفارة...، قال. ثم أضاف معانداً: ثم إنك تعلمين، أننا في كارتاجينة Cartagena نخرج في مثل هذا الوقت من السينما. فالساعة لم تتجاوز بعد العاشرة». غير أن نينا داكونت كانت تخشى أن يغلبه النعاس أثناء القيادة. فإنتقت واحدة من كومة الرزم التي تلقَّياها في مدريد وفضَّت غلافها. وأرادت أن تلقمه منها قطعة صغيرة من مربَّى البرتقال المجفَّف لكنه أدار وجهه جانباً. «الرجال لا يأكلون المُلبَّس». قال.

قبل بلوغهما أورليون بمسافة قصيرة، إنقشع الضباب وغمر ضياء البدر الأثلام المغمورة بالثلج، وغدا السير كثيفاً بسبب الشاحنات الضخمة المتجهة صوب باريس والمحمّلة بالنبيذ والخضار. ودَّت نينا داكونت لو تتناوب القيادة عن زوجها. لكنها لم تجرؤ حتى على الإيحاء برغبتها. ذلك أنه كان قد صارحها يوم خرجا معاً لأول مرة أن ليس ثمة ما يُشينُ الرجل قدر أن تتولى زوجته القيادة عوضاً عنه. كانت تشعر بالصفاء بعد غفوة تواصلت نحو خمس ساعات. وكانت سعيدة لأنهما لم يقصدا فندقاً من فنادق الريف الفرنسي التي سنحت لها الفرصة في ما مضى لزيارتها عدة مرات بصحبة زوجها. «ليس في العالم ما هو أروع من هذه المناظر الطبيعية، قالت. لكننا قد نموت عطشاً قبل أن نحظى بمن يمدُّ لنا يده بكوب ماء».

كانت على يقين من ذلك، حتى أنها إحتفظت في حقيبة الزينة بصابونة صغيرة وبلفافة من الورق الصحيّ. فالفنادق الفرنسية تخلو تماماً من الصابون ويُستعاض عن ورق التواليت بصحف الأسابيع السابقة مقطعةً إلى مربعات صغيرة ومُعلَّقة بمسمار.

تلك اللحظة، كانت تأسف لأمر واحد فقط، أنها فوّتت ليلة حب. وأتى ردُّ زوجها متجاوباً. «كنت أفكّر للتو بمتعة المضاجعة على الثلج. قال: هنا بالذات إن كنت ترغبين».

فكَّرت نينا داكونت بالأمر جدياً. على جانب الطريق. كان

الثلج يبدو تحت ضوء القمر طريًا دافئاً. غير أنهما بقدر ما كانا يقتربان من الضواحي الباريسيّة، كان السير يغدو أكثر كثافة. وكان ثمة أبنيةٌ صناعية مُضاءة، وبعض العمال يمتطون الدراجات. ولو لم يكن الطقس شتاءً لكان الوقت بدا نهاراً.

«خير لنا الإنتظار حتى نصل باريس، قالت نينا داكونت. أفضّل أن أفعل في سرير دافىء، فوق أغطية نظيفة كما يفعل المتزوجون.

ـ هي المرة الأولى التي تتهرّبين فيها. قال.

ـ هي المرة الأولى لنا بعد الزواج، عقّبت».

قبل طلوع الضوء بقليل، رطّبا وجهيهما بالماء، وقضيا حاجتهما في مراحيض نزل قائم إلى جانب الطريق، ثم تناولا القهوة مع رقاقات الهلالية الساخنة (الكرواسون)، وراء الكونتوار حيث يتناول العابرون فطورهم ويحتسون النبيذ.

في المرحاض انتبهت نينا داكونت أن قميصها وتنورتها ملطخان بالدم، لكنها لم تكترث ولم تحاول تنظيفهما. ألقت بالمنديل المُبلّل في القمامة. ونقلت خاتم الزواج إلى بنصرها الأيسر ثم غسلت أصبعها بإهتمام بالماء والصابون. ولم تلحظ أثراً للوخزة. غير أنه عاد ينزف مجدداً حين عادت إلى السيارة. فتركت ذراعيها مدلاّتين خارج النافذة وقد توهّمت أن صقيع الأراضي المحروثة سوف ينوب عن فضيلة الدواء. خذلها الوهم، وبقي أصبعها ينزف إلاّ أن الأمر لم يكن قد أقلقها بعد.

«إن إفترقنا وأردنا اللقاء مجدداً فلن يصعب علينا ذلك قالت بتلقائية فاتنة. ما علينا سوى تتبُّع أثر دمي على الثلج! ثم وقد فكَّرت في ما قالته للتو، تهلَّل وجهها مع خيوط الفجر الأولى فأضافت: «أتعلم، أثر دماء على الثلج من مدريد إلى باريس ألا يصلح ذلك عنواناً لأغنية جميلة؟».

ولم يكن لديها متسعٌ من الوقت لتفكّر بالأمر مرّتين، ذلك أنهما حين أدركا الضواحي الباريسيّة كان أصبعها قد تحول إلى نبع غزير من الدماء. وشعرت بأن الجرح يكاد يسلمها الروح. كانت قد حاولت إيقاف النزيف بلفائف الورق الصحي، لكنه كان يقتضيها لتضميد أصبعها وقتاً أطول مما ينبغي لترمي عبر النافذة بضمادات الورق المدمّاة. وكان معطفها وثيابها ومقعد السيارة تتشبَّع تدريجياً بالدم حتى بات من المستحيل تفادي ذلك. فاستبد الخوف ببيللي سانشيز وأصرَّ على البحث عن صيدليّة، لكن نينا داكونت كانت قد أدركت حينها أن الأمر لم يعد من شأن الصيدلي فقط.

«إننا بمحاذاة بوابة أورليون Porte d'orléons، قالت. تابع سيرك يميناً باتجاه جادة الجنرال لوكليرك. تلك التي تكثر أشجارها ويتسع طريقها. وسوف أشير لك لاحقاً من أين ينبغي لك أن تنحرف».

كانت تلك المسافة هي الأشقى خلال الرحلة. فعلى جادة الجنرال لوكليرك، كان ثمة إزدحام جهنّمي من السيارات الصغيرة والموتوسيكلات، وعرقلة في جميع الإتجاهات. إضافة إلى

الشاحنات الضخمة التي حاولت أن تشق لها طريقاً عبر الهال Halles. أغاظ الضجيج غير المجدي الذي أثارته أبواق السيارات بيللي سانشيز، فمضى يوزّع شتائمه الزقاقية على السائقين وقد بلغ به الغضب حدًّا حفّزه للترجل من السيارة ليتعارك مع أحدهم. لكن نينا داكونت نجحت في إقناعه بأن الفرنسيين على ما عُرف عنهم من الفظاظة، يتجنّبون العراك. وكان ذلك برهاناً إضافياً على سلامة حواسها، ذلك أنها في اللحظة نفسها كانت تحاول جاهدة لتحتفظ بوعيها كاملاً. أعاقتهما عرقلة السير ما يزيد على الساعة. إنطلقا بعدها من جادة ليون دو بلفور Lion de Belfort. كانت المقاهي والمخازن مُضاءة كما لو كان الوقت منتصف الليل، في تلك الأربعاء الرمادية المقطّبة من شهر يناير. والمفرطة في باريسيّتها تحت ذاك الرذاذ العنيد الذي ما كان ليتحول ثلجاً. في المقابل كانت جادة دنفير ـ روشيرو Denfert - Rochereau سالكة بالإتجاهين. على بعد بضع مئات من الأمتار سألت نينا داكونت زوجها أن ينعطف يميناً، وأن يركن سيارته أمام مدخل الطوارئ لمستشفى ضخم ومُظلم.

كانت عاجزة عن الترجّل من السيارة من غير مساعدة. لكنها ما فقدت هدوءها ولا صفاءها. وبإنتظار الطبيب المناوب أجابت وهي مستلقية فوق الحمّالة عن الأسئلة الروتينيّة التي طرحتها الممرضة حول هويتها وعلاجاتها السابقة. أمسك لها بيللي سانشيز الحقيبة وضغط على يدها اليسرى حيث وضعت خاتم الزواج فألفاها ذابلة باردة، ولاحظ أن شفتيها شاحبتان فمكث إلى جانبها مبقياً على يديها

في راحة يده إلى أن جاء الطبيب المناوب الذي عاين على عجل الأصبع المجروح. بدا فتياً أصلع بشرته لون النحاس المزنجر. توجهت نينا داكونت إلى زوجها بإبتسامة كابية دون أن تعير الطبيب التفاتاً.

«لا تخف، قالت بظرافتها التي لا تقاوم. أسوأ ما قد يحدث لي أن يقطع هذا المتوحش يدي ويلتهمها».

حين انتهى الطبيب من كشفه باغتهما سماعه يقول بإسبانية سليمة للغاية تخالطها لكنة أسيوية طريفة.

«إطلاقاً Muchaches. قال. قد يؤثر هذا المتوحش الموت جوعاً على أن يقطع يداً بمثل هذا الجمال».

صاحا مصعوقين، غير أن الطبيب طمأنهما بإيماءة ودّية، ثم أمر بإحضار النقّالة. وحين حاول بيللي سانشيز اللحاق بهما مبقياً على يدها في يده أمسكه الطبيب من ذراعه: «ليس أنت، قال له. سوف نحملها إلى غرفة العناية الفائقة. مرة جديدة ابتسمت نينا داكونت لزوجها وبقيت نظراتها تتابعه ثم قبل أن تختفي في طرف الرواق لوحت له بيدها، فيما تباطأ الطبيب لمراجعة التعليمات التي سبق للمرضة أن سجّلتها على لوح صغير فناداه بيللي سانشيز:

«دكتور. قال له. إنها حامل.

ـ منذ متى؟

ـ منذ شهرين.

لم يعر الطبيب الأمر الأهمية التي ينشدها بيللي سانشيز «فعلت حسناً بتحذيري» قال له قبل انصرافه.

لبث بيللي سانشيز متصباً في مكانه وسط القاعة الكئيبة العابقة بعرق المرضى. خليُّ البال من أي فعل، محدِّقاً في الرواق الخالي حيث توارت نينا داكونت. ثم جلس على مقعد خشبي حيث كان ينتظر الآخرون. لم يعلم كم فات عليه من الوقت هناك. لكنه حين عزم على الذهاب، كان الليل قد هبط من جديد، وكانت السماء ما تزال تُمطر رذاذاً. مثقلاً بالهموم، كان ما يزال يشعر بالعجز عن المبادرة بأي فعل من تلقاء نفسه.

دخلت نينا داكونت المستشفى يوم الأربعاء الواقع في السابع من يناير. في تمام التاسعة والنصف، كما تحقّقت عند معاينتي للأرشيفات بعد إنقضاء عدة أعوام. في الليلة الأولى رقد بيللي سانشيز في السيارة المركونة أمام سقيفة الطوارىء. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ابتلع ست بيضات مسلوقة وكوبين من القهوة بالحليب، في حانة صغيرة قريبة من المستشفى، ذلك أنه لم يكن قد تناول فطوراً كاملاً منذ غادر مدريد. ثم عاد بعد ذلك إلى مركز الطوارىء لرؤية نينا داكونت. لكنه أُبلِغَ بأن عليه المرور عبر المدخل الرئيسي. حيث عُثر على إسباني من استوريا يناوب في المستشفى ساعده على استيضاح الحارس الذي أكّد له بأن اسم نينا داكونت قد ورد فعلاً في سجل المستشفى. لكن القسم الذي تُعالج فيه تُمنع عنه الزايارت ما خلا يوم الثلاثاء من التاسعة صباحاً وحتى الرابعة مساء.

أي ما يُفيد ستة أيام من الإنتظار. فأعرب عن رغبته برؤية الطبيب الذي يُحسن الإسبانية والذي وصفه بالزنجي الأصلع، غير أن أحداً ما كان ليقيم إعتباراً لمثل هاتين الصفتين المألوفتين.

طمأنه ورود اسم نينا داكونت في سجل المستشفى. فقفل عائداً إلى حيث ترك سيارته. هناك أرغمه شرطي السير على إيقاف السيارة أبعد قليلاً، في شارع ضيق لجهة الأرقام المفردة. على الرصيف المقابل لمح بناءً صغيراً يحمل لافتة «فندق نيكولا».

ولم يكن الفندق فخماً فقد اقتصر طابقه السفلي على مدخل واحد يُطل على بهو صغير جُهّز بكنبة يتيمة وبيانو قديم، لكن المالك ذا الصوت الصاخب كان مفطوراً على التفاهم مع زبائنه على إختلاف لغاتهم شرط أن يتلزموا بدفع ما يترتّب عليهم.

إستقرّ بيللي سانشيز مع حقائبه الإحدى عشرة ورزم الهدايا التسع في الحجرة الوحيدة الخالية. وهي عبارة عن سقيفة مثلّثة الزوايا في الطابق التاسع. يصل إليها ساكنها لاهث الأنفاس بعد أن يرتقي سلماً حلزونياً. وقد زكمت أنفه رائحة كرائحة القنبيط المسلوق. كانت جدرانها مكسوة بورق قاتم. ومن الفناء الداخلي كان يتسلّل عبر نافذتها الوحيدة ضياء خافت. إكتظ داخلها بسرير مزدوج وخزانة ضخمة وكرسي عادي وحوض نقّال للإستبراد، ومنضدة للزينة فوقها طشت وإبريق بحيث كان الإستلقاء على السرير هو الطريقة الوحيدة للمكوث في الحجرة. وقد بدا كلُّ ما في داخلها أقرب إلى التلف منه إلى القدم.

ما كان العمر بأكمله ليكفل لبيللي سانشيز حلّ أحاجي هذا العالم القائم على عبقرية البخل. فقد ظلّ نور السلم الذي كان ينطفىء قبل بلوغه الطابق لغزاً محيّراً. كذلك ما عرف قط كيف يضيئه من جديد وقد أمضى وقتاً طيباً من الصباح ليدرك أن ثمّة غرفة صغيرة للمراحيض عند كل طابق. وكان قد ألف استخدامها في العتمة، حين اكتشف صدفة أنها تُضاء متى أُقفل باب المرحاض بالمزلاج من الداخل كي لا يغفل الخارج منه عن إطفاء النور. أمّا كلفة الدوش القائم على الجانب الآخر من الرواق، وكان يصرّ على استخدامه مرتين في اليوم كما اعتاد في بلاده، فكانت تُدفع نقداً وعلى حدة، وكانت مياه الإستحمام الدافئة التي حرصت الإدارة على مراقبتها تُقطع كل ثلاث دقائق. في المقابل كان بيللي سانشيز يعي تماماً بأن هذا النمط المغاير كلّيًا لنمطه يبقى في أسوأ الظروف أخف وطأة من مناخ يناير الرديء. لكنه كان يشعر أنه محبط للغاية ووحيد للغاية. حتى أنه عجز عن التفكير كيف أمكنه العيش في ما مضى بمنأى عن رعاية نينا داكونت.

ما كاد يلج غرفته صباح الأربعاء، حتى ارتمى بمعطفه منبطحاً على السرير، متفكّراً بتلك المخلوقة الرائعة التي ما تزال تنزف دمها على الناحية المقابلة من الشارع. ثم غرق لساعته في نوم عميق. حين استيقظ كانت ساعته تشير إلى الخامسة، لكنه كان يجهل من أي صباح أو مساء أو يوم أو أسبوع. أو في أية مدينة مشرعَة نوافذها للريح والمطر هو.

تحت غطائه في السرير، بقي متيقّظاً وقد غلب عليه التفكير بنينا داكونت إلى أن انشق ضوء النهار، حينها غادر غرفته ليتناول فطوره الصباحي في الحانة عينها التي قصدها ليل البارحة حيث علم بأن اليوم كان نهار خميس. رأى المستشفى مُضاء وكان المطر قد توقّف، بحيث راوده الأمل بلقاء الطبيب الأسيوي الذي عاين نينا داكونت. فمكث أمام المدخل الرئيسي للمستشفى متكئاً على جذع شجرة كستناء يراقب دخول وخروج ممرضات وأطباء ببدلات بيضاء. لم يلمحه لا ذاك الصباح ولا بعد الفطور. وصمّم وقد جمده الصقيع أن يكفّ عن الإنتظار. نحو السابعة مساء احتسى كوباً آخر من القهوة بالحليب والتهم بيضتين مسلوقتين وراء الكونتوار. كما فعل تماماً منذ ثماني وأربعين ساعة في الحانة نفسها. حين عاد للنوم في الفندق لم يلمح إلى جانب الرصيف سوى سيارته وقد أُلصق على دراعتها محضر مخالفة، ذلك أن بقية السيارات كانت مركونة على الرصيف المقابل. وقد صرف حارس فندق نيكولا وقتاً طيباً ليشرح له بأن عليه في الأيام المفردة إيقاف سيارته ناحية الأرقام المفردة ثم ناحية الأرقام الشفعيّة في الأيام الأخرى.

مثل تلك الإجراءات العقلانية كانت لتبدو مُبهمة بالكامل بالنسبة لشخص يتحدّر من سلالة سانشيز دو أفيلا العريقة، أقدَمَ منذ ما يقارب العامين، وبسيارة الحاكم الخاصة، على سحق دار للسينما في أحد الأحياء متسبّباً بأضرار مميتة على مرأى ومسمع من رجال الشرطة الهادىء الأعصاب. وقد زاد الأمر عليه التباساً حين نصحه

الحارس بتسديد الغرامة والإبقاء على السيارة حيث هي لئلا يضطر لتغيير مكانها بعد منتصف الليل. عند الفجر، وللمرة الأولى لم تعد نينا داكونت الهاجس الوحيد الذي يملك عليه تفكيره. فتقلّب وتململ في فراشه وقد إستعصى عليه النوم. ومثُلت له من جديد أيام البطالة في مواخير اللواطيين في سوق كارتاجينة دل كاريب Cartagena del Carib. فكّر في منزله بجدرانه المكسوة بنباتات الجهنميّة حيث كان ينبغي له أن يكون مساء العشيّة ليرى والده في منامة الحرير يتبرّد على الشرفة فيما يطالع صحيفته.

فكّر في أمه التي كان يفتقد وجودها في معظم الأوقات. أمه المثيرة الشبيهة بحبة فاكهة، تدسّ زهرة في أذنها متى حلّ المساء وتتحلّى بثوبها الإحتفالي، وتضيق أنفاسها بروعة حُليّها الخانقة. كان في السابعة حين دخل غرفتها خلسة ذات مساء ليفاجئها عارية في السرير بصحبة أحد عشاقها العابرين. وقد أقحمهما هذا الكشف الذي ما تحدّث عنه قط، بصلة أقرب إلى التواطؤ المتبادل وأشد فعالية من الحب. غير أنه لم يكن يعي ذلك، كما لم يعِ الأمور الرهيبة كافة لعزلته، هو الإبن الوحيد، حتى تلك الليلة فيما كان يتململُ ويتقلّب في سريره وحيداً داخل السقيفة الباريسيّة الكئيبة حيث لا وجود لأي كائن آخر يشكو له شقاءه، وهو في ذروة النقمة والهياج ذلك أنه ما كان ليغفر لنفسه حاجتها للبكاء.

أتت ليلته سهاداً مُغلاًّ. واستيقظ نهار الجمعة وقد أنهكه أرق البارحة غير أنه كان عازماً على التماسك ومواجهة الأمور بشجاعة.

صمّم أخيراً أن يحطّم قفل حقيبته ليبدّل ثيابه فقد بقيت حزمة المفاتيح في حقيبة نينا داكونت كذلك القسم الأكبر من المال. وفهرس بالعناوين حيث كان بوسعه لا ريب العثور على رقم هاتف لصديق يقيم في باريس. في الحانة المألوفة لاحظ بأنه ألِف إلقاء التحية بالفرنسية، وطلب الساندويشات بالجنبون والقهوة بالحليب، وأدرك أيضاً أنه لن يوفق أبداً إلى طلب الزبدة أو البيض ذلك أنه لم يتعلّم قط كيفية النطق بما يعني مفردهما. في المقابل لم يكن مُضطراً لطلبهما فقد كانت الزبدة تقدم له دوماً إلى جانب الخبز وكان بوسعه تناول البيض من على المبسط. كان خدم الحانة بعد أن اعتادوا حضوره طيلة أيام ثلاثة يساعدونه للتعبير عما يريد بحيث إستطاع ظهر الجمعة فيما كان يحاول إستجماع ذهنه طلب طبق من البفتيك المقلي وزجاجة من النبيذ. ثم حين شعر بتحسن حاله أردفها بأخرى إحتسى منها مقدار النصف قبل أن ينصرف مجتازاً الشارع بخطى ثابتة، موطداً العزم على دخول المستشفى عنوة. لم يكن يعلم أين سيجد نينا داكونت لكن الصورة الخارقة للطبيب الآسيوي بقيت محفورة في ذاكرته وكان على يقين من العثور عليه من جديد. وعوضاً عن الباب الرئيسي دخل عبر مدخل الطوارىء لظنه بأنه أقل عرضة للمراقبة. غير أنه لم يتمكن من الذهاب إلى أبعد من حدود الرواق حيث كانت نينا داكونت قد ودّعته بإيماءة من يدها. سأله حارس يرتدي بدلة بيضاء ملطخة بالدم، شيئاً ما، تعمّد عدم سماعه فتبعه الرجل مكرراً السؤال عينه بالفرنسية. ثم حين لم يستجب جذبه

من ذراعه بقوة شلت حركته على الفور. حاول بيللي سانشيز التملُّص بحركة خفيّة متمثّلاً زمرته من الزعران لكن الحارس قذفه برشق من الشتائم وعاد يشلُّ ذراعه، دون أن يكفّ لحظة عن وصف أمه بالمومس. ثم قاده عنوة حتى باب الخروج وهو يئنُّ من الألم ليلقي به وسط الشارع ككومة من الغسيل القذر.

عصر ذاك اليوم وقد آلمه ما تعرَّض له من تأديب، بدأ بيللي سانشيز يتحول إلى رجل ناضج وقرَّر كما لكانت تفعله نينا داكونت، الإتصال بسفير بلاده. وقد بحث حارس الفندق الذي كان برغم طباعه المتذمرة، خدوماً بالغ الجلد حيال الزبائن الغرباء، عن عنوان السفارة ورقم هاتفها في الدليل ثم سجلها على بطاقة قدمها له. على الهاتف أجابت امرأة لطيفة للغاية ميَّز في صوتها الرتيب الهادىء لكنة سكان الآند. فاستهل حديثه بذكر اسمه مؤمناً من الوقع المؤثر للقب أسرتيه في سمع مخاطبته. لكن النبرة لم تتغيّر. أصغى إليها تتلو درساً حفظته عن ظهر قلب: سعادة السفير غير موجود في مكتبه حالياً. نحن لا نتوقع حضوره قبل الغد. في مطلق الأحوال سعادته يمتنع عن إستقبال الزائرين إلاَّ بناء لموعد مسبق. وفي حالات استثنائية جداً. وعلى الفور أدرك بيللي سانشيز أن هذا الصوت لن يقوده أبداً إلى حيث نينا داكونت فعبَّر عن شكره بالنبرة اللطيفة عينها التي زوَّدته بتلك المعلومات. ثم استقل تاكسياً قاصداً السفارة.

كان مركز السفارة قائماً عند الرقم 22 من شارع الأليزيه أحد أكثر أحياء باريس هدوءاً. في المقابل كانت الشمس هي الظاهرة

الوحيدة التي حرّكت مشاعر بيللي سانشيز وفق ما رواه لي شخصياً في كارتاجينه دو انديا بعد سنوات عدة. فقد تجلّت ذلك النهار وللمرة الأولى منذ قدومه إلى باريس ساطعة بمثل ما هي عليه في الكاريب، بالإضافة إلى برج ايفل الذي تعالى فوق المدينة وسط سماء متألقة. بدا له الموظف الذي استقبله نيابة عن السفير كرجل أبلي للتو من مرض سقيم سواء بالنسبة لبدلته الصوفية السوداء وياقته الضيقة وربطة عنقه المأتمية أو لتحفُّظ حركاته ورقّة صوته. وقد أعرب عن تفهُّمه حيال قلب بيللي سانشيز لكنه ذكّره من غير أن يتخلى عن دماثته بأنه مقيمٌ في بلد متحضّر يستقي قوانينه الصارمة من منبع أصول تُعتبر عريقة أكثر منها حكيمة، خلافاً لأميركا البربريّة حيث تكفي رشوة الحارس لدخول المستشفى. «لا يا صغيري العزيز. قال له. لست تملك خياراً آخر خلاف الخضوع لسلطة المنطق. بإنتظار حلول الثلاثاء. لم يبقَ أمامك في مطلق الأحوال سوى أربعة أيام. إستخلص قائلاً، بإنتظار ذلك ما رأيك بزيارة اللوفر إنه جدير بالمشاهدة».

حين خرج، ألف بيللي سانشيز نفسه تائهاً في ساحة الكونكورد. ورأى برج إيفل يعلو سطوح الأبنية فتراءى له قريباً جداً حتى أنه فكر بالوصول إليه عبر مسالك الأرصفة. لكنه سرعان ما تبيّن أنه أبعد مما خُيّل إليه. وبأنه في كل مرة يظنُّ فيها أنه بلغ مكانه يبعد البرج إلى ناحية أخرى. عندها عاد للتفكير بنينا داكونت. ومن على مقعده على ضفاف السين Seine، راح يراقب الزوارق وهي

تعبر ما تحت الجسور. رأى أنها لا تشبه القوارب بقدر ما تحاكي مساكن هائمة بسطوحها الملوّنة وبنوافذها ذات الحواشي المزخرفة بأحواض الزهور، وبالغسيل المنشور على حبال معقودة فوق ألواح خشبيّة ضخمة. وللحظات طويلة تابع صياداً ساكناً في مكانه، تأمّل قصبته الساكنة وصنارته الساكنة في التيار ثم ما لبث أن ملَّ إنتظار رؤية شيء ما يتحرك.

كان الظلام قد هبط فعزم على العودة إلى الفندق بسيارة أجرة، حينها أدرك أنه يجهل اسم وعنوان الفندق وبأنه لا يملك أدنى فكرة حول الحيّ الباريسي الذي تقع فيه المستشفى. مصاباً بحالة من الهلع ولج أول مقهى صادفه. وطلب قدحاً من الكونياك ساعياً إلى ترتيب أفكاره. وفيما استغرق في التفكير بانت له صورته معكوسة إلى ما لا نهاية. ومن جهات مختلفة في مرايا الجدران. فأدرك مدى إرتهانه للعزلة والخوف وتهجّس لأول مرة منذ ولادته بحقيقة الموت. بعد الكأس الثانية وقد تحسّن حاله راودته فكرة عجائبيّة بالعودة إلى السفارة، فبحث داخل جيبه عن البطاقة التي سُجّل عليها اسم الشارع واكتشف فيها أن ظهرها يحمل اسم الفندق وعنوانه. بلبلته تلك التجربة إلى حدٍ جعله يلازم غرفته طيلة نهاية الأسبوع لا يغادرها إلاّ لتناول الطعام أو لتغيير مكان السيارة. وكان الرذاذ اللزج الذي استقبلهما يوم وصولهما قد عاد يهطل دون هوادة طيلة الأيام الثلاثة.

أراد بيللي سانشيز الذي لم ينهِ أبداً كتاباً في حياته الحصول على واحد يصرفه عن البقاء في غرفته مسترخياً على السرير نهباً

للضجر، غير أن الكتب التي عثر عليها في أمتعة زوجته كانت مكتوبة بغير الإسبانية. بحيث اضطر لإنتظار الثلاثاء محدِّقاً في طواويس ورق الجدران من دون أن يكفَّ لحظة عن التفكير بنينا داكونت. نهار الإثنين عالج فوضى الغرفة قليلاً هاجساً بما ستقوله نينا داكونت إن وجدت الغرفة بهذه الحالة. واكتشف بغتة بقع الدم المتخثِّرة على معطف الفيزون فأمضى المساء بأكمله بتنظيفه بالصابونة الصغيرة التي عثر عليها في حقيبة الزينة إلى أن أعاده إلى هيئته الأولى حين سُلِّم إليها على متن الطائرة في مدريد. نهار الثلاثاء وكان الصباح قد أطلَّ ضبابياً وجليدياً لكنها لم تكن تُمطر. هبَّ بيللي سانشيز من نومه في السادسة صباحاً وتوجَّه لتوّه إلى المستشفى حيث كان يقف في الطابور حشد من أهالي المرضى متأبطين رزم الهدايا وباقات الزهر. دخل بخطى عاجلة حاملاً على ذراعه معطف الفيزون من دون أن يطرح سؤالاً أو يعلم مسبقاً بمكان نينا داكونت. لكنه كان واثقاً من لقاء الطبيب الأسيوي. واجتاز فناء رحباً يغصُّ بالزهور والطيور تُطلّ عليه أجنحة المرضى، النساء منهم لجهة اليمين والرجال لجهة اليسار. لحق بالزائرين ثم دلف إلى جناح النساء. وفي الضوء المنسلِّ عبر النوافذ لمح صفاً طويلاً منهن يجلسن على أسرتهن ويقتصر لباسهن على قميص كتانيّ خاص بالمستشفى. فكَّر أن الأمور تبدو أوفر بهجة مما تراءى له في الخارج. وبعد أن بلغ طرف الصالة إنكفأ على أعقابه ليجتازها بالإتجاه المعاكس إلى أن تأكد تماماً من أن أياً من المرضى لم تكن نينا داكونت. فقصد ثانية أسفل الرواق

لينظر عبر النوافذ داخل جناح الرجال. فجأة خُيِّل إليه أنه عثر على الطبيب الذي كان يبحث عنه.

واقعاً، كان هو بعينه. يعاين مريضاً يحيط به زملاؤه وبعض الممرضات. إقتحم بيللي سانشيز الجناح. ونحا بحركة واحدة إحدى الممرضات لينتصب أمام الطبيب الأسيوي المنحني فوق مريضه. وليستفهم مستوضحاً.

رمقه الطبيب بنظرة متكدّرة، متفكراً للحظات ثم فجأة تذكره.

«أين كنت بحق الشيطان؟ قال.

لبث بيللي سانشيز مذهولاً.

«في الفندق القريب جداً من هنا».

حينها علم أن نينا داكونت قد توفيت بعد أن نزفت كل دمائها صباح الخميس الواقع في 9 يناير في السابعة وعشر دقائق، وبعد أن كرّس لها أفضل الإختصاصيين الفرنسيين سبعين ساعة من الجهود العقيمة، وأنها بقيت حتى الرمق الأخير محافظة على هدوئها وصفائها وقد زودت المستشفى قبل ذلك بتعليمات تقضي بالبحث عن زوجها في فندق بلاز اتينيه Plaze Athéneé حيث كانت قد حُجزت غرفة بإسمهما. وبكافة التفاصيل الضرورية لإخطار ذويها. وقد تمّ إعلام السفير برقياً نهار الجمعة عبر وزارة الشؤون الخارجية بأن ذوي نينا داكونت في طريقهم إلى باريس. وتكفل السفير شخصياً بالإجراءات المتعلّقة بتحنيطها وبإعداد المأتم. كما ظلّ على إتصال دائم بقسم الشرطة في باريس للعثور على بيللي سانشيز. وأذِيع بهذا

الشأن نداء عاجل عبر الراديو والتلفزيون طوال الساعات الممتدة من نهار الجمعة حتى الأحد بحيث أصبح لثماني وأربعين ساعة الرجل الأول الذي تبحث عنه الشرطة الفرنسية.

وقد أُلصقت صورته التي عثر عليها في حقيبة نينا داكونت في كل مكان وتمَّ العثور على ثلاث سيارات من ذات طراز البنتلي الحاسرة السقف. إلاَّ أن أياً منها لم تكن سيارته. وصل ذوو نينا داكونت إلى باريس ظهر نهار السبت وأحيوا الليل ساهرين على جثمان ابنتهم في كنيسة المستشفى آملين حتى اللحظة الأخيرة بمجيء بيللي سانشيز. وكان ذوو هذا الأخير على وشك السفر بالطائرة بعد إبلاغهم نبأ المأساة حين أرغمهم خطأ برقي على العدول عن الحضور في اللحظة الأخيرة. أقيم المأتم في الثانية من بعد ظهر الأحد على بعد لا يتجاوز مئتي متر من الغرفة القذرة حيث كان بيللي سانشيز يصارع وحدته وهيامه بنينا داكونت. وقد روى لي بعد عدة أعوام الموظف الذي استقبله في السفارة أنه اطَّلع على برقية السفير بعد ساعات قليلة على مغادرة بيللي سانشيز السفارة وبأن البحث جرى عنه في كافة البارات المنعزلة في ضواحي سان ـ أونوريه Saint - Honoré. وصارحني أنه لم يعبأ كثيراً للوهلة الأولى بمصير الشاب ذلك أنه لم يكن بوسعه التصور أن هذا الريفي المشدوه بطرافة باريس والمتزي بسترة من فرو الخروف تلك التي لم تكن تليق به أبداً قد ينتمي إلى عائلة بمثل هذه الشهرة.

مساء الأحد عينه وفيما كان بيللي سانشيز يغالب دموع النقمة

والحنق، كان ذوو نينا داكونت قد عدلوا نهائياً عن البحث عنه وحملوا في نعش معدني جسد ابنتهم المحنط. ولم يكفّ أولئك الذين أتيح لهم مقاربة النعش عن الحديث لأعوام عديدة بأنهم ما رأوا قط بين الأحياء أو الأموات امرأة بمثل ذلك الحسن.

وهكذا حيث تمكن بيللي سانشيز من دخول المستشفى أخيراً صباح الثلاثاء، كان جسد نينا داكونت يرقد في قبو المدفن الكئيب الخاص بالعائلة في مقبرة لامانغا على بعد بضعة أمتار من المنزل الذي شرعا فيه معاً بفك رموز السعادة السحرية.

أراد الطبيب الأسيوي الذي وضع بيللي سانشيز في جو الفاجعة أن يصف له دواء مهدئاً لكن هذا الأخير تمنّع. ورحل من غير وداع لا يحدوه أي حافز للشكر. رغبة واحدة كانت تملك عليه تفكيره، هي الحاجة لتحطيم وجه إنسان ما بضربات سلسلته علّه يثأر بذلك لشقائه.

حين غادر المستشفى، لم يلحظ بأن السماء كانت تُمطر ثلجاً لا يحمل أثراً للدم. تشبه ندائفه النقيّة الناعمة زغب يمامة، وبأن لشوارع باريس سمة العيد. ذلك أن ثلوجها لعشرة أعوام خلت ما هطلت مرة بمثل هذه الكثافة.

المحتويات

صدر حديثاً

* أوهام الإمبراطورية وعظمة البرابرة-نظرية مجابهة الشمال مع الجنوب.
(جان كريستوف روفين) .
* التحضير للقرن الواحد والعشرين - (پول كينيدي)
* الحرب والحرب المضادة - (توفلر)
* المياه وأطروحة سوق الشرق الأوسط - (مؤتمر اسطامبول)
* أسباب عملية - (إعادة النظر بالفلسفة) - (بيار بورديو)

سلسلة العلاقات الدولية:

* في البحث عن النظام العالمي الجديد:
I - القانون الدولي وسياسة المكيالين (أوليڤييه كورتن - باربارا ديلكور وآخرون)
II - الأمم المتحدة: الشرعية الجائرة (باتريسيو نولاسكو- أنمي شاوس - آلان دايمس)

السلسلة الإقتصادية:

1 - على أبواب القرن الواحد والعشرين، أين أصبح العالم الثالث؟
(توماس كوترو وميشال هوسون)
2 - الفقر في البلدان الغنية (سرج ميلانو)

اثنتا عشرة حكاية تائهة

... لا أدري تماماً لمَ أوّلتُ هذا الحلم النموذجي بالوعي لهويتي، ولم اعتقدت بأنه يشكّل هذا تحديداً، نقطة إنطلاق في غاية الأهمية للكتابة حول الأحداث الغريبة التي يُعدُّ اللاتينو أميركيون أبطالها الأوائل في أوروبا.

... أكسبتني كتابة هذه الحكايات، متنقلاً من واحدة إلى أخرى بمنتهى الحريّة، رؤية بانوراميّة، جنّبتني الإحساس بعناء البدايات المتتالية، وأعانتني على تحاشي الإطناب المتواني والتناقضات المميتة. وأعتقد أنني بهذا أتقنت مجموع الحكايات التي تقارب إلى حدٍّ بعيد ما كنت أتوق دوماً لكتابته.

غابرييل غارسيا ماركيز

الـدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى
ص.ب. 921 سرت — هاتف: 6363170-6363174